

الفصل الثاني

الزعيم الثالث للحركة السنوسية أحمد الشريف السنوسي

هو العالم الجليل والقائد العظيم، والمجاهد القدير الذي قاد كتائب الجهاد ضد فرنسا في تشاد، وضد إيطاليا في ليبيا، وضد بريطانيا في مصر السيد أحمد الشريف ابن محمد الشريف بن محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي⁽¹⁾.

المبحث الأول

ولادته وتربيته وشيوخه

يتفق معظم المؤرخين على أنه ولد بواحة الجغبوب ليلة الأربعاء بتاريخ 27 شوال سنة 1290هـ الموافق لسنة 1873م⁽²⁾، انكب منذ طفولته على القراءة والتحصيل وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة.

تربى رحمته في حجر والده العلامة محمد الشريف وحينما ترعرع وبلغ السادسة من عمره دخل تحت كنف عمه المهدي السنوسي، فاهتم بتربيته وتهذيبه، وأشرف عمه على تعليمه وتحفيظه للقرآن الكريم، ولما أتم حفظ القرآن الكريم قال له عمه: أنت ما أخذت من القرآن إلا عني⁽³⁾.

ومن أشهر العلماء الذين تعلم وأخذ العلم عليهم: محمد الشريف السنوسي ومحمد المهدي السنوسي، وأحمد الريفي، ومحمد مصطفى المدني التلمساني، وعمران بن بركة وهو جده من جهة الأم⁽⁴⁾.

(1) انظر: الفوائد الجليلة (2/ 8، 9).

(2) انظر: أعلام ليبيا، للزاوي، ص51.

(3) انظر: الفوائد الجليلة (2/ 9).

(4) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، مصطفى هويدي، ص22.

ارتحل مع عمه من الجغبوب إلى الكفرة عام 1312هـ، وأسندت إليه مسؤوليات جسام منذ البلوغ، وكان يشرف على رعاية القافلة المتجهة إلى الكفرة والتي تتكون من 2600 شخص، وكان ينفذ أوامر عمه بدقة وعلى خير ما يرام، فلم يعرف الركون إلى الراحة.

وفي سنة 1317هـ ارتحل مع عمه محمد المهدي إلى منطقة قرو بالسودان الأوسط، في مهمة دعوة الناس وتعليمهم الدين الإسلامي، وألف أحمد الشريف كتاباً عن هذه الرحلات أسماه «السراج الوهاج في رحلة السيد المهدي من الجغبوب إلى التاج»⁽¹⁾.

وشارك مع عمه وأتباعه في مجموعة معارك بالسودان وتشاد ضد الفرنسيين في مناطق مختلفة، مثل «واداي، كلك، علالي، وان، جنقة الكبرى، جنقة الصغرى، تبستي، بركو، قرو... إلى آخره»⁽²⁾ واستمر الصراع السنوسي الفرنسي إلى ما بعد وفاة محمد المهدي.



(1) ويسمى أيضاً «الدر الفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب إلى التاج».

(2) انظر: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة، ص 77.

المبحث الثاني

أحمد الشريف يتولى قيادة الحركة

ولما شعر محمد المهدي بدنو أجله، عهد إلى ابن أخيه بالقيادة؛ لما توسم فيه من القدرة على الاضطلاع بأعباء الحركة، والوصاية على الخليفة الشرعي «إدريس»؛ ولما لمس فيه من صفات قيادية، واستعداد فطري، وخبرة اكتسبها في معاركه ضد فرنسا أهلته لتولي القيادة⁽¹⁾. وكان إسناد الزعامة إلى أحمد الشريف قد صادف قبولاً وارتياحاً من جانب جميع الإخوان الذين اجتمعوا بالكفرة يوم 12 ربيع الأول من عام 1220هـ الموافق ليوم 19 يونيو 1902م حيث جرى الاحتفال بانتخاب أحمد الشريف⁽²⁾.

استمر أحمد الشريف على نهج زعماء الحركة السنوسية، فواصل الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، ونشر الدعوة الإسلامية بكل حكمة في إفريقيا، واتخذ من الكفرة عاصمة للحركة السنوسية وأتاب عنه محمد السني لإدارة أمور الجهاد، وشرع أحمد الشريف في تشكيل جبهة إسلامية ضد الغزو الفرنسي الزاحف من جنوب تشاد إلى شرقها وشمالها، فقام بالاتصال بسُلطان واداي «داود مرة» سنة 1903م، وأقنعه بسحب اعتراف واداي بالحماية الفرنسية على كانم، وباقومي، واستجاب السلطان داود لذلك وسحب اعترافه بالحماية الفرنسية⁽³⁾. واتصل بالسلطان علي ديتار «سلطان دارفور» الذي أعلن توحيد جهود المسلمين ضد الغزو الصليبي الأوروبي⁽⁴⁾. لقد رأى أحمد الشريف أن التوسع الفرنسي في الصحراء الإفريقية يعتبر تهديداً مباشراً لحركته الإسلامية الدعوية، ولتجارة القوافل التي كانت تدعم بمردوداتها الاقتصادية نظام زواياه في تلك المناطق⁽⁵⁾.

لقد كان تجار القوافل التابعين للحركة السنوسية من أعمدة الحركة الاقتصادية، ولنضرب مثلاً على ذلك بالحاج أحمد الثني الغدامسي الذي كانت له تجارة عظيمة مع أهل برنو ووادي وغات ومصر وطرابلس وتونس، وكان جميع ما يأتي إلى جغبوب يأتي على يديه وهو الذي يجلبه إلى هناك بأثمان متهاونة، وفقاً بالإخوان، ولذلك كان من المقربين من الشيخ محمد المهدي⁽⁶⁾.

(1) انظر: صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، محمد عيسى، جامعة الكويت الحولية الأولى، عام 1980م، ص7.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص98.

(3) انظر: العلاقات الليبية التشادية، سعيد عبد الرحمن، مركز دراسات الجهاد، 1983م، ص86.

(4 - 5) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص23.

(6) انظر: رحلة الحشاشي، ص171.

إن الحركة السنوسية في بداية أمرها لم تكن لها سلطة الأحكام الذي يدبرون الشؤون العامة كالعزل والتولية وإقامة الحدود، وجباية الأموال، وتنفيذ الأحكام، بل كان بداية أمرها الاهتمام بالدعوة إلى الله، وإرشاد العباد إلى العمل بما يأمر به دينهم الحنيف، ويسعون لإصلاح ذات البين، ويتبادلون النصح للحاكم والمحكوم، ويرشدونهم إلى تعاليم كتاب الله، وتعاليم سنة رسوله، ويحرضونهم على بناء المساجد لإقامة الشعائر الإسلامية فيها، ويقومون هم وأتباعهم بعمارة هذه المساجد بتعليم كتاب الله، والصلوات فيها، ويبدلون الجهد لفض المنازعات ما بين القبائل والمتخاصمين ويعلمونهم كيفية إخراج زكاة أموالهم، وكيفية عقد أنكحتهم، ويحرضونهم على نبذ العادات المخالفة للشرع، وبدأ جهادهم المنظم لحكومة فرنسا التي بدأت بالاعتداء على دعوتهم وحركتهم وقاوموا فرنسا غيرة على الدين الإسلامي الذي نشرته الحركة ودعاتها في مجاهل إفريقيا⁽¹⁾.

لقد قام الفرنسيون بعدما دانت لهم تشاد عام 1909م بهدم مراكز الإصلاح والإرشاد التابعة للحركة السنوسية، وإلغائها، واستطاع أحمد الشريف أن يقنع العثمانيين بضرورة دعمه، والوقوف مع حركته، وأسفرت مفاوضاته مع العثمانيين عن إرسال جند من النظاميين إلى برقو والتبستي وتأسيس قائمقام في الكفرة، عين بها الشيخ كيلاني الأطيوش من قبيلة المغاربة الرعيضات وهو والد المجاهد الكبير الذي دوخ إيطاليا صالح باش الأطيوش، ورفعت الراية العثمانية في «وان» بالقرب من عين كلك، وكان المشرف على حركة الجهاد الشيخ الجليل محمد السني الذي أرسله المهدي إلى «أبشة» عاصمة وادي عقب انتقاله من الجغبوب إلى الكفرة، وهكذا ظلّت المناوشات دائرة بين السنوسيين والفرنسيين، واستطاع «الكولونيل لارجو» في ديسمبر عام 1913م أن يلحق بالمجاهدين هزيمة كبيرة في «قرو» حيث جرح ولدا السيد المهدي السني نفسه (عبدالله وعبد العال)، ووقعا في الأسر⁽²⁾. إن الفرنسيين كانوا يشعرون بالخطر العظيم من قبل الحركة السنوسية وكذلك الدول الأوروبية، وقد نشرت جريدة (دي كولوني) الألمانية كلاماً عن عالم ألماني خبير بأحوال إفريقيا عامة والسنوسيين خاصة زعم فيه أن عددهم يبلغ تسعة ملايين، وأن في وسعهم إنفاذ جيش إلى مصر والسودان مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل، وذكر مجملاً من تاريخهم عربته جريدة «المؤيد» عن جريدة «الميموريال» وهو: «إن طريقة السنوسية مهمة جداً من حيث انتشارها السياسي في إفريقيا، ومن حيث الكفاح القائم بين الديانتين الإسلامية والمسيحية في هذه القارة، وقد أنشئت هذه الطريقة منذ خمسين عاماً تقريباً أي في عام 1855م بواحة الجغبوب، وواضع أساسها هو الشيخ محمد بن علي

(1) انظر: الفوائد الجليلة، (2/15 إلى 22).

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص100.

السنوسي . . . ثم خلفه ابنه المهدي وكان وقتئذٍ فتياً وهو إلى اليوم رئيس المذهب الذي أصبح على عهده واسع النطاق منتشرًا في الآفاق وإشارة منه تكفي الآن لإزالة الشحنة والخصومة من بين سلطانيين من سلاطين إفريقيا إذا قام بينهما الشقاق واستحكم الخلاف لأمر من الأمور، ومن الأمور التي لا ريب ولا خلاف فيها أنه إذا جاء يوم أمر فيه بالجهاد وأشار بالحرب الدينية اهتزت لصوته أركان العالم الإسلامي التي تتراعى في حدوده في إفريقية إلى مصر شرقاً والكونغو جنوباً حتى بحيرة تشاد ومراكش غرباً، وعليه يكون حزب السنوسي قد صار قوة من القوى السياسية التي ينبغي على كل دولة من دول أوروبا أن تعمل لها حساباً، وقد اشتهر سيدي المهدي محمد بالتناهي في التقوى والصلاح ورعاية أمور الدين، والتكشف في المعيشة وهو دائب السعي على توفير أسباب الوثام والاتفاق بين الأقسام والشعوب الإفريقية . . .»⁽¹⁾.

إن أعداء الإسلام يحاولون أن يرصدوا أي تحرك مفيد للدعوة والمسلمين ويعملون ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً على التحذير منه، وتشويهه ووضع العوائق في طريقه مهما كلفهم الثمن، يدفعهم ذلك حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين.

يقول إدرو سالفو استناداً إلى الوثائق الفرنسية: « . . . من المهم أن نوضح أن السنوسية لم تكن مجرد حركة متدمرة ومتعصبة، فهي طريقة إصلاحية تهدف إلى إحياء الدين الإسلامي وإرجاعه إلى أصوله السلفية، كما تهدف إلى تحرير العالم الإسلامي من التبعية الاستعمارية التي سقط فيها، وإلى جانب ذلك الهدف الديني فإن السنوسية لها هدف آخر سياسي في غاية الأهمية، وهو توحيد إفريقيا الإسلامية أولاً، وتوحيد العالم الإسلامي بعد ذلك في إمبراطورية إسلامية جديدة، تتمتع بالأبهة والمجد والعظمة، وخالية من الشوائب التي لحقت بها خلال القرون التي ابتعد فيها العالم الإسلامي عن السنة النبوية الصحيحة مما أضعفه نتيجة لذلك، وبالإضافة إلى الهدف الديني والهدف السياسي هناك أيضاً الهدف الاقتصادي حيث كان الإخوان يتنافسون بينهم على أعمال الزراعة والصناعة الخفيفة والتجارة من أي مكان تمد فيه الزوايا السنوسية أعمالها ونشاطها»⁽²⁾.

لقد كان الصراع بين فرنسا والحركة السنوسية في إفريقيا على أشده، وتميز السنوسيون في جهادهم بقدرتهم على الكر والفر، وكانت قبائل الصحراء والقبائل الليبية تتمحور حول قيادة الحركة السنوسية، وبدأت قبائل توارق النيجر تتجه شرقاً للالتحاق بحركة الجهاد، ولم تقع في النيجر أي حوادث تذكر حتى بداية عام 1903م عندما بدأ الفرنسيون يزحفون نحو الشمال⁽³⁾.

(1) انظر: تاريخ الإسلام، أنور الجندي، ص 217.

(2) انظر: الثورة السنوسية، ترجمة عبد الرحمن عبد اللطيف، ص 12.

(3) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، محمد القشاط، ص 115.

واندلعت المعارك الطاحنة التي كان خلفها أتباع الحركة السنوسية، وكان من أشهر قادة الحركة السنوسية:

أولاً: المجاهد محمد كاوصن:

ولد محمد كاوصن في بلدة «مرفو» حوالي عام 1880م ويتبع إلى قبيلة «إيكزكن» إحدى القبائل الشريفة في سلطنة والليمدان وإليها تنتهي رئاستها، قاد حركة الجهاد ضد فرنسا في النيجر في الحرب العالمية الأولى، وأبلى بلاءً عظيماً، وقد عاش هذا القائد أحداث الجهاد منذ اصطدام توارق شمال النيجر ضد فرنسا عام 1901م، وهاجر ضمن قبائل التوارق نحو الشرق، حيث استقر «بقورو» وانضم للطريقة السنوسية وكان ضمن المجاهدين في هجومهم على «وشنكال» في نوفمبر في عين «كلكا» وكان من ضمن المستولين على الموقع الفرنسي التابع لسرية الهجانة في كانم بقيادة الملازم «موتوت».

وقد أعجب به أحمد الشريف وأسند إليه قيادة «عين إيدي»، وانطلق مجاهداً، فأغار على بيسكري عام 1910م، وضغطت عليه القوات الفرنسية، فلجأ إلى دار فور حيث «سلطنة علي دينار» ثم رجع إلى «أوتياكا» والتحق بالشيخ محمد السنوي في سبتمبر عام 1911م، ثم سافر إلى يروكو وواداي ووضع نفسه تحت قيادة القائمقام العثماني في «عين كلكا» أكتوبر 1911م، وفي 23 مايو 1913م شارك كاوصن في معركة أم العظام ضد فرنسا ولم يتمكن المجاهدون من النصر واستشهد القائد عبدالله الطوير الزوي أثناء المعركة⁽¹⁾، وبعدها انتقل كاوصن إلى فزان ووصل واو ودخل تحت قيادة محمد العابد السنوسي مندوب أحمد الشريف في فزان، وشارك في جهاد أهل الجنوب ضد إيطاليا، ثم رجع على رأس مجموعة من المجاهدين للاستيلاء على شمال النيجر وطرد الفرنسيين منها، وراسل كاوصن سلاطين التوارق والليمدان، والآيبر، ومشايخ قبيلته يطلب منهم إعلان الجهاد المقدس ضد الكفار، ويعددهم بالنصر ويبلغهم أن الألمان سيلاقونهم في نيجيريا⁽²⁾.

يقول سالفو: «ولكن كاوصن كان قد بدأ فعلاً في مراسلة مختلف زعماء التوارق في آيبر وخاصة سلطان «أقدز» و«تاقامة» صديقه المتواطء معه عن طريق مراسلات سرية منتظمة»⁽³⁾.

ويقول سالفو: «ومن ناحية أخرى قام تاقامة بالاتصال مع عدد من زعماء القبائل طالباً مساعدتهم في المعركة المرتقبة التي تستعد السنوسية لخوضها مع الكفار، فلبت القبائل:

(1) انظر: جهاد الليبين ضد فرنسا، ص157.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) انظر: الثورة السنوسية، ص68.

إيكزكزن، إفدين، كل أغاروس، كل فروان، نداء تاقامة على الفور، كما ردت قبائل المشكرة، تكريكريت، والليمدن في منطقة طاوه بالموافقة على نداء سلطان أقدز، فجاءت هذه القبائل واستقرت في المدينة مع العائلات والمواشي...»⁽¹⁾.

وفي سرية تامة انطلقت كتائب المجاهدين التي يقودها محمد كاوصن القائد السنوسي باتجاه أقدز في أواخر فصل الخريف من عام 1916م، متجنين حر الصحراء وحاجة المسافرين للماء، وفي مساء ليلة 12 - 13 ديسمبر كان المجاهدون يطوقون أقدز وقد قبضوا في تلك الليلة على مجموعة من المشبوهين ومن لهم علاقة بالفرنسيين، مثل مترجم المركز الفرنسي، وتاجر تونسي يدعي بأنه يتعامل مع الفرنسيين في التجارة، كما تم القبض على شخص أمريكي تابع لجمعيات تنصيرية⁽²⁾.

قسم المجاهدون قواتهم إلى مجموعتين:

1 - المجموعة الأولى بقيادة محمد كاوصن.

2 - المجموعة الثانية بقيادة أغالي من قبيلة إيكزكزن.

كانت كتائب المجاهدين تتكون من مجموعة كبيرة من الليبيين وحوالي 40 شخصاً من الشعانية جزائريين يرأسهم مولاي قدور وهو جندي سابق مع فرنسا، فر من جيشهم والتحق بالمجاهدين، ومجموعة من أهالي توات «الجزائر» يرأسهم بوخريص، والتحق بالمجاهدين، مجموعة من سكان الجنوب التونسي⁽³⁾.

وبدأ المجاهدون في قصف المركز الفرنسي صباح يوم 13 ديسمبر لإجباره على التسليم، وفي 18 ديسمبر سقطت أربعون قذيفة على المركز وألحقت به أضراراً بالغة، وكان محمد كاوصن يدير المعركة بمهارة فائقة، وقدرة رائعة، ويشرف على سير المعركة، واستطاع المجاهدون أن يستولوا على المدينة، وتحصلوا على غنائم ولم يبق إلا المركز المحاصر الذي تخندق الفرنسيون داخله حيث تموينهم، وسلاحهم، وذخائرهم، وبدأ المجاهدون يرسلون الدوريات إلى المناطق المجاورة، وإلى تقاطع الطرق المؤدية إلى أقدز، وفي يوم 26 ديسمبر 1916م اصطدمت قوة من المجاهدين بمجموعة فرنسية بقيادة الملازم سودان قادمة من زندر وأبادتها وقتلت الملازم سودان.

علم المجاهدون بقدم قوة فرنسية تحمي قافلة الملح القادمة من بلما، فخصص كاوصن

(1) انظر: الثورة السنوية، ص70.

(2 - 3) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص159.

قسماً من جماعته لحصار المركز، وانسحب بمن معه لملاقة القافلة، ونصب لها كميناً في منطقة «شين تبوراق» يوم 27 ديسمبر 1916م⁽¹⁾.

يقول النقيب «ساباتي» بتاريخ 28 ديسمبر عام 1916م: «إن إطلاق النار قد سمع من بعيد في حوالي الساعة 17 من جهة الشرق، وبما أن الوقت متأخر فإنني لم أعين مجموعة للقيام بالاستطلاع في تلك الجهة، وكان ذلك خسارة للفرنسيين؛ لأنه كان معركة «شين تبوراق» الشهيرة لا تنسى»⁽²⁾.

وقد استطاع المجاهدون تحقيق نصر ساحق ضد القوة الفرنسية وكان حصار معركة شين تبوراق: (60) ستين من رجال الهجانة التابعين للفصيل المتنقل قد لقوا حتفهم فلقى الملازم «ديفو» والطبيب العسكري «رينود» والعريف «مريل» والعريف «قازلان» نفس المصير⁽³⁾.

كما استولى المجاهدون على ستة أسرى، وستة من سكان المنطقة المجندين مع الفرنسيين وأعدموهم.

يقول كافيو: «ولكن من الناحية المعنوية فإن الهيئة التي أحرزها كاوصن من هذه الضربة كانت واضحة، فانتشرت أخبار الانتصار بسرعة في أحياء التوارق، فزاد من تشجيع السنوسيين وأتباعهم وأصدقائهم ورفع معنوياتهم، فحسم موقف المترددين فقرروا الانضمام للمعسكر الأقوى، وفي ذلك الوقت على كل حال كان الأقوى في نظر الأهالي كاوصن، وقد توافد التوارق إلى معسكر كاوصن للانضمام إليه، ومن أجل الحصول على الشرعية للمشاركة في الغنائم»⁽⁴⁾.

ويقول ساليفو: «وفي 28 ديسمبر في أثناء الليل زمجرت الطبول المعلنه للاحتفالات في مدينة أقدز، وكان الوطنيون يحتفلون بانتصارهم الساحق ضد الرجال البيض الكفار»⁽⁵⁾.

وكانت رسائل كاوصن تصل إلى السلاطين في مناطق التوارق تدعوهم للانضمام للجهاد ضد الكفار، وكانت في هذه الأثناء مجموعات من المجاهدين الليبيين تهاجم أزوار بشمال تشاد، وأخرى تهاجم جادو، كما أن مجموعات أولاد سليمان في شمال تينبكتو توجهت للمساهمة في حصار أقدز بقيادة الخليفة ولد محمد، وهكذا تشتت كل جهود الفرنسيين.

(1) المصدر السابق نفسه، ص160.

(2) انظر: الثورة السنوسية، ص82.

(3) المصدر السابق نفسه، ص85.

(4) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص161.

(5) انظر: الثورة السنوسية، ص86.

يقول ساليفو: وهكذا إذن لم يكن أي فصيل من الهجانة في كل أنحاء إقليم النيجر مستعداً للذهاب إلى أقدز، فما العمل؟ هل يطلب من فصائل السودان التدخل، وعلى الأخص من فصائل كيدال وتنبكتو التي كانت قريبة أكثر من غيرها؟ ولكن وبدون شك فإن القدر قد ساعد جماعة كاوصن؛ لأنه في الواقع إذا كانت فصائل الهجانة مشغولة هنا في أي مكان من النيجر فإن هجانة كيدال قد انطلقوا لتوهم في مطاردة غزوة عبر الصحراء⁽¹⁾.

ويقول ساليفو نقلاً عن المصادر الفرنسية: «فلا فائدة أيضاً من النظر إلى إقليم الجنوب الجزائري، فقد تم إخلاء حصن (بولينيك) وهاجم السنوسيون حصن (موتيلانسكي)⁽²⁾».

«كان الموقف الأوروبي هو الذي استهدفته مسألة (كاوصن) وهددته في إفريقيا الوسطى، ألم يكن كاوصن لديه مشروع التوغل في بلاد الهوسا؟ وحينئذ تضامن الإنجليز والفرنسيون الذين كانوا قبل سنوات يتنافسون على هذه الأراضي التي لا يفصل بينها إلا خط وهمي يمر من ساي - بارو - فحاولوا نسيان منازعتهم القديمة لمواجهة عدوهم المشترك⁽³⁾».

وهكذا توحدت جهود فرنسا وبريطانيا، وعملاء المنطقة على محاربة المجاهدين، وعلى رأسهم كاوصن⁽⁴⁾ ولقد اندلعت معارك ضارية بين القوات الأوروبية، وقوات المجاهدين وكانت الغلبة للقوة التي ملكها الأوروبيون، وقد فصل الدكتور محمد القشاط تلك المعارك⁽⁵⁾: (لقد أتعب كاوصن الفرنسيين، وقد أبلى بلاءً حسناً، وكانت وفاته في ليبيا حيث تعرض لكمين من بعض القبائل التي كانت تكن له الكراهة والبغض نتيجة لسوء تفاهم بينهم، فعندما مر بحطية أم العظام في جنوب ليبيا بمنطقة فزان هاجمه مجموعة من الرجال، فأمر مجموعته بعدم إطلاق النار قائلاً: «هؤلاء لا بد مسلمون جهلونا، فالفرنسيون بعيدون من هنا وكذلك الطليان» وتقدم ليوضح لهم فقبضوا عليه، وضربه رجل اسمه العياط بالسوط فقال كاوصن مخاطباً العياط: «أنا كاوصن لا أضرب بالسوط اضربني بالرصاص» فأخذه حيث أمره بحفر قبره بيده وقتلوه بعد أن صلى ركعتين في 5 يناير 1919م).

وهكذا انتهت حياة هذا المجاهد العظيم على يد أحمد العياط الذي قتل عام 1924م على يد أحد المجاهدين بالحماة الحمراء وهو يقاتل مع الطليان⁽⁶⁾.

(1) انظر: الثورة السنوسية، ص 91.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 92.

(4) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 165.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 165 إلى 180.

(6) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 176.

أما بقية المجموعة من مجاهدي الصحراء فإنهم حين سمعوا بخبر كاوصن وظهرت لهم الحقيقة رجعوا إلى النيجر، حيث انسحبوا ليلاً، وأخذوا معهم زنادات المدافع، وتابعتهم قوات خليفة الزاوي التابعة للأتراك الذين رغبوا ما بين عامي 1916م - 1918م في القضاء على نفوذ السنوسية في فزان والذي كان يقوده محمد عابد السنوسي.

ووجدت قوات الزاوي اثنين منهم مغمياً عليهما من العطش فأسعفاهما وأرجعاهما إلى حيث دفنوا زنادات المدافع وقتلاههما، ومع الأسف الشديد والحزن العميق كان أحد أولئك القتلى السلطان المجاهد الخورير سلطان والليمدن الذي لم يستطع مواصلة السير من العطش، وسلم ولده الصغير محمد لأحد رفاقه وسقط هناك.

واستمر عبد الرحمن تاقامة يقود المجموعة المنهكة، والقليلة الزاد، والذخيرة، راجعاً إلى الصحراء متخذاً من جبالها درعاً له⁽¹⁾.

إن تلك الفتنة التي حدثت بين خليفة الزاوي، ومحمد عابد السنوسي ساهمت في إجهاض حركة الجهاد في الصحراء الكبرى⁽²⁾، وإني أعرضت صفحاً عن تفصيلها، أما عبد الرحمن تاقامة، فقد كان على علاقة وثيقة بالحركة السنوسية، ولذلك استجاب لنداء الجهاد المقدس ضد فرنسا، عندما وصله من زعامة الحركة، وساند الحركة محمد كاوصن، وكان يمون ويمول المجاهدين طوال حصار أقدز في النيجر، والذي استمر قرابة الثلاثة أشهر، وعندما فك الحصار المجاهدون، انسحب معهم، وقاتل فرنسا بضرارة، إلى أن وصل فزان حيث استقبلهم خليفة الزاوي حاكم مرزق محارباً، ولما قتل كاوصن انسحب عبد الرحمن تاقامة عائداً إلى الصحراء.

كان الفرنسيون يتابعون الأحداث:

يقول ساليو: «كان الفرنسيون يتابعون تطورات الوضع السياسي في فزان عن كثب، وكانوا يعلمون أن كاوصن قد قُتل، ولكن تاقامة ما زال حياً مما سبب لهم نوعاً من القلق، وفي الحقيقة كانت شعبية سلطان آيبر الأسبق ما زالت عميقة، وكان الفرنسيون يعلمون أيضاً أن تاقامة يستطيع أن يجمع حوله من جديد عدداً من الأتباع ويهدد بوجه خاص تخوم المناطق الصحراوية في النيجر»⁽³⁾.

ولذلك شرع الفرنسيون بالتصدي له محاولين أن لا يسترد أنفاسه؛ لأن مجموعات من

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 177.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 175.

(3) انظر: الثورة السنوسية، ص 155، 156، 158.

مشايخ القبائل في النيجر بدأت تعلن العصيان بعد أن علمت بوصول المجاهد عبد الرحمن تاقامة، بل بعضهم قام بإرسال جمال لإنقاذ مجموعات عبد الرحمن من العطش الذي أنهكهم»⁽¹⁾.

يقول ساليفو: «وكان الفرنسيون قد أخذوا على عاتقهم وبكل ثمن منع تاقامة من التوجه إلى الكفرة أي إلى ذلك المركز الروحي «التخريبي» الذي لعب دوراً كبيراً وهاماً في النضال من أجل زعزعة استقرار المسيحيين في إفريقيا»⁽²⁾.

وقد أرسل الفرنسيون فرقة لمصادمة تاقامة الذي وصل إلى جبال تيبستي وشرع الفرنسيون في سجن المواطنين، وتعذيبهم وأخذ أولادهم ونسائهم رهائن، واتخذوا منهم مرشدين للطرقا لمتابعة مجموعات تاقامة الجهادية التي توزعت في الجبال وتقسمت إلى مجموعات صغيرة لنقص الجمال والتموين، وفي 8 مايو 1919م استطاع الفرنسيون بواسطة المرشدين أن يطوقوا المجموعة الصغيرة، وفاجأوا المجاهدين بإطلاق النار من قريب، فسقطت تلك المجموعة شهداء في ساحة الجهاد، وكان عددهم عشرة، وأسر عبد الرحمن تاقامة وزوجته بعد أن نفذت ذخيرته، ثم أودع السجن في زندر، ومنها إلى أقدز (النيجر) حيث شهر به، وكان مكبلاً بالحديد في رجليه ويديه وعنقه ويحرسه ستة من الجنود، وفي ليلة 29 - 30 أبريل 1920م اقتحم أمر أقدز النقيب الفرنسي «فيتاني» وخنق ذلك الأسد المكبل في قيوده ليصعد روحه مع الشهداء، وأصحاب الجنان، بإذن ربها، وادعت السلطات الفرنسية بأن عبد الرحمن انتحر، ليغطوا بذلك على فعلتهم الشنيعة، وبذلك أسدل الستار على حياة هذا المسلم المجاهد الذي خاض حروباً طاحنة، ومعارك ضارية، وجهاداً مريراً ضد النفوذ المسيحي الفرنسي في الصحراء الكبرى، فعليه من الله المغفرة، والرحمة والرضوان، وأعلى الله ذكره في المصلحين⁽³⁾.

ونرجع إلى القائد العظيم محمد كاوحن لنلقي الضوء على بعض رسائله التي كان يحرض بها الزعماء في منطقة الصحراء الكبرى لينضوا تحت راية الجهاد التي كانت تحملها الحركة السنوسية.

رسالة من كاوحن إلى أعمامه:

أقدز في 10 مارس 1917م.

بسم الله الرحمن الرحيم: «إلى سيادة العزيز الكريم الكامل، إلى عمنا الحاج موسى،

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 177.

(2) انظر: الثورة السنوسية، ص 157.

(3) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 178.

وعنا «أدمير» وإلى جميع قبيلة «إيكزيكزن» وكل من في حمايتهم السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وعلى كل أحبائكم وأصدقائكم سلاماً تاماً يعمكم جميعاً أنتم وبلادكم.

إن سألتم عنا فنحن على خير، ولا ينقصنا ولا نهتم إلا بكم، ونرجو من الله أن نلتقي معكم قريباً، والله سميع مجيب الدعوات، ونطلب من الله تعالى أن يجمع شملنا بجاه النبي الحبيب ﷺ.

ونحيطكم علماً بأن ما يجري في الوقت الحاضر ليس إلا خيراً وأن الله سبحانه وتعالى والزعماء قد طردوا الفرنسيين في بلاد «أزقير»، وأن المجاهدين قد استولوا على مراكزهم. إن المسلمين جميعاً قد قاموا إلى الجهاد، وإن الشعانبة⁽¹⁾ الذين كانوا مع أعداء الله قد انقسموا، فهرب بعضهم وذهب إلى المناطق الرملية قرب «غدامس»، وكذلك الذي يسترونه في رسالة أخينا المختار بن محمد بأن قوات كبيرة تتوجه الآن إلى الإقليم الذي يحتله الفرنسيون أعداء الله ورسوله، واعلموا أن الحكومة التركية والألمانية ينتظروننا في «كانو» حيث سبقونا، ولا تشكوا في ذلك، وكونوا رجالاً وانتظروا.

إن كل البلاد التي ستفتح بين البحر ومصر ستسلم إلى الحكومة السنوسية، وتلك هي النصيحة التي أوجهها لكم، تمسكوا بها إن الله العلي القدير قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56].

والسلام، إنها رسالة قادمة ممن يدعون الله من أجلكم وعنهم كاوصن بن محمد⁽²⁾.

كتبت في 6 ذي الحجة 1334هـ أكتوبر 1916م

ومختوم بختم يحمل العبارة التالية:

خادم الحكومة السنوسية

حاكم وادي فزان

كاوصن 1334هـ

ومن رسائل محمد كاوصن إلى قبيلته يخبرهم بقوله:

«وإننا نخبركم بأننا قد أرسلنا من طرف سيدنا الأكبر السيد محمد العابد الشريف بآرك الله فيه وبارككم، فأمرنا بإنهاض الناس وتحريضهم على القتال في سبيل الله والطريق المستقيم وعلى كلمة الدين...»⁽³⁾.

(1) من القبائل الجزائرية الكبيرة.

(2) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 244.

(3) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 247.

ويقول في فقرة أخرى من الرسالة:

«وكل ما نريده هو أن يتبع الناس جميعاً الطريق المستقيم؛ لأننا نعمل وفقاً لإرادة الله، ونطيع أوامر السيد العابد؛ لأن عهده قد بدأ بدون أدنى شك، وبكل يقين، وليس هناك سلطة أخرى غير سلطته؛ لأن العالم قد قسم فأخذ كل واحد نصيبه - وذلك بمشيئة الله - وأنتم من الجزء الذي يقع في نصيب السيد محمد العابد. يا أيها الناس فكروا جيداً، إنا مبعوثون من عنده لنهديكم إلى الصراط المستقيم، ونقوم بإدارة بلادكم، فلتبق هذه الكلمات في ذهنكم وتقبلوا تحيات خادم الطريقة المجيدة الشريفة الصحيحة الطريقة السنوسية...»⁽¹⁾.

ثانياً: المجاهد محمد عبد الله السني:

ومن قيادات الحركة السنوسية التي قادت حركة الجهاد ضد فرنسا في تشاد، ولد بمزدة سنة 1268هـ الموافق 1851م، من أسرة تنتمي للعباس بن عبد المطلب، جاء جدها الأول من المدينة المنورة، ونزل بواد قرب بلدة سنار بالسودان، فسمي الوادي باسمه «وادي مدني».

انتقل والده إلى مكة حيث درس الفقه وعلوم الدين على يد الشيخ أحمد بن إدريس حيث التقى هناك بالشيخ محمد بن علي السنوسي، والذي عاد برفقته إلى ليبيا، واشتركا في تأسيس الزوايا لتعليم القرآن، وعلوم الدين، حيث شرع الشيخ السنوسي بتكوين زواياه بالجبل الأخضر، وفي المناطق الشرقية من ليبيا، وبدأ الشيخ عبد الله السني في تأسيس زواياه في غرب ليبيا حيث أسس زوايا في غدامس، ومزدة، والحراة، ومصراته، وغيرها.

ولما توفي الشيخ عبد الله سنة 1296هـ تولى ابنة إدارة الزوايا وتأسيس زوايا أخرى حيث أسس زاوية غريان، والقلعة، والعمامرة، والرحيبات، وكان رجلاً مباركاً سعى إلى إخماد الكثير من الفتن بين القبائل، وفي عام 1313هـ عاد أخوه عبد السلام من الكفرة بعد أن أنهى تحصيله العلمي، فترك له أمر الزوايا وذهب إلى الكفرة لملاقاة الشيخ محمد المهدي السنوسي، الذي تولى أمر الدعوة بعد وفاة والده.

وعند وصوله إلى هناك أمره شيخه بالتوجه لنشر الدين الإسلامي، وصد التغلغل التبشيري المسيحي في بلاد السودان «تشاد الحالية والنيجر».

سافر إلى هناك عام 1896م وأسس زاوية «قرو» وعدة زوايا أخرى واستقر «بكانم» حيث تتواجد القبائل العربية الليبية، أولاد سليمان وغيرها، وأرسل في إحضار جزء من أسرته حيث لحق به ابنه عبد الله، وعبد العالي، وبقيت الأسرة في مزده، واستمر في جهاده في الصحراء أكثر من عشر سنوات، لقد شارك في الجهاد ضد فرنسا واصطدم بقواتها وساهم بنفسه وماله في

(1) المصدر السابق نفسه، ص248.

حركة الجهاد في زمن المهدي السنوسي، وأحمد الشريف⁽¹⁾.

وكانت له أشعار رائعة في مدح الإمام الثاني للحركة السنوسية، ومنها قوله:

هو المرتجى للدين ينصر حزبه	فتعضده الأنصار والنصر والنصل
تجر بحوراً من بني العرب ترتمي	بأمواج آفات هي الضرب والقتل
إذا صففت تحت العقاب جنوده	تخال جبلاً فوقها شعل شعل
وإن زحفوا يوم اللقاء حسبتهم	سيول خيول برقها يبرق يعلو
كأن مثار النقع في حومة الوغى	غيوم بها برق الصوارم ينهل
إمام الهدى نافي الردى قاهر العدا	فدونك عجل قد تطاولنا الذل
تجد من بني الإسلام أخلص عصبه	جحاجح أبطال متى قلت لا يألوا
هم القوم إن قالوا فشق بمقالهم	فلا شك عندي أن سيعقبه الفعل
وإن عطفوا بعد الفراغ إلى الحمى	رأيت وجوه الحق بالبشر تنهل ⁽²⁾

ثم ينتقل بعد هذه الإشادة بالمجاهدين، إلى تقرير الفرنسيين الذين نعتهم بـ «الشياطين» لأنهم ناصبوا الدعوة الإسلامية العدا، وأصلوا أهل البلاد الأصلاء ناراً حامية، فنراه يتولاهاهم بالوعيد والتعنيف حيث يقول:

رويدكم أهل الجحيم فإنه	سيبدؤكم منه الذي كان من قبل
فينسى فرنسيساً بتونسه أنسه	ويحرز كفرة بالجزائر قد حلوا
فتطهر أرض طالما قد تنجست	فأفعالهم سيل الدماء لها غسل ⁽³⁾

وشارك هذا الشيخ الجليل في الجهاد ضد إيطاليا واستولى على قلعة «القاهرة بسبها». واستمر ابنا محمد عبد الله السني يقودان ضد إيطاليا حيث تولى المهدي قيادة الجهاد في فزان، وأحمد قيادته في منطقة الجبل الغربي إلى أن ضعفت المقاومة، وانتقل المجاهدون إلى فزان، وفي أوباري قدم الشيخ محمد بن عبد الله السني إلى الأسرة حيث التقى بها بعد غياب دام ثلاثين سنة، ولكن الإيطاليين طوقوهم في أوباري حوالي 1930م، وحكم على الشيخ وأبنائه بالإعدام، ولكن عفواً عاماً شملهم فوضعوا جميعاً تحت الإقامة الجبرية بمزدة بعد أن صودرت ممتلكاتهم وأحرقت مكتبة مزدة⁽⁴⁾، وفي عام 1932م توفي محمد عبد الله السني رحمته الله ويعتبر هذا

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 218، 219.

(2) انظر: مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسات الجهاد، عدد 1، ص 93.

(3) المصدر السابق نفسه، عدد 1، ص 93.

(4) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 219.

العالم والمجاهد الكبير من شعراء الحركة السنوسية، وقد تعرض الأستاذ محمد مسعود جبران لهذا الجانب على قلة ما وصل إليه من شعره وقال: «في الحق إن شعره - على قلته - استطاع أن يرسم لنا إلى حد ما شخصيته، ويصور لنا جوانب من أخلاقه ومثله التي كان يؤمن بها، في الاعتزاز بالدين، والذود عن العرين، وفي شوقه وحنينه للمدارج التي تربى بها، والبوادي التي كبر بين أحضانها، ويبين عن العهود التي وثقت صلاته بالعلماء والمجاهدين...»⁽¹⁾.

ومن قصائده التي يصف فيها مقاومته في الصحراء ونصبها وعتتها قوله:

يا من لهم همم نأى مقصودها مجرى المطي إلى المرام يذودها
متحيراً من عزم مشرقة الذرا عنسا عياهل في رضاك يقودها
ورمى بها الدهناء يرقل مذنباً يطوي بنص اليعملات بعيدها
ويفل بالعزم المجد مجاهلاً بيت القطا أغوارها ونجودها⁽²⁾

إن هذا العلم الشامخ، والبحر الزاخر، والشاعر الموهوب، والداعية المتفاني، والمجاهد الشجاع، كان من القادة التابعين لقيادة الحركة السنوسية، ومن الذين أفنوا حياتهم وجهادهم في هذا الطريق المبارك، ساهمت الحركة السنوسية في تربية بعض القيادات الميدانية التي شاركت في دفع حركة الجهاد ضد فرنسا ومن أشهرهم:

ثالثاً: عبد الله فضيل الطوير الزوي:

تولى قيادة الزوايا السنوسية في شمال تشاد، وكان على رأس المجاهدين الذين تصدوا للغزو الاستعماري للمنطقة، وخاض عدة معارك موفقة، وسقط من زملائه العشرات من المجاهدين، وسقط في معركة العلالبي وحدها 5/12/1902م مائة شهيد من الليبيين كان من بينهم ستون من قبيلة زوية وحدها، قبيلة عبد الله الطوير، وفي معركة أم العظام شمال تشاد سقط عبد الله شهيداً - عليه رحمة الله - في عام 1906م مع مجموعة من المجاهدين عليهم رحمة الله جميعاً.

رابعاً: البراني الساعدي:

هو من كبار العلماء المتفهمين في الشريعة، من قبيلة زوية، أسس زاوية شرقي السوم، بأرض مصر عرفت باسمه إلى الآن «سيدي البراني» ثم انتقل إلى الجنوب، حيث قاد الجهاد في الصحراء الكبرى ضد الغزو الفرنسي، ومن كبار قادة المجاهدين في مناطق كانم وشمال تشاد،

(1) انظر: مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، يناير، 1984م، ص 71 إلى 101.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 90.

دخل إلى الصحراء الكبرى من الكفرة في عام 1318هـ، واستطاع أن يقود دوراً جهادياً عُرف في المنطقة باسمه «دور البراني» وألحق الفرنسيين عدة هزائم منكرة في بئر العلامي، وقد اعترف الفرنسيون له بالبراعة، وإجادة التنظيم، واستطاع أن يصدّهم في «عين كلكا» التي تولى تنظيم المجاهدين بها، واستشهد عام 1907م في معاركه ضد فرنسا⁽¹⁾.

خامساً: غيث عبد الجليل سيف النصر:

هو شيخ قبيلة أولاد سليمان الليبية والمتواجدة في منطقة كانم، اصطدم مع الفرنسيين ساعة وصولهم للمنطقة 1899م، ونشبت بينه وبينهم معارك طاحنة، قاد غيث الجهاد ضد الفرنسيين، وحطم التقدم الفرنسي في بئر العلامي في معركة 1899/11/22م، وسحق القوة الزاحفة، كما نشبت معركة أخرى يوم 4 يناير 1900م بقيادة غيث ضد الفرنسيين قُتل فيها خليفة حاجي⁽²⁾.

يقول سعيد الحنديري: «كما سعى الفرنسيون إلى الوصول مع غيث إلى اتفاق لإنهاء المقاومة في كانم خاصة، وأن الوضع أصبح مشجعاً للفرنسيين بعد مقتل حاجي حليف غيث، لكن الأخير رفض اللقاء بالفرنسيين وكوّن دوراً من قبائل القذاذفة، وورفلة، والمغاربة، مع بعض القرعان، والتوارق، تقدرها المصادر الفرنسية بخمسة آلاف رجل، لقد استشهد غيث عبد الجليل في معركة بئر العلامي في يوم 9/11/1901م⁽³⁾.

سادساً: محمد بو عقيلة الزوي:

من أفراد قبيلة زوية التي لعبت دوراً مهماً في الحرب الصحراوية ضد القوات الفرنسية، ونظراً لنشاطه وشجاعته، وحسن تديره عينه أحمد الشريف قائداً لحصن علالي بدلاً من البراني الساعدي الذي عُيّن في الشمال⁽⁴⁾.

«لقد كان بو عقيلة ذكياً بارعاً في فنون القيادة، والحرب، فشهد له أعداؤه بذلك، يقول فرندي على سبيل المثال: «كان بو عقيلات جندياً عظيماً قادراً على تدارك المواقف في الوقت المناسب»⁽⁵⁾. لقد قاد هذا القائد قبائل التوارق، وأولاد سليمان، والقذاذفة، والمغاربة، وورفلة، وزوية في جهاده ضد فرنسا، واستشهد في معاركه ضد فرنسا في 5/12/1902هـ⁽⁶⁾.

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص 222، 223.

(2) المصدر السابق، ص 227.

(3) انظر: العلاقات الليبية التشادية، ص 81، 84.

(4) انظر: جهاد الليبيين، ص 233.

(5) المصدر السابق نفسه.

(6) انظر: المصدر السابق، ص 234.

سابعاً: صالح بو كريم الزوي:

تولى تنظيم حركة الجهاد بشمال تشاد، وكانت معه قبائل المجابرة وورفلة وأولاد سليمان، والقرعان، والقذاذفة.

وكان أحمد الشريف قد نجح في إقناع سلطان واداي بسحب اعترافه بفرنسا واحتلاله لمنطقة كانم، وباقرمي، وأعلن الجهاد ضد فرنسا في مناطق تيبستي 1903 - 1909م وساند صالح بو كريم سلطان تيبستي داود ضد قائد الفلانة ميتونة حليف فرنسا، واستطاعوا الانتصار عليه والقبض عليه وإعدامه بتهمة الخيانة العظمى، ومناصرة العدو الكافر ضد المسلمين، وكان ذلك في معركة ألتكو، وقاد معركة بسكرة ضد الفرنسيين وقد سقط فيها عدة شهداء، وساهم صالح في قيادة معارك 1910م - 1911م - 1912م - 1913م ضد الفرنسيين⁽¹⁾.

ولما أعلن أحمد الشريف الجهاد ضد إيطاليا ورجوع قوات المجاهدين إلى الشمال كان صالح بو كريم من ضمنهم.

ثامناً: كيلاني الأطيوشي المغربي:

هو شيخ قبائل المغاربة، ساهم في تمويل الجهاد ضد فرنسا في المناطق الشمالية من تشاد، وكانت قبيلته من القبائل المتميزة في حركة الجهاد ضد فرنسا، عينه الأتراك قائمقام على الكفرة عند انسحابهم من منطقة الجنوب، وأصبح المشرف الإداري على امتداد الصحراء الكبرى الشرقية، وتمويل حركة الجهاد الليبي فيها، ولقد توفي الكيلاني بالعطش عندما رحل باتجاه إجدابية ليشارك في صد الطليان⁽²⁾.

تاسعاً: عابدين الكتتي:

هو عابدين بن محمد الكتتي، أحد شيوخ قبيلة كنته في منطقة تينبكتو، والذي ورث المشيخة عن والده الذي ينحدر من أسرة عربية يصل نسبها إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح إفريقيا ومؤسس القيروان، وقد تلقى عن الشيخ محمد المهدي الانتساب إلى الطريقة السنوسية، وأصبح مقدم السنوسية في منطقة تينبكتو، وصحراء مالي الشمالية، ولهذا أعلن الجهاد ضد فرنسا في صحراء مالي، وشمال موريتانيا، والساقية الحمراء، إلى جنوب المغرب بوادي نون عند أخواله قبيلة «تكنة»، وجنوب الجزائر لدى توارق الهقار الذي يقدرونه لنسبه الشريف، ولعلمه وتضلعه في الدين، واستمر في جهاده ما بين 1982م إلى 1917م، يهاجم القوات الفرنسية في مناطق صحراء مالي، وجنوب الجزائر متحالفاً مع الخليفة ولد محمد، ومتصلاً بالليبيين في

(1) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا، ص235.

(2) المصدر السابق نفسه، ص236.

جنوب الجزائر وبمركز الحركة السنوسية في الكفرة، واستمر عابدين يقود كتائب الجهاد ضد فرنسا في جنوب المغرب، وشمال موريتانيا وجنوب الجزائر، وشمال مالي، وشمال النيجر، لقد قال العقيد الفرنسي كلوب عند مغادرته تينبكتو في عام 1899م «الموت وحده الذي سينقذنا من عابدين»⁽¹⁾.

توفي عابدين مجاهداً في جنوب المغرب في أثناء الحرب العالمية الثانية، لقد استمر يجاهد في الصحراء الكبرى قرابة نصف قرن دون أن يهادن، أو يرمي السلاح، لقد كان هذا المجاهد من مالي، ويتنسب للحركة السنوسية⁽²⁾.

هؤلاء من أشهر القادة السنوسيين الذين قادوا حركة الجهاد ضد فرنسا.

إن الغزو الإيطالي جعل القيادة السنوسية تنقل ثقلها نحو الشمال، وإن كانت حركة الجهاد ضد فرنسا استمرت بقيادة القادة السنوسيين إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وفي فترة زعامة أحمد الشريف كان يشرف بنفسه على حركة الجهاد ضد فرنسا، وكان يحث التجار على السفر إلى السودان بتجارتهم سيما الأسلحة، ويقول لهم: إنها من أرباح التجارة، وكان يكاتب أعيان برقة ويطلب منهم أن يرسلوا الأسلحة، وفي مكاتبته عام 1328هـ طلب منهم أن يبعثوا بألف وخمسمائة بندقية ثمنها من جيبه الخاص، وأرسلها إلى المجاهدين في السودان، وقد وردت عنه هذه الكلمة: «ليس عندي صديق أعز ممن يساعدني بالسلاح»⁽³⁾.



(1) انظر: جهاد الليبيين، ص 239 إلى 241.

(2) المصدر السابقة نفسه، ص 242.

(3) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص 245.

المبحث الثالث

الغزو الإيطالي

تمهيد:

في خلال فترة 1882 - 1896م تزايدت النشاطات التبشيرية الإيطالية في ولاية طرابلس، وخاصة في مجال التعليم، وأقبل بعض الضباط العثمانيين على إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، فأصدر الوالي كمال باشا 1893م - 1908م قراراً في 21 يوليو 1898م منع بموجبه أبناء ضباط الجيش العثماني من الانتساب إلى هذه المدارس وضرورة تحويل أبنائهم إلى المدارس الحكومية العثمانية، ومما جاء في القرار على لسان السلطان قوله: «لقد علمت أن الضباط يرسلون أولادهم إلى المدارس الأجنبية، وحيث أن الحكومة قد فتحت العديد من المدارس التي تسير على المنهج السليم، لذلك لم يبق عذر ولا مبرر لإرسال أبناء الضباط إلى المدارس الأجنبية ويمنع هذا رسمياً»⁽¹⁾.

استمرت إيطاليا بمحاولاتها الرامية لتأكيد مظاهر نفوذها في ولاية طرابلس وساهمت صحافتها في ذلك عن طريق مجاهرتها بالدعوة إلى احتلال الولاية، والتقليل من شأن العثمانيين، والطرابلسيين، برغم عدم أهليتهم لحكم الولاية وإدارتها⁽²⁾، فاجتمع من أهل الولاية جمع غفير، وأرسل نحو خمسين من أعيانهم رسالة بالتلغراف إلى إستانبول يظهرون فيها استيائهم من لهجة الصحف الإيطالية، ويبدون فيها استعداداتهم للدفاع عن وطنهم تحت راية الخلاف العثمانية، ومما جاء في الرسالة: «أن أهالي طرابلس الذين يتباهون بارتباطهم بمقام الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية الذي هو أعظم من حياتهم وأنهم لا ينشون عن الدفاع في هذا السبيل، ولو اثنت عنه الحكومة العثمانية نفسها. . وعلى كل حال فإن رجالنا وأولادنا قد عاهدوا الله والشرف والذمة على أن يريقوا - وبكل سرور - آخر نقطة من دمائهم قبل أن يدنس وطنهم أعداء السلطة العثمانية»⁽³⁾.

وهذا الخطاب يدل على مدى ارتباط المسلمين في ليبيا بالخلافة الإسلامية وعلى أصالتهم في مكافحة وجهاد عدوهم وعلى حبهم للموت في سبيل الله وصد كل عدو يفكر في الاعتداء على أراضيهم والنيل من مقدساتهم، ولا زالت هذه المعاني تجري في دماء الأحفاد الذين

(1) انظر: التعليم في ليبيا خلال القرن التاسع عشر، عمر بن إسماعيل، ص301.

(2) انظر: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص14.

(3) جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص14، 15.

ورثوها من الأجداد من أصالة وديانة وشرف، قال الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 34]. عينت الدولة العثمانية رجب باشا (1904 - 1908م) والياً على طرابلس، وكان من أشد الناس وطأة على سياسة إيطاليا، وعهده كان متميزاً بالنشاط والصلاح «ووقف للسياسة الإيطالية في كل طريق، وما سلكت السياسة الإيطالية سبيلاً إلا وجدت رجب باشا واقفاً لها بالمرصاد»⁽¹⁾.

ومع هذا لم تتوقف المساعي الإيطالية للتغلغل في طرابلس وبرقة، وكانت معظم البعثات الإيطالية التي قدمت إليها في تلك الفترة، قد قامت بزيارتها بناء على مبادرة من الجمعية الإيطالية للاستكشاف الجغرافي والتجاري التي كانت مدينة ميلانو مركزاً لها، وييعاز من رئيسها «كامبيرو» مدير بعثات كثيرة منها بعثة «مانفريد كامبيرو»، و«جوزيتي هايمان» في سنة 1881م و«بييترو» عام 1882م، و«بنيسة» في عام 1895م «فيينا بيادي ديني»، و«بيديوتي» في سنة 1901م، و«هابنير» و«دي سانكتيس» في سنة 1910م وغيرهم كثير، وبعض هذه البعثات أحدثت ضجة واسعة، إذ أن أعضاءها قد سجنوا من قبل الأتراك الذين لم يطلقوا سراحهم إلا في نوفمبر 1912م⁽²⁾.

قام أول هؤلاء المبعوثين «كامبيرو» في سنة 1880م برحلة إلى طرابلس وزار خلالها الخمس ومسلاته، وعند عودته إلى ميلانو طلب من جمعية الاستكشاف الإيطالية إرسال جواسيس إلى برقة لإقامة مراكز تجارية في بنغازي، ودرنة كنقطة انطلاق، وقامت البعثات الإيطالية بالتجسس على أوضاع ليبيا الاقتصادية والزراعية، وقامت بدراسة قرى بنغازي وتوكره، والمرج، ودرنة، وشحات، وطمليثة، وطبرق، وأتيحت لهم فرصة الاطلاع على أحوال ليبيا وعادات الشعب، وطريقة حياتهم، ثم عادوا إلى إيطاليا وقد رفعوا أبحاثهم إلى السلطات الحاكمة، وألقوا المحاضرات والخطب الرنانة لتشجيع حكوماتهم وشعبهم على احتلال ليبيا⁽³⁾. لقد تمكنت من فتح بنك روما في طرابلس وأنشأت فروعه في ليبيا، وبنيت المصانع، والمدارس، ودرست الأوضاع بعناية، وأرصدت الأموال لذلك.

يرى الباحث أنهم استمروا أكثر من ثلاثين سنة وهم يجمعون المعلومات ويرسلون الجواسيس ويخططون لغزو البلاد، ويتوغلون في المجتمع بالمؤسسات التجارية، والمدارس العلمية... إلخ، لغزو ديار المسلمين، وهتك أعراضهم وتدمير بلادهم، وقتل أشرفهم، وسبي نسائهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:

[217].

(1) انظر: ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي، أحمد الدجاني، ص 165.

(2) انظر: الحوليات الليبية، شام فيرو، ص 792.

(3) انظر: العدوان الحرب بين إيطاليا وتركيا، محمد بازمة، ص 80.

وفي سنة 1900م قامت شركة «روباتنيو» للملاحة بمد خط بحري منتظم مع مدينة طرابلس، وفي ديسمبر من نفس السنة أبرم بين فرنسا وإيطاليا اتفاق، تم التأكيد عليه مجدداً في مايو سنة 1902م وهو عبارة عن بروتوكول يقضي بعدم تدخل متبادل بين الدولتين، وبموجبه أعلنت إيطاليا أنها لن تكون لها أي مطامع استعمارية في مراكش، وأعلنت في مقابل ذلك أنه لن تكون لها هي الأخرى أية مطامع استعمارية في طرابلس، وفي سنة 1907م فتح مصرف روما فروعاً له في طرابلس، فاستثمرت بها رؤوس أموال، وأنشئت مصالح إيطالية، كما تم تطوير الخطوط المحلية معها، والمدارس الإيطالية فيها، وأخذت الحكومة تشجع وتدعم مشاريع مواطنيها الذين كانوا يصطدمون باستمرار بالعقبات التي تواجههم في طريقهم⁽¹⁾.

كانت إيطاليا عازمة على احتلال ليبيا، وبذلت في سبيل ذلك جهداً كبيراً على مستوى الولاية نفسها، بتعزيز مظاهر نفوذها أو على المستوى الدولي بالحصول على موافقة أغلب الدول الأوروبية على ذلك إلا أن شدة تمسك الدولة العثمانية بالولاية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وقوة نفوذ الحركة السنوسية في دواخل ليبيا، وحسن التنسيق القائم بين الطرفين، كل ذلك أدى إلى تأجيل إيطاليا تنفيذ مشروعها الاستعماري العدواني الغاشم عام 1911م.

أولاً: الهجوم الإيطالي على ليبيا:

كانت الدولة العثمانية تعاني اضطراباً خطيراً في أوضاعها الداخلية والخارجية بسبب الانقلاب الذي قاده جمعية الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد سنة 1908م، وكان ذلك الانقلاب المشؤوم مدفوعاً من قبل اليهود، والماسونية والدول الأوروبية، وكان السلطان محمد رشاد ألعبوبة في يد جمعية الاتحاد والترقي، ولم يكن السلطان محمد رشاد بأوفر حظاً من سابقه، لأن النظم التقدمية الخيالية التي تبنتها جمعية الاتحاد والترقي قيده، كذلك فإن قادة الانقلاب غالوا في نزعتهم القومية وأفرطوا في سياسة التتريك التي نادوا بها⁽²⁾، وساهموا في ضياع ليبيا.

يقول الأستاذ محمود الشاذلي: (لعب «قره صو» أحد قادة الاتحاد والترقي في أيامها الأخيرة (1909 - 1918م) دوراً رئيسياً في احتلال إيطاليا لليبيا وكان يشغل وظيفة مفتش إعاشة، واضطر نتيجة لخيانته أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في تريستا حيث مات 1934م)⁽³⁾.

(1) انظر: حوليات ليبيا، ص 793.

(2) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص 48.

(3) انظر: المسألة الشرقية، ص 202.

وأما متر سالم اليهودي الماسوني فيتحدث عن دور الجنرال جواد رفعت أتلخان في كتابه «أسرار الماسونية»، ترجمة: نور الدين رضا الواعظ، سليمان أمين القبلي: «أن طرابلس الغرب «ليبيا حالياً» التي تعتبر موطن أخلص أبناء الدولة العثمانية، قد وقعت في مخالب الإيطاليين بمؤامرة خبيثة، دبرها اليهودي الماسوني «متر سالم» الحائز على الدرجة الثالثة والثلاثين في الماسونية، ورسم الخطط اللازمة ودفعت الخزينة الإيطالية الملايين من الليرات الذهبية إلى اليهودي «متر سالم» لقاء إقناعه الدولة العثمانية بضرورة سحب الأسلحة والعتاد من طرابلس الغرب إلى إستانبول بحجة التغيير والإصلاح، وبمساعي الماسونيين أيضاً سيقط قطاعات الجيش إلى اليمن، وهكذا سلمت البلاد الطرابلسية «ليبيا» لقمة سائغة للطلان..»⁽¹⁾.

وكانت وزارة إبراهيم حقي الاتحادية متواطئة مع إيطاليا الذي ربطتهم به المال، فضاع كل أمل أن تنال ولاية طرابلس الغرب شيئاً من عناية الدولة واهتمامها بها، لقد قامت حكومة السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ الأبهة لرد أي اعتداء على الولاية، وأرسل إليها السلطان قائداً من خيرة قواده، هو رجب باشا الذي: «أطلقت يده في شؤون الولاية الإدارية والعسكرية، فمرن أهلها على الأصول الحربية ووزع على شبابها وشيوخها البنادق ومرنهم على استعمالها، وملأ المستودعات العسكرية بالذخائر، حتى أصبح عدد الجيش المرابط في طرابلس حوالي خمسة عشر ألفاً، وهذا عدا الفرق غير النظامية، «قول أوغلي» من الأهلين العرب، وهؤلاء بلغوا الأربعين أو الخمسين ألفاً ومهمتهم معاونة الجيش النظامي، فقد أبطل الاتحاديون هذه الاستعدادات وشرعوا ينزعون البنادق من الأفراد بدعوى أن الأهلين قد يقومون في وجه الحكومة إذا طلب منهم تأدية الضرائب والتكاليف الأميرية، وانتهزت وزارة حقي باشا فرصة استفحال أمر الثورة في اليمن، فسحبت معظم جيشها النظامي من طرابلس الغرب لاستخدامه في إخماد هذه الثورة، على أنها لم تكن بذلك، بل أهملت كل الإهمال الفرق الأهلية، فنقصت قوة الدفاع الطرابلسية إلى أقل من خمسة آلاف مقاتل فقط، ومع أن أهالي البلاد طلبوا الانتظام في سلك الجندية بعد إعلان الدستور العثماني، فقد أصم الاتحاديون آذانهم ولم يجيبوا الأهلين إلى ما طلبوه إلا قبيل وقوع الاعتداء الإيطالي لفترة قصيرة، ولم تبدأ الإجراءات اللازمة لتجنيدهم إلا بعد قيام الحرب ذاتها، وزيادة على ذلك فقد نقلت الحكومة العثمانية حوالي أربعين ألف بندقية كانت الدولة قد درجت على حفظها بالبلاد حتى يستخدمها الأهليون عند الطوارئ، ثم لم تفعل شيئاً من أجل إصلاح الاستحكامات ومراكز الدفاع بالبلاد أو تمددها بالمدافع والذخيرة اللازمة للسهر على سلامتها⁽²⁾ واستغلت إيطاليا نشوب الأزمة المراكشية،

(1) المسألة الشرقية، ص 201.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 115.

وعمدت إلى توقيت البدء بالعمل العسكري ضد ليبيا، فوجهت إنذاراً إلى الحكومة العثمانية تضمن التالي:

- 1 - تذكير إيطاليا المستمر للباب العالي بالضرورة القصوى لوضع حد لتلك الفوضى والإهمال اللذين تركت فيها طرابلس وبرقة من قبل الحكم العثماني، وهو وضع ترى إيطاليا ضرورة تعديله وفقاً لمقتضيات المدنية والمصلحة الحيوية لإيطاليا بحكم قرب سواحلها من أراضي الولاية.
 - 2 - إن مساندة الحكومة الإيطالية الدائمة للإمبراطورية العثمانية في كثير من المسائل السياسية حتى في الفترة الأخيرة قوبلت بتجاهل رغبات إيطاليا في ولاية طرابلس وبمعارضة أنشطة الإيطاليين فيها.
 - 3 - رفض الحكومة الإيطالية لاقتراح إستنبول بإجراء مفاوضات تمنح بمقتضاها إيطاليا امتيازات اقتصادية في الولاية «وتحتفظ لإستانبول شرفها ومصالحها العليا» لأنها تعتقد بأن تجارب الماضي أوضحت عدم جدوى مثل هذه المفاوضات التي قد تطرح أموراً تصبح محل نزاع أو احتكاك جديد.
 - 4 - الأدعاء بأن قنصل إيطاليا في طرابلس وبرقة تصور «خطورة الحركة السائدة ضد الإيطاليين والتي خلفها فيما بعد ضباط وهيئات أخرى من السلطات المحلية»، وهي خطورة ليست قاصرة على الإيطاليين وحدهم، بل على جميع الأجانب مما دفعهم لمغادرة البلاد.
 - 5 - إن الحكومة العثمانية ترسل الناقلات العسكرية لتزيد من تأزم الموقف في البلاد، الأمر الذي يدفع إيطاليا لاتخاذ التدابير اللازمة ضد هذا العمل.
 - 6 - قررت الحكومة الإيطالية الإقدام على احتلال طرابلس عسكرياً لأن ذلك الحل الوحيد الذي يمكن أن تقبله إيطاليا.
 - 7 - تطلب الحكومة الإيطالية إصدار الأوامر للممثلين والسلطات العثمانية في الولاية بعدم مقاومة الغزو، ومن الممكن الاتفاق على تنفيذه دون أية عراقيل وستخذ بعده بالقرارات اللازمة لتسوية الحالة التي ستتبع عنه⁽¹⁾.
- قام السفير الإيطالي بتسليم مذكرة الإنذار لرئيس الحكومة العثمانية حقي باشا الذي دعا وزارته للانعقاد وبحث الأمر معها، ثم عرض الموقف على السلطات، وتضمن الرد العثماني إلقاء مسؤولية التخلف الذي شهدته الولاية على حكومات العهد السابق، ونفي وجود أي عراقيل تحول دون الفعاليات الإيطالية في الولاية، وحرصت الحكومة العثمانية على تلبية

(1) انظر: الغزو الإيطالي إلى ليبيا للبري، ص 282، 283.

الطلبات بصورة دائمة، وأن الاحتجاجات المقدمة إليها من قبل سفارة دولة إيطاليا نفذت بالكامل، وأعطيت تعليمات مشددة لولاتها العاملين في الولاية، وبينت الحكومة التركية أنه لا مانع لديها من العمل على تقديم امتيازات اقتصادية واسعة لدولة إيطاليا في ولاية طرابلس الغرب⁽¹⁾ ومع هذا كله، فقد ادعت الحكومة الإيطالية أن رد الحكومة العثمانية تأخر، فأعلنت الحرب على ليبيا، علماً بأن بوارجها الحربية تحاصر الشواطئ الطرابلسية منذ منتصف شهر أيلول «سبتمبر»؛ أي قبل إرسال الإنذار إلى الحكومة العثمانية بثلاثة عشر يوماً، ولهذا كلفت بارجاتها بقصف السراي الحمراء الكائنة في مدينة طرابلس⁽²⁾، وكانت الأساطيل البحرية تقصف في مدينة طرابلس.

ثانياً: الجهاد في طرابلس وفزان:

رغم ضآلة وضعف الإمكانيات العسكرية للولاية، فقد تبنت مدفعيتا القلعتين «السلطنة والحמידية» الرد على القصف لتغطية انسحاب الحامية العثمانية والمجاهدين إلى الداخل، وبصعوبة بالغة استمرت مدفعية الولاية تناوش الإيطاليين حتى الثالث من شهر تشرين الأول، وتحسباً من تعريض الجاليات الإيطالية للأذى وعدم تعرض قواتهم لأي خطر مفاجيء، تأخر الإيطاليون في عملية الإنزال البري حتى الخامس من الشهر نفسه.

وأصدر قائد الحملة الجنرال «كارلو كانيفا» بياناً باللغة العربية يخاطب سكان طرابلس جاء فيه: «ماذا يصدكم عن القدم إلينا؟ أما يهتمكم رعي مواشيكم وتعاطي تجارتكم أمينين؟ نحن أصحاب دين من أهل الكتاب وأحرار، واعلموا أن دولة إيطاليا المعظمة قد أصبحت لكم بمقام الوالد بعد أن أخذت أمكم وهي طرابلس الغرب، فاقدموا إلينا بلا خوف، وبكمال الأمان، ونحن نؤكد أنه ليس من يؤذيكم وما من يسيء إليكم أو يضركم بأدنى شيء، فإن المال لا يذكر، واعلموا أن كل من يأتي إلينا ببارودته مع المهمات نحسن إليه بعشرين فرنكاً مع كيس قمح أو شعير كيفما شاء، أما رؤسؤكم الدينيون والسياسيون فإن الحكومة الإيطالية تقبلهم وتؤيدهم بالصفة التي كانوا عليها قبلاً، بل يعين لهم رواتب ومعاشات وناهيكم أن الكلام واحد والله سبحانه وتعالى كريم، فاطلبوا إليه عز وجل أن يفتح عيون عقولكم لتعرفوا الحق وهو يخلصكم»⁽³⁾.

ولم يكتف الجنرال كارلو كانيفا به، بل أصدر عدة بيانات منها:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على كافة الأنبياء، وصلى الله عليهم وسلم أجمعين.

(1) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص50.

(2) انظر: الحوليات الليبية، شارل فيرو، ص51.

(3) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص52.

يأمر ملك إيطاليا المعظم فكتور عموئيل الثالث نصره الله وزاد مجده أنا الجنرال كارلوس كافينا قائد العساكر الإيطالية الموكل إليه محو الحكومة التركية من طرابلس، وبرقة، والمقاطعات التابعة لها، بناءً عليه أعلن للشعوب بأجمعهم القاطنين في المقاطعات المنوه عنها من شاطئ البحر إلى آخره والحدود الداخلية الذين يملكون بيوتاً في المدن وبساتين وحقولاً ومراعي حول المدن نفسها أو بعيداً عنها ما يلي: إن العساكر الخاضعة لأمرى لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا حماه الله لإضعاف واستعباد سكان طرابلس، وبرقة، وفزان، والبلاد الأخرى التابعة لها التي لا توجد الآن تحت سيادة الأتراك، بل لتعيد إليهم حقوقهم وتقتص من المعتدين عليهم، وتجعلهم أحراراً يحكمون أنفسهم وتحميهم من كل من يعتدي عليهم سواء كان من الأتراك أو أي شخص كان يريد استرقاقهم، وعليه فأنتم يا سكان طرابلس وبرقة وفزان والبلاد الأخرى التابعة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل إليهم أن يقضوا بينكم بالعدل والرأفة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]. وستكون هذه الأحكام تحت حماية ورعاية ملك إيطاليا السامي حرسه الله، واعلموا أن سبقي الشرائع الدينية والمدنية محترمة وتحترم الأشخاص والأملاك والنساء والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأماكن العبادة والبر؛ لأن غاية أعمال الرؤساء يجب أن تكون واحدة وهي تحسين حالتكم والعمل على استتباب راحتكم ويجب أن يكون ذلك مطابقاً للشريعة الغراء، والسنة المحمدية السمحاء، وسيقضي بينكم بالعدل طبقاً للشريعة الغراء وحسب أوامرها بواسطة قضاة اشتهروا بثقاتهم في الشرع ذوي استقامة وسيرة حميدة، كما أنه لا نغض الطرف عن من يظلم من الرؤساء، ولا نغفر غشاً أو خداعاً من أحد من القضاة، فالكتاب والسنة فقط تقضي عليكم، واعلموا جيداً أنه لا تؤخذ منكم ضرائب لتصرف خارجاً عن بلادكم، والضرائب التي لا توجد الآن عليكم، ننظر فيها وتنقضي أو تلغى كما يقتضي العدل، واعلموا جيداً أنه لا يدعى أحد منكم للخدمة العسكرية بالرغم عن إرادته فقط يقبل بها أولئك الذين يرغبون الانضمام تحت اللواء الإيطالي باختيارهم لأجل حماية النفوس والأملاك، ولكي يتكفلوا للبلاد السلم والنجاح، وأما الآخرون فيبقون في بيوتهم منعكفين على العمل في الحقول ورعاية المواشي أو معاطاة التجارة، الصناعة، والحرف الضرورية، لقيام الحياة، وعلى هذا فكل امرئ يمكنه الصلاة في معبده حسب تعليم دينه، يلزمكم أن تتضرعوا لله عز وجل أن يرفع مجد الشعب الإيطالي، ومجد ملكه، لأنه أخذكم تحت ظل حمايته، والإيطاليون يرمون بأن يكون اسمهم مهاباً من جميع أعدائكم، وأما منكم فقط، فيكون محبوباً ومباركاً.

وبناءً عليه وحسبما خولني جلالة ملك إيطاليا العادل المنصور وحكومته أعلنتكم بما تقدم، وسيجري مفعوله من هذا اليوم من شهر شوال سنة 1329هـ، ليبقى كأساس للعلاقات المستقبلية التي ستوجه بين الحامية، والمجتمعين، وبين الإيطاليين وسكان هذه البلاد، والتي

واثق بأنكم تقبلون هذا المنشور بسرور قلبي، لأنه سيكون قانوناً يجب أن يحفظ بأمانة، واستقامة ضمير، وشهامة من كلا الطرفين، وإذا وجد من لا يحترم الشرائع ولا يعتبر الأشخاص أو يمس حرمة النساء، أو يخترق حرمة الملك، أو يقاوم، أو يثور على إرادة العناية الإلهية التي أرسلت إيطاليا إلى هذه البلاد، وباسمها صدرت لي هذه الأوامر قبلها ممن يمتلك حق الأمر فسيكون الانتقام منه عظيماً، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعهدتي لنبراس العدل والحق، فيا سكان طرابلس، وبرقة، والمقاطعات التابعة لها: اذكروا الله قد قال في كتابه العزيز: ﴿لَا يَنْهَكُوكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]، وقد جاء أيضاً: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: 61] وجاء أيضاً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105] أي الذين يصلحون الأرض، ويمنعون منها الفساد وينشرون فيها العدل وال عمران، وجاء أيضاً: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّلَكُمْ﴾ [محمد: 38] (1) أي: لا تفسدوا في الأرض إن توليتم أمور الناس وتقاتلوا بعضكم بعضاً، إن الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصمهم ويعمي أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم وجاء أيضاً: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]، وجاء أيضاً: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، فأرادة الله ومشيئته سبحانه وتعالى قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد؛ لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يرى، فهو مالك الملك وهو على كل شيء قدير، فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهر مالك الملك رب العالمين المنفرد بتصرفاته في ملكه لا شريك له فيه، فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين، وبناءً عليه يلزم كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية، وأبرزته القدرة الإلهية، فالملك لله سبحانه وتعالى يؤتبه من يشاء، فإيطاليا تريد السلام وتريد أن تبقى بلادكم إسلامية تحت حماية إيطاليا وملكها المعظم، ويخفق فوقها العلم المثلث «أبيض وأحمر وأخضر» إشارة إلى المحبة والإيمان (2).

وللأسف الشديد كان كاتب هذا المقال شيخاً من العلماء المحسوبين على الأزهر الشريف، وكتب ذلك مقابل عرض من الدنيا زائل، ولقد تأثر بهذا المنشور ممن لا عقيدة واضحة في ذهنه، وممن لا يعرف ضروريات ديننا الإسلامي العظيم، وغاب عنه حقيقة الصراع بين عقيدة التوحيد الصافية النقية، وبين عقائد النصرانية الفاسدة، بأنواعها المتعددة.

لقد لجأت إيطاليا إلى المكر والخداع، وبثت الفرقة بين أهالي ليبيا، والأتراك المساندين

(1) انظر: مجلة المنار، محمد رشيد رضا، ج12، م14، ص636، وكذلك جهاد الأبطال، ص52.

(2) المصدر السابق نفسه، ج12، ص636.

لهم ودعت إلى الانفصال عن العثمانيين عن طريق المنشورات، وكانت الطائرات الإيطالية تلقيها على المعسكرات العربية، سارع أهالي ليبيا لإثبات ولائهم للدولة وأرسلوا برقية للحكومة في الأستانة نقلتها بالنص جريدة «صباح» التركية، جاء فيها: «نحن العرب أبناء هذا الوطن العثماني المقدس نفديه بالمهج ولا نفصل عنه، ولو أراد هو الانفصال عنا، وإنا لمدينون في حياتنا القومية واتحادنا للجنود العثمانيين وضباطهم البواسل، على أن ما نبذله وما سنبدله أيضاً من المهج والمال في الذب عن حوضنا لم نبذله طوعاً لأوامر إخواننا الجنود، بل رغبة بالاحتفاظ بكياننا، وإنا نجل هذه الرغبة، لأنها كانت سبباً في شد أواصر الأخوة بيننا وبين إخواننا العثمانيين، فلهذا نعلن الحكومة الأستانة وسائر إخواننا العثمانيين أننا مستعدون لبيع أرواحنا وأرواح أبنائنا على بساط هذه السهول، والرمال المحرقة، دفاعاً عن بلادكم التي هي بلادنا؛ لأننا متأهبون للموت حتى لا يبقى منا فرد، والله لا يهدي كيد الخائنين»⁽¹⁾.

ولقد فاخرت جريدة «طنين» التركية بهذه البطولات التي تتفجر من العرب في حرب طرابلس، مشيرة إلى أن: «إخواننا العرب فعلوا المعجزات، فبيضوا صفحة تاريخنا، وعجز إيطاليا في الحال وفي الاستقبال بات أمراً محققاً، . . . وبعد ما حالف النصر العرب الذين أبلوا بلاءً حسناً، . . . فلتعلم أوروبا هذا والسلام»⁽²⁾.

إن السلطان عبد الحميد الثاني كان يدرك مدى الولاء الذي يحمله العرب في طرابلس للدولة العثمانية، وفي مقدمتهم السيد أحمد الشريف السنوسي، لهذا كان متفائلاً جداً في تصريحه الصحفي الذي أدلى به لمجلة «نور إندسون» الألمانية، وأكد فيه أن الإيطاليين سيجدون مقاومة عنيفة من قبيل السنوسيين وأتباعهم، وستكون خسائرهم فادحة وحساباتهم خاطئة؛ لأن العرب هناك لن يسلموا طرابلس بسهولة، وأن الدولة قد أمنت لهم ما يكفيهم من البنادق والمدافع لكي يقووا على المقاومة والدفاع عن وطنهم⁽³⁾، وهذا القول هو ما أكده السفير البريطاني في الأستانة السير جيرارد لوثر في التقرير السنوي لسنة 1912 الذي بعثه لوزير خارجيته في 17 أبريل 1913م⁽⁴⁾.

ثالثاً: العنف الإيطالي والمقاومة:

كانت بيانات الجنرال كارلو كانيغا تدعو الشعب الليبي إلى التزام الهدوء، وكانت مليئة بالكذب والنفاق والتضليل، والمجزرة التي ارتكبها في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني

(1) انظر: جريدة المقطم، عدد 6941، في 9 صفر 1330هـ.

(2) انظر: جريدة المقطم، عدد 6980، في 25 ربيع الأول 1330هـ.

(3) انظر: جريدة الأهرام، عدد 10613، في 21 صفر 1331هـ.

(4) انظر: حروب البلقان، عايض الروقي، ص102.

بحق سكان المنشية في مدينة طرابلس والتي ذبح فيها من 4 - 7 آلاف نسمة من بينهم الطفل والعجوز، ونفي تسعمائة شاب ليبي، وهتك الأعراض بدون سبب، لخير دليل على ممارسة الطليان المختلفة للأخلاقية، إزاء تلك الوحشية البغيضة، فقد قاوم الشعب المسلم الليبي تلك الوحشية بصمود سجل في صفحات التاريخ بماء الذهب الصافي.

ومما فجر الروح الجهادية لدى أهالي ليبيا، عجز إيطاليا عن احترام شعور الأهالي ومعتقداتهم، وأعطوا لهذه الحرب صبغة دينية واضحة، فقد بارك القسيس والبابا الحملة قبل سفرها من إيطاليا، وكان من أول ما قامت به بعد نزولها في مدينة طرابلس أن قامت صلوات الشكر لله على احتلال المدينة، وعلى وضع الصليب في مكان الهلال، وكان العمل في حد ذاته كافياً لإثارة كل مسلم في البلاد⁽¹⁾، وكان النشيد الذي يردده الجنود الغزاة: «أما صلي ولا تبكي، بل اضحكي وتألمي، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني، وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الإسلامية. سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن، ليس للمجد من لم يمتهن لإيطاليا، تحمسي أيتها الوالدة، وإن سألك أحد عن عدم حدادك عليّ، فأجيبه مات في محاربة الإسلام»⁽²⁾.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَانِيَّ حَتَّىٰ تَبِيعَ بِلْتَمِهِمْ﴾ [البقرة: 120].

لقد تحرك نواب البلاد وزعمائها من ضواحي طرابلس نحو معسكرات الجهاد، واشتركوا في العمليات ونادوا على الأهالي بضرورة الخروج معهم، قام بأهم دور في هذه الحشود والاستعداد فرحات باشا نائب طرابلس، وسليمان الباروني نائب الجبل، وسيف النصر من زعماء سرت.

كان فرحات بك له نفوذ كبير في موطنه (الزاوية) وكان يقضي عطلته في الواحة وقت نشوب الحرب، فعرض خدماته على القائد العثماني، وكتب في نفس الوقت إلى المشايخ في الواحات محرضاً إياهم على القيام والالتفاف حول راية السلطان والدفاع عن البلاد، ورغماً من الدعاية المضادة التي كان يقوم بها بعض الشيوخ الموالين للإيطاليين في العاصمة، فإن نداءات فرحات بك قد نجحت وارتفع العلم العثماني في كل مكان، وكان فرحات بك أول متطوع انضم إلى العثمانيين مع عدد من المتطوعين من الزاوية، وزوارة، والعجيلات، وكان وصوله سبباً في تقوية الروح المعنوية لدعم الحامية العثمانية، التي كان يقودها نشأت بك⁽³⁾ وتمركزت قوات المجاهدين في العزيزية للقيام بمهمة الدفاع⁽⁴⁾.

(1) انظر: المغرب الكبير 3/ 767.

(2) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص 47.

(3) انظر: المغرب الكبير 3/ 769.

(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 123.

أما سليمان بك الباروني نائب الجبل فقد كان يتمتع بعصية أهل الجبل الغربي القوية مع حب الأهالي له، وكان يقضي عطلته في فساطوا وقت نزول إيطاليا في طرابلس وانسحاب الحامية العثمانية إلى الداخل، وقد اتصل كذلك بالقائد العثماني، ووصل بعد ذلك إلى العزيزية على رأس خمسين من مشايخ الجبل، وتفاهم مع نشأت بك ووعد به بأن يواصل المتطوعون الحرب، وقد عاد إلى الجبل ودعا المشايخ المحليين واستنفزهم للحرب من أجل الإسلام ودولة الخلافة، ووجد نفسه على رأس ألف من رجال القبائل، وأسرع بهذه القوة إلى ميدان الحرب، ولم يترك القوات العثمانية منذ ذلك اليوم، ونتيجة لهذه المجهودات التي قام بها هذان الزعيمان في طرابلس أخذت جماعات الليبيين تصل إلى معسكرات الجهاد من نالوت وغريان.. وغيرها وصلت إلى عشرات الآلاف من المجاهدين⁽¹⁾.

رابعاً: أحمد الشريف يوجه أتباع الحركة للجهاد:

بعد وصول خبر احتلال إيطاليا لطرابلس، وقصفها لبقية المدن الليبية بأساطيلها، قام أحمد الشريف بجمع السادة، والشيوخ، والعلماء، والقادة، وعرض عليهم الأمر واستشارهم، وخرج الأمر بتوجيه الشيوخ وعلماء الحركة بقيادة المجاهدين في كافة ساحات الوغى، وقال أحمد الشريف: «والله نحاربهم ولو وحدي بعصاتي هذه»⁽²⁾، كانت القوة الإيمانية الدافعة تحرك أحمد الشريف نحو الجهاد، ولذلك رفض الخنوع والاستسلام للمحتل النصراني مهما كانت قوته وجبروته وعزته، ووصلت أوامر أحمد الشريف إلى رؤساء الزوايا والشيوخ، والأعيان التابعين للحركة في طرابلس وما حولها، يأمرهم بأن لا يتهاونوا وأن يستميتوا في قتال العدو المهاجم ومن هؤلاء الشيوخ:

* مصطفى أحمد الهوني رئيس زاوية هون.

* محمد بركات الشريف رئيس زاوية سوكنة.

* محمد علي الأشهب رئيس زاوية «واو» فزان.

* السني رئيس زاوية مزدة.

* عبد الوهاب العيساوي رئيس زاوية طرابلس.

* محمد علي بن الشفيح رئيس زاوية سرت.

وكتب إلى زعماء القبائل المبرزين كالشيخ سيف النصر زعيم قبائل أولاد سليمان، وورفلة، وغيرهم.

(1) انظر: المغرب الكبير (3/770).

(2) انظر: الفوائد الجليلة (1/23).

وقام الشيخ محمد الأشهب بتنظيم معسكر من القبائل الفزانية، والتوارق، ورياح، والعرب المقيمين بإقليم فزان، وانضم أمود وكوسا من زعماء التوارق إلى معسكر محمد الأشهب، وقام المغاربة بتأسيس معسكر بالنوفلية وكان زعيمه عبد الله بن إدريس، وساعده صالح الأطيوش، وقام أولاد سليمان، وورفلة، والقذاذفة، بتأسيس معسكر تزعمه في بداية الأمر سيف النصر نفسه، ثم ابنه أحمد بك، ومعسكر من قبائل أولاد أبي سيف يتولى قيادته الشيخ السني، وأبو بكر قرزة⁽¹⁾.

وبذلك أصبحت المعسكرات بالمنطقة الغربية أربع تابعة للسنوسية قامت بدعم إخوانهم، والمشاركة معهم في الجهاد ضد إيطاليا، وقام الليبيون عموماً بتنظيم المعسكرات بضواحي طرابلس، وغريان والخمس ومصراته، كان صدور الدعوة إلى الجهاد من زعيم الحركة السنوسية أحمد الشريف بمثابة الشرارة التي أوقدت النار في طول البلاد وعرضها، فخف المجاهدون من أقاصي طرابلس وفزان، ثم من النيجر، وتشاد لمؤازرة إخوانهم المجاهدين في الجبل والغرب، وهي الجهات التي ظل زعماءها حريصين على استقلالهم ولا يريدون منذ ظهور الحركة السنوسية الانضواء تحت لوائها؛ ومع هذا فقد كان أحمد الشريف صاحب نفس عظيمة، همته في الجهاد والتغلب على العوائق التي تحيل دون وحدة الصف الإسلامي في بلادنا⁽²⁾، يقول الشيخ طاهر الزاوي عن أحمد الشريف: «فالسيد أحمد الشريف صقله العلم، وهذبته العبادة، فعمت نفسه، وكبرت همته، وأخلص عمله لله فتولى الله توفيقه، وأطلق السنة الناس بمدحه والثناء عليه»⁽³⁾.

لقد تدفق أتباع الحركة السنوسية كالسيل الجارف على ميدان القتال في طرابلس، وفي منتصف يناير 1912م قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل طرابلس وجميع العرب، فأصدر نداءه المشهور يحث فيه الطرابلسيين والبرقاويين، وأهل ليبيا على الجهاد ضد العدو المعتدي، ويعلن فيه نبأ اعتزاهم النزول بنفسه إلى الميدان على رأس قوة من المجاهدين كبيرة، وقد نقش نداء أحمد الشريف على راية من الحرير حملها المجاهدون في طرابلس من مكان إلى آخر بين القبائل الضاربة في الجنوب خصوصاً، فكان من أثر هذا «النداء» أن تدفقت جموع المجاهدين على المعسكرات العثمانية في العزيزية وغريان، وعلى مراكز العرب في «سنيات بني آدم»، فكان المعسكر في «السنيات» بعد ذلك يعج بجموع المجاهدين من الزاوية والعجيلات، وزنزور، ومصراته، وصرمان، وأولاد يوسف، وورفلة، وغريان، والجبل، والعزيزية، وأولاد

(1) انظر: برقة العربية، ص 292.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 126.

(3) انظر: جهاد الأبطال، ص 187.

سليمان، ومجاهدي فزان، والتوارق، ولم يكتف أحمد الشريف بذلك بل أعد نجدة خاصة لتعزيز قوات المجاهدين في العزيزية، وفي 25 مارس 1912م وصلت نجدات أحمد الشريف إلى العزيزية مسلحة بالبنادق والحراب والسيوف، وتحمل معها نبالاً تحرك نجدات أخرى، لا تزال تجد السير في طريقها إلى معسكر المجاهدين، وكان يوم وصولها يوماً مشهوداً في تاريخ الجهاد في طرابلس.

وقد اعترف السلطان العثماني نفسه بهذه الجهود التي قام بها أحمد الشريف السنوسي، فأهداه في هذا الشهر «مارس 1912م» سيفاً ونيشاناً مرصعاً بالجواهر مكافأة وتقديراً لجهوده. بيد أن جهود الحركة السنوسية كانت أكثر وضوحاً وأعمق أثراً في سير الجهاد ضد إيطاليا في برقة، وهذا ما سنأتي على بيانه بإذن الله تعالى⁽¹⁾.

لقد أصبح العدو في حيص بيص، ولم يتمكن من احتلال الدواخل بعد الثغور التي احتلها الأسطول، واضطرت إيطاليا إلى إعادة حساباتها، ولكي لا تظهر إيطاليا أمام المجتمع الأوروبي السياسي منهكة، وأن قواتها غير قادرة على إخضاع ليبيا لسيطرتها، وإخفاء فشلها لجأت إلى إصدار بيان تعلن فيه ضم ليبيا إليها وهدفت من ذلك البيان عدة أمور منها:

- إقناع الدول الأوروبية بأن إيطاليا قد ملكت زمام الأمر في ولاية طرابلس.
- وضع الإمبراطورية العثمانية أمام الأمر الواقع، وإجبارها على الاعتراف بسيادتها على ليبيا.

- إيقاف المعارك الحربية؛ لأنها ستصبح غير قانونية، أو شرعية في مواجهة الدولة الإيطالية صاحبة السيادة الجديدة⁽²⁾.

إن قرار الضم الذي أعلنته إيطاليا، جعل الدولة العثمانية تعلن احتجاجها عليه، وعدت ذلك خرقاً صريحاً للقانون الدولي، وقد استندت الدولة العثمانية إلى نجاح المقاومة الجهادية، وعجز القوات الإيطالية عن تحقيق أي نصر⁽³⁾.

وأبرق السلطان في 2 أكتوبر إلى ملك إنكلترا وإمبراطور ألمانيا وحكومات أوروبا، ورئيس الجمهورية الفرنسية، وبقية الملوك والقيصرة يطلب منهم فض النزاع القائم، وحقن دماء البشر، ولكن بدون جدوى، فقد اعتذرت كل هذه الحكومات عن عدم التدخل⁽⁴⁾ وبذلك تكون الحملة الدبلوماسية المكثفة التي قامت بها الدولة العثمانية قد فشلت.

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 126، 127.

(2) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص 53.

(3) انظر: المصدر السابق نفسه، ص 53، 54.

(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 118.

فقد تخلت الدول الأوروبية كلها عن الدولة العثمانية، بدءاً بفرنسا التي أصدرت بياناً أعلنت فيه حيادها وعدم قدرتها على التوسط لإنهاء الحرب في الوقت الراهن، وسارت روسيا على نفس النهج، أما بريطانيا فرغم حساسية موقفها لا سيما أمام رعاياها في العالم الإسلامي، فإنه لم يطل ترددها لتعلن هي الأخرى ما أسمته بالحياد، ولكنه ليس حياداً بالمعنى الصحيح؛ إذ أنها أرغمت مصر على الحياد، وهذا فيه مساعدة لحكومة إيطاليا المعتدية⁽¹⁾.

لم يتمكن الإيطاليون من التقدم شبراً إلا بدفع ثمن باهظ، وبعد جهد جهيد، وتحمل الخسائر الفادحة، والضربات القاسية، ومعاناة الشدائد والأهوال تمكنوا بفضل قواتهم العديدة، والأسلحة الفتاكة، ومعونة الأذنانب من الاستيلاء على بعض الأماكن في دواخل البلاد، كالخمس ومصراته وزليتين وورفلة، وترهونة وزوارة، ثم تمكنت القوات الإيطالية من الوصول إلى هون ثم فزان، واستسلم بهذه المحلات المستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وأما الباقون فقد انسحبوا إلى أماكن أخرى أمامية لمواصلة القتال، وقد استعمل الإيطاليون كافة الأساليب الوحشية في المواقع التي احتلها خصوصاً في مدينة طرابلس⁽²⁾.

ولقد خلد التاريخ المعاصر أسماء المعارك التي قام بها الأجداد ضد إيطاليا في المنطقة الغربية من ليبيا ومن أهمها: معركة طرابلس بتاريخ 8، 9، 10 / 1911م، وكذلك في تاريخ 21، 22 يناير 1912م، معارك الخمس بتاريخ 17 - 21 أكتوبر، 1 أبريل 1912م، معركة الهاني شارع الشط، معركة الهاني أبو مليانة، معركة الهاني سيدي المصري، معركة قرقارش، معركة أبي كماش، معركة لبد، معركة تاجوراء⁽³⁾... إلخ، وكانت ما بين عام 1911م إلى عام 1912م، ولا شك أن هذه المعارك تحتاج إلى دراسة تفصيلية، ولعل أحد أبناء هذا البلد الطيب يقوم بذلك.

خامساً: جهاد قبائل المغاربة البطولي:

استمر العدو الإيطالي في زحفه حتى وصل سرت وهناك توقف سيره وأرسل دعواته لاستعمال الحيل والدسائس كي يستميل بها قبائل المغاربة التابعة لزاوية النوفلية السنوسية مستغلاً فرصة حاجة تلك القبائل للمؤونة، والملابس، فكاتب القائد الإيطالي الذي احتل سرت شيوخ قبائل الرعيضات «المغاربة» واعدأ إياهم أن قواته لن تخرج من سرت، وعليهم أن يأتوا السوق لشراء ما يحتاجون إليه على شرط أن لا يعتدي أحد الطرفين على الآخر، فاغتم الأهالي

(1) انظر: حروب البلقان، ص75.

(2) انظر: برقة العربية، ص292، 293.

(3) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص59، 60، ويمكن الرجوع إلى جهاد الأبطال، فيه تفصيل لبعض المعارك.

هذه الفرصة في شيء من الحذر واليقظة، وأرسلوا إلى إخوانهم بإجدابية أن يأتوا بقوافلهم إلى هذه السوق، فيشترون المأكولات والملابس، وأراد المغاربة بذلك أن يحققوا هدفين:

1 - إخراج الزعيم سيف النصر وأبنائه؛ عبد الجليل ومحمد وسليمان وإخوانهم جميعاً، وقد وقعوا في الأسر بعد احتلال الطليان لواحاح هون، وتم اعتقالهم بزوراة، فكان أحد شروط المغاربة الإتيان بهم، وقد جاء بهم الطليان إلى سرت استغلالاً لنفوذهم وربما يتمكن بواسطتهم من أي عمل كان، ولكنهم خلصوا منه والتحقوا بمعسكر المجاهدين المغاربة.

2 - استفاد المغاربة من السوق في سرت، واشتروا كميات ضخمة من المؤن استفادت منها قبائل برقة الغربية.

وأراد الطليان الغدر والخيانة والوثوب على غرة، وهاجم العدو زاوية النوفلية، واشتبك مع المغاربة في قتال عنيف أسفر عن احتلالها بعد خسارة عظيمة وكان من بين الشهداء يومئذ الشيخ السنوسي الأطيوش، ومن بين الجرحى عبد الله بن إدريس، وقد أبلى كل منهما بلاءً حسناً، ثم التحمت المعركة الثانية بين الفريقين بموقع الخدة، وتلتها معركة العويجة، وتوالت المعارك ليلاً ونهاراً، وكل فريق من المتحاربين نال نصيبه من الكر والفر والريح والخسارة، فكانت هذه المعارك مدعاة لإثارة روح الهمة والنشاط والأمل بين المجاهدين في الجهات الأخرى، وجعلت أولئك الذين قدر لهم أن يكونوا تحت الطليان يتأهبون للقيام من جديد، سيما قبائل أولاد أبو سيف، ففي هذه الأثناء كتبت هذه القبائل ومن حولها إلى أحمد الشريف يطلبون منه إيفاد نائباً عنه - يلتفون حوله وينظم صفوفهم، فعين أحمد الشريف أخاه صفي الدين السنوسي نائباً عنه لربط المعسكرات السنوسية بطرابلس والإشراف عليها، كما عين أخاه محمد عابد السنوسي نائباً عنه بمنطقة فزان⁽¹⁾.

سادساً: المجاهد الكبير القائد الشهير صفي الدين السنوسي:

توجه صفي الدين في يوم 13 جمادى الأول عام 1333م، وترك إجدابية ليتولى القيادة في الجهات الغربية، فكان لتعيينه فرحة عظيمة لدى القبائل المضوية تحت لواء الحركة السنوسية، وهي ترى زعماءها يقودون الجيوش بأنفسهم، ويتولون الأعمال، ويخوضون ميادين القتال، واستقبلت القبائل في المنطقة الغربية صفي الدين لتشد من أزره وتقوي عزمه، وكان على رأس المستقبلين عبد الله بن إدريس، ثم توجه إلى معسكر المجاهدين، وكان في استقباله صالح باشا الأطيوش، وتولى الإشراف على أمور المعسكر والمجاهدين، ورتب الأعمال، ثم غادر معسكر

(1) انظر: برقة الغربية، ص 294.

المغاربة متجهاً إلى معسكر حمد بك سيف النصر، وفي معيته، كل من الشيوخ، صالح البسكري، ومصطفى منينة، ورويفع بن إدريس، وعبد العزيز صهد، وبعد وصول صفى الدين، علمت إيطاليا بوصول نائب أحمد الشريف إلى جهات سرت من طرابلس، فاستعدت بحملة عظيمة لملاقاته وصدته عن مواصلة سيره، إن لم تتمكن من القبض عليه، فعملت كل ما تستطيع عمله من تجهيز هذه الحملة وتزويدها بأقوى الأسلحة، فاندلعت معركة عظيمة بين القوات السنوسية والإيطالية بموقع «أبي هادي» وكان صفى الدين في مقدمة المجاهدين مصحوباً بأبطال الجهاد منهم؛ حمد بك سيف النصر، وعبد الله بن إدريس، وصالح باشا الأطيوش، وأحمد التواتي، وغيرهم من البواسل، واستمرت المعركة بشدة وعنف عدة ساعات انجلت عن خسارة الإيطاليين خسارة فادحة في الأرواح والعتاد، ولم يبق من جيش إيطاليا إلا النزر اليسير، وقد وصف الشعراء هذه المعركة، ومن بين هؤلاء الشعراء عبد الله بن إدريس، وقد جمعت قصيدته أسماء بعض المعارك التي حصلت وقتذاك قبل معركة أبي هادي فقد قال:

سطع الضياء بكوكب الإقبال
والدين جدد بعد ضعف واحتمى
والنور «لاح ببرقة» وكأنه
والنصر من رب البرية لم يزل
هنئت يا بطل الخلافة بالذي
فلك البشارة قد أتت من أول
إلى أن يقول:

ذلك الذي نصر الشريعة أحمد
لا زال في الإسلام حصناً مانعاً
إلى أن يقول:

لما رآه مصمماً ومحارباً
قال الفرار وليس لي من حيلة
من «ساحة الفزان» ولى راجعاً
من «مرزق» ولى و«سوكنة» التي
نكب العدو وقال مالي حيلة
يا حسرة إنني تركت مدائني
ما كنت أحسب أن «برقة» هكذا
إن «المغاربة» الذين هم بها
والصلح لا يبغيه بالأموال
وتبدلت أحواله في الحال
في خزية ومذلة ووبال
هي موضع الأرزاق والأموال
أخذت جميع مدافعي وبغالي
ورأيت ما لم يخطر ببالي
فيها رجال الحرب أي رجال
جاؤوا بيوم في ربيع تال

وكذا الذين «بخشة» ورفاقهم

نالوا الفخار بجمعهم في «خدة»

إلى أن يقول:

يوم «العويجة» أنذر الطليان

فتعددت أمواتهم وتمزقت

من بعده ركبوا «البحار» وأقفلوا

إلى أن يقول:

أما «العواقير» الكرام «ببرقة»

وكذا «البراعصة» الذين هم هم

أبنا «عبيد» في الجهاد كأنهم

كانت تلك الانتصارات التي حققها السنوسيون، محل الإعجاب والتقدير من أبناء ليبيا

المخلصين، ولذلك اتصل كثير من القادة والشيخوخة بصفي الدين، وكان رمضان السويحلي على رأس أولئك الأبطال المغاوير، ولذلك اتصل بصفي الدين السنوسي، واتفق معه على أن يعمل جهد المستطاع للاتصال بهم دائماً، وعمل على دعم المجاهدين السنوسيين بالمؤن، والبضائع من سوق «مصراته»، وشارك مع صفي الدين السنوسي سراً في معركة «أبي هادي» وأبلى هو ورفقاؤه بلاءً حسناً، وأصيب أخوه حمد بجراح⁽²⁾.

اشتدت الضربات القوية على القوات الإيطالية، وخشيت على سمعتها العسكرية، وأخذت تعد العدة من جديد للقضاء على المعسكر السنوسي.

وقام الشيخ صالح الأطيوش بتجنيد أهالي «الخشة»، من المغاربة وأتباعهم، كما قام عمر سيف النصر بتجنيد قبائل أولاد سليمان وأتباعهم، وقام عبد الجليل سيف النصر بتجنيد قبائل القذاذفة، وقام محمد علي الشفيح بتجنيد قبائل الفرجان، والهامللة ومعدان، استداداً لمعركة أخرى عرفت في التاريخ باسم معركة القرضابية.

سابعاً: معركة القرضابية:

جمع الطليان قوات كبيرة وأرغموا سكان السواحل التي يحتلونها بالانضمام إلى قواتهم وكان على رأسهم رمضان السويحلي زعيم مصراته، فالتقوا بالمجاهدين عند القرضابية، أو قصر

(1) انظر: برقة العربية، ص 296، 297.

(2) انظر: برقة العربية، ص 297.

بوهادي، وكان رمضان السويحلي على ما يبدو قد اتفق مع السنوسيين على أن يندس بقواته مع الجيش الإيطالي الذي كان يقوده الكولونيل «ماني»، يقول الشيخ الطاهر الزاوي: «وقد تواترت الأخبار عن لهم صلة برمضان بأنه كان يعترم الانقلاب على الجيش الإيطالي إن لم يوافق المجاهدون على الصلح، وقد صرح رمضان بهذا للشيخ محمد بن حسن حينما قال له - والجيس على أهبة الخروج من مصراته.. كيف تحارب إخوانك المسلمين؟ فقال له رمضان: أنا ذاهب لدعوتهم إلى الصلح، فإن امتنعوا فسأنقلب معهم على الطليان، واعتزام رمضان الانقلاب على الطليان لا يشك فيه إلا مكابر»⁽¹⁾.

وبدأت المفاوضات بين الجيش الإيطالي والسنوسي من أجل الصلح، وقام العقيد ماني بإرسال وفد من زعماء العرب يتكون من أربعين فارساً، ولما وصل الوفد إلى الجيش السنوسي رفض الرجوع، وكان ذلك في 11 جمادى الثاني سنة 1333هـ، ورجع بعض الأفراد إلى القوات الإيطالية.

خدعة حربية من المجاهد الكبير صفى الدين:

أمر صفى الدين حمد بك سيف النصر بأن يعلن جهاراً بأنه سيغزو ورفلة، وسرعان ما وصل الخبر إلى العدو بواسطة الأشخاص الذين عادوا من المعسكر، وبعض الجواسيس، فاتفق رأي القائد الإيطالي وأركان حربه أن يرجع عبد النبي بالخير بقواته للدفاع عن ورفلة قبل أن يصلها سيف النصر، وبذلك خسر القائد الإيطالي هذا القسم من قواته وقائده عبد النبي، وقبل اندلاع المعركة أعلن صفى الدين بأن الليبيين الذين مع الجيش الإيطالي هم من المجاهدين وسوف يتقلبون على القوات المعتدية، وارتفعت الروح المعنوية لدى المجاهدين السنوسيين، وعندما سمع «مياني» الخبر جرد الليبيين من السلاح وكلفهم بنقل المؤن فقط، ووضع الأعيان بسيارات خاصة، وبذلك خسرت القوات العربية، إضافة إلى جيش ورفلة وتقدمت قوات أحمد سيف النصر يقتفي أثرها خلصة، فكان يختفي بالنهار، ويقتفوا أثرها ليلاً، وكان من المؤكد عند الطليان أن أحمد سيف النصر ذهب بقواته ليغزو ورفلة، وقد الله تعالى وصول قوات جهادية إلى المعسكر السنوسي بعث بها صالح باشا الأطيوش من جهة الخشة، كما وصل عبد الجليل سيف النصر وأخوه عمر بنجدات أخرى، واشتبك الفريقان في معركة طاحنة يوم 14 جمادى الثانية 1333هـ، وقد سيطر بادية الأمر الطليان حتى كادوا أن يحوزوا الراية السنوسية، وعندها باغتهم أحمد سيف النصر من الخلف واشتدت المعركة حول العلم السنوسي، فأنقذ بعد أن استشهد الكثير من المجاهدين حول البيرق السنوسي⁽²⁾، واستطاع رمضان السويحلي في تلك

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص 153.

(2) انظر: برقة العربية، ص 300.

اللحظات الحرجة أن يصل إلى جنوده من مصراته وأصدر أوامره بإطلاق النار على الطليان، فأطلقوها عليهم من الخلف، فكانت بداية النهاية، فحاص الجيش في بعضه حيصة الحمر، ورجعت أولاه على أخراه، واختلطت خيله برجله، وارتكس بعضه في ذلك الجيش، ولم ينج منه إلا 500 جندي⁽¹⁾، ونجا العقيد ميانبي إلى سرت مجروحاً مع من بقي من جيشه، وبقي في مكان المعركة كل ما كان مع الجيش من معدات الحرب وعتادها، من إبل وخيل، وبنادق ومدافع ورشاشات⁽²⁾، ومن بين ما غنمه المجاهدون صحيحاً اثني عشر مدفعاً من مدافع الميدان، وعشرين مدفعاً رشاشاً، وسبع سيارات، وعشرون ألف بندقية، وقسماً عظيماً من الذخيرة، وقسم المستشفى العسكري بجميع معداته، وجميع المؤن⁽³⁾.

وكان أفظع ما يقع عليه نظر الإنسان تلك الأكوام من الجثث البشرية، وبمجرد وصول ميانبي إلى سرت جرد جميع العرب من الأسلحة وعقد مجلساً عسكرياً، وحكم بالإعدام على كثير من السكان ومن أبناء العرب الذين التجئوا إلى سرت، وفي مقدمتهم من الأعيان والرؤساء: الحاج محمد القاضي من مسلاته، والحاج محمد مسعود من قماطة، وحسونة بن سلطان، وأبو بكر النعاس، وأحمد بن عبد الرحمن من ترهونة، وقتل من غيرهم نحو سبعمائة، وأصدر أمراً بالقتل العام، فصار الجند يقتلون الناس في الشوارع وعلى أبواب البيوت، ويربطون العشرة والعشرين في جبل واحد ثم يقتلونهم، ورمى كثير من الناس بأنفسهم في البحر فراراً من التمثيل بهم، فكان منظرًا مريعاً، وبعثوا إلى روما نحو ألف أسير أكثرهم من السكان والحمالين الذين استأجروا جمالهم⁽⁴⁾، وبدأت قوات المجاهدين في تطهير البلاد من الأنجاس المعتدين، وتركت الحاميات الإيطالية حصونها بسهولة وهامت على وجهها عبر التلال والسهول المحرقة الجافة، وحررت مزدة، والقصباب، وسرعان ما وصل المجاهدون إلى ابن غشير، على بعد 15 ميلاً من طرابلس، وصدرت الأوامر للإيطاليين بالانسحاب الكامل إلى الساحل وقضي على حامية ترهونة كلها أثناء هروبها إلى البحر، واستسلم ألف إيطالي في بني وليد بدون مقاومة، وانسحبت حامية غريان إلى العزيزية، ثم أجبرت على الانسحاب بسرعة إلى طرابلس، وأخليت مصراته وزوارة⁽⁵⁾.

لقد كانت القيادة الفعلية لمعركة القرضابية للسيد المجاهد صفي الدين السنوسي، والقادة

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص 155.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 155.

(3) انظر: برقة العربية، ص 300.

(4) انظر: جهاد الأبطال، ص 156.

(5) انظر: جهاد الأبطال، ص 157 إلى 171.

السنوسيين الذين معه، وقد ساندتهم مساندة فعالة المجاهد رمضان السويحلي بجنوده وانضم معهم في الوقت المناسب.

وقد تفجرت ملكات الشعراء بسبب انتصار المجاهدين في القرصائية، فهذا الشاعر محمد عبد الله معتوق المصراتي يصف شجاعة المجاهدين في القرصائية ويمدح رمضان السويحلي على موقفه البطولي في المعركة فقال:

وقفت وقفة أبطال وشجعان	تجابه الغزو في صبر وإيمان
يوم الخليج وما سددت من خطط	كانت دماراً لمن عن أرضنا جان
لما وضعت حشود الخصم في قفص	ما بين بحر وصحراء ونيران
حمى الوطيس وطيس الحرب ملتهباً	والنار تلمح من قاص ومن دان
وللعزائم من آلامها خورٌ	يستوي عزائم الأبطال ومن دان
خاضوا المعارك في صبر وفي جلد	وقاموا في حماس كل طغيان
سدوا المنافذ عن أعداء أمتهم	فصيروهم حيارى شبه قطعان
البحر يحجزهم والنار تلمحهم	والخصم يطحنهم في غير إمعان
خرت جحافلهم في مأزق خطر	لم يبق منهم سوى أشباح إنسان
ناموا على جثث الأموات يدفعهم	حب الحياة إلى خزي وخذلان
عادوا «لمصراتة» والحق يدفعهم	شنوا عليها هجوماً غير إنسان
كم أحرقوا من ضعاف من ملاجئهم	ويوم ما طوس عنها خير برهان
كم علقوا من بريء فوق مشنقة	وقتلوا من شهيد فوق كثبان
وفي السجون رجال ما لهم	والشعب يرزح من ظلم وعدوان
كذلك تاريخ يا من له جهلوا	وذاك تاريخ ليث الحرب رمضان ⁽¹⁾

لقد حقق المجاهدون انتصاراً عظيماً على إيطاليا ولولا الشقاق والخلاف والنزاع الذي وقع بين رمضان السويحلي وصفي الدين السنوسي لأصبح الجهاد أمراً آخر، ولهزم الإيطاليون عن بكرة أبيهم، وأسباب الصراع المذكور تحتاج إلى تقصُّ وبحث يصعب على مثلي الوصول إليه، ولهذا عرضت عنه صفحاً، إن الخوض في هذه النزاعات يخالف النهج الذي سرت عليه «من توسيع النقاط البيضاء في تاريخنا وتضييق النقاط السوداء» ولقد تعرض بعض المؤرخين لهذا الخلاف منهم: الطاهر الزاوي، ومحمد مسعود فشيكة، ومحمد الطيب الأشهب، وبعد اشتداد الخلاف والنزاع بين رمضان وصفي الدين، أصدر الوكيل العام للسيد أحمد الشريف

(1) انظر: رمضان السويحلي، محمد فوشيكة، ص 89، 90، 91.

«سمو الأمير» إدريس السنوسي أمراً إلى صفي الدين بالعودة من طرابلس إلى برقة، وأن يترك الأمر بعد تطهير أكثر البلاد من الطليان إطفاء للفتن وحقناً للدماء⁽¹⁾.

وأما بالنسبة لجهاد الجنوب في فزان والجفرة والنواحي الغربية من فزان، فقد تولى قيادتها محمد عابد السنوسي نائب أحمد الشريف، وقد اتخذ مركزه بزواوية «واو» ويتبع هذه القيادة ثلاثة معسكرات أحدها يرأسه وكيل محمد عابد وكبير مستشاريه الشيخ محمد الأشهب، أما المعسكر الثالث بالجهات الغربية الشمالية من فزان فيرأسه الشيخ السني، ويشرف على الإدارة العامة محمد علي الأشهب، فاشتركت هذه المعسكرات في المعارك الدموية مع الطليان بالجفرة وفزان وقد كانت هذه الجهات بيد العدو⁽²⁾، واهتم أحمد الشريف بأمر فزان واتخذ من «زلة» قاعدة للإغارة على إمدادات الإيطاليين بفزان وحدث أول هجوم في 26 أغسطس عندما أيد طابور كان يسير عبر حمادة، وكانت تلك الحادثة بداية النهاية لاحتلال فزان الذي دام قليلاً، وبانقطاع الإمدادات عن القوات الإيطالية في فزان أحاطت بها القوات الإسلامية الليبية المجاهدة، وشاركت في تلك المعارك قوات المجاهدين في قبائل التبو والطوارق، واستطاعت قوات المجاهدين أن تقضي على حامية «أدري» و«أباري» وفتحت قلعة سبها، وسقطت مرزق، ولجأت قوات الإيطاليين في غات إلى جنوب الجزائر وطلبت حماية الفرنسيين، ثم تراجعت القوات الإيطالية إلى سوكنة ثم مصراته، وتخلوا عن غدامس، وغريان، وأعلنت طرابلس حالة الطوارئ⁽³⁾، وكان من أعيان فزان الذين قادوا الجهاد المقدس ضد إيطاليا المجاهد الكبير محمد بن عبد الله البوسيفي، ونازل أهل فزان القوات الإيطالية في ثلاث معارك مشهورة في «الشبيب» و«أشكدة» و«المحروقة» واستشهد فيها محمد بن عبد الله البوسيفي رحمه الله تعالى⁽⁴⁾.

وقاد سالم بن عبد النبي الزنتاني حرب عصابات ناجحة في ولاية فزان، وأثنى في أعداء الله، وهاجم القاهرة، وهي ربوة عالية في سبها يوجد بها حصن وسياج من المدافع والأسلاك الشائكة، وأصبحت تلك القلعة منيعة جداً، واستطاع سالم عبد النبي فتحها بقواته عام 1914م، لقد أبلى أهل الجنوب من مسلمي ليبيا بلاءً حسناً في جهادهم البطولي ضد إيطاليا، مما يدل على أصالتهم وحبهم لدينهم وبغضهم لكل محتل عنيد.

ونتيجة للفتنة التي ذكرتها أمر السيد محمد إدريس محمد عابد أن ينتقل بقواته نحو الكفرة⁽⁵⁾.

(1) انظر: برقة العربية، ص 302.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 303.

(3) انظر: تاريخ ليبيا، جون رايت، ص 127، 128.

(4) انظر: قادة فتح بلاد المغرب، محمود خطاب (2/290).

(5) انظر: برقة العربية، ص 303.

المبحث الرابع الجهاد في برقة

في 24 من شهر شوال 1329هـ الموافق 19 أكتوبر 1911م وقف الأسطول الإيطالي بميناء بنغازي الآمنة العزلاء وقذفها من قنابله في غير شفقة ولا رحمة، وفي 22 من الشهر وقف بميدان درنة، وبعد التمهيد بقذف القنابل أنزل بها قوة عسكرية وسرعان ما طير الخبر إلى الشيخ المجاهد الشريف بالكفرة، فأمر بالوقوف في وجه المعتدي، والاستعداد لقتاله والتضحية في سبيل الوطن بالنفس والنفس، وكتب إلى رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس وإلى شيوخ وأعيان القبائل يأمرهم بالدفاع ويحثهم على الجهاد، وكاتب الملوك، والأمراء وزعماء العالم الإسلامي طالباً منهم الوقوف مع إخوانهم المسلمين في ليبيا ضد العدوان الصليبي الغاشم، وفي شهر رجب سنة 1330هـ/1913م تحول من الكفرة إلى الجغبوب ليكون قريباً من ساحة الوغى.

استطاع الإيطاليون احتلال كبريات مدن ليبيا الساحلية، كطرابلس ودرنة وطبرق، وكانت الحامية العثمانية في بنغازي تحت قيادة القمندان شكري بك في منتهى الضعف، فلا تستطيع أن تحمي نفسها فضلاً عن كونها تدافع عن البلاد التي كان احتلالها في رأي المحتلين والأوساط السياسية في أوروبا أمراً مفروغاً منه.

أخذ متصرف بنغازي فؤاد مراد بك يعقد اجتماعات مجلس الإدارة ويتشاور معهم، وكان وقتذاك رئيس الزاوية السنوسية ببنغازي هو أحمد العيساوي، فطلب منه المتصرف أن يحضر جميع الاجتماعات التي تعقد.

لقد جاهد أسود مدينة بنغازي شياً وشباباً عن مدينتهم دفاعاً مجيداً، فأظهروا من البطولة والشجاعة النادرة ما جعلهم محل التقدير من كل المسلمين، وسجلوا صفحات مجيدة خالدة بماء الذهب في سجل التاريخ، وقد ساهمت القبائل القريبة من مدينة بنغازي في الجهاد، وأول من وصل منها قبيلة العواقر ومن معهم، وقام أهالي بنغازي بإكرام المجاهدين، رغم عدم وجود الأمتعة والزراد الكافي، فأكرمهم غاية الإكرام، وفتحت الحكومة العثمانية مخازن الأسلحة، وكانت جلها بنادق لا تزيد عن أربعة آلاف بندقية، وشرع المجاهدون في مهاجمة العدو الغاشم وكلفوه خسائر في الأرواح، واستشهد الكثير من أبناء المسلمين وتعرف هذه المعركة بواقعة «جليانة» ثم بعد يومين من ذلك انقض المجاهدون على الإيطاليين بموقع الصابري وقتلوهم قتالاً عنيفاً، وغنموا منهم أسلحة كثيرة، وبعد ذلك بيومين كانت واقعة السلاوي الشهيرة، وكان يقود المجاهدين الشيخ عبد الله الأشهب، فأظهر شجاعة فائقة، وقدرة نادرة، ورأياً سديداً في توجيه قوات المجاهدين، وتحميسهم للجهاد، وحقق المجاهدون انتصاراً رائعاً، وغنموا جميع

ما كان مع الإيطاليين في الميدان من المؤن، والعتاد الحربي، وكان عدد الشهداء كثيراً، وبعد واقعة السلاوي التحم المجاهدون في معركة حامية الوطيس مع العدو بقرب البركة بالموقع المعروف بـ «هوى الزردة» فاستشهد فيه الكثير من المجاهدين، ومن بين الشهداء مائة وخمسون شهيداً من قبيلة واحدة هي عائلة إبراهيم العواقر عدا شهداء أهل مدينة بنغازي وبقية القبائل الأخرى، ولقد أظهر سكان مدينة بنغازي من أصناف البطولة والكرم الفياض والصبر العجيب والثبات النادر والشجاعة العظيمة ما أثار إعجاب إخوانهم من القبائل⁽¹⁾.

وبدأت النجيدات العسكرية تتوافد إلى مدينة بنغازي بتحريك شيوخ الحركة السنوسية، فوصلت كتبية قبيلة العرفا، وعددها ثلاثمائة مسلح يقودها الشيخ عمران السكوري، وتلتها بقية النجيدات التي جاء بها زعماء القبائل، وشيوخ الزوايا من كل حذب وصوب:

* الشيخ عبد الله الأشهب وكيل رئيس زاوية مسوس، ورؤساء قبائل العواقر.
* الشيخ محمد علي عبد المولى رئيس زاوية أم شخنب، ورؤساء قبائل إبراهيم العواقر.

* الشيخ حسن الغماري رئيس زاوية دريانة وقومه من العواقر.
* الشيخ التواتي الكليلي رئيس زاوية طلميثة وقومه من الدرسا.
* الشيخ محمد علي المحجوب، رئيس زاوية الطيلمون مع مطاوع العواقر.
* الشيخ محمد الزروالي رئيس زاوية القطفية ومعه قومه من شوامخ المغاربة.
* الشيخ محمد علي الغماري رئيس زاوية أسقفة وقومه من البراعصة والدرسة.
* الشيخ محمد أبو نجوى رئيس زاوية ميراد مسعود وقومه من الدرسا.
* الشيخ عمر المختار رئيس زاوية القصور وقومه من العبيد.

كانت النجيدات مؤلفة من قبائل العرفا، والدرسا، والبراعصة، والعواقر، والمغاربة، والعربيات، وزوية، والقبائل، والمسامير، والجراة، والفواخر. ومن هذه القبائل أو متمياً لها أو مجاوراً أو مرتبطاً بها قد وصلت في أسرع ما يمكن بقيادة زعماء وشيوخ القبائل، وشيوخ الزوايا، وهؤلاء السادة جمعوا الجموع تلبية لنداء القائد الأعلى للحركة السنوسية، وتقرر أن يكون موقع معسكرهم ومقر قيادتهم في بنينه شرق بنغازي أكثر من عشرين كيلو متراً، فقد صح فيهم قول الشاعر:

تلاميذ لا يعدون أمراً أراداه بواد وأشرف تبيد الأعاديا
كتائب أمثال الجبال رزانه وإن حملت خلت الهضاب جواريا

(1) انظر: برقة العربية، ص 257، 258.

أولئك أقوام على الموت بايعوا مبايعة أضحى بها الصبر راضياً⁽¹⁾ وشرع المجاهدون في مهاجمة معقل الإيطاليين بشدة وعنف، يقول الأمير شكيب أرسلان: «وفي 12 مارس جرت وقعة الفويهات الشهيرة وكان سببها أن 220 عربي دخلوا بين استحكامي الفويهات والبركة، فثار في وجوههم الطليان واشتدت الحرب وأحاط الطليان بالماتني مجاهد من العرب، فلبث هؤلاء العرب يقاتلون مستميتين إلى الظلام، وعند ذلك نجا منهم عدد ولحقوا بالمعسكر العربي بعد قتال استمر طول النهار، ويقال إنه نجا 80 رجلاً من الماتنين.

وأما الطليان فقتل وجرح منهم ألف وخمسمائة مقاتل منهم 28 ضابطاً برتب مختلفة، وجنرال برتبة لواء، وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول تلك المعركة، وكانت هذه المعركة قد شقت كثيراً على العرب، وقامت النوادب تندب أولئك الأبطال التي حالت مدافع الطليان دون إمكان نجاتهم، وبينما العرب في مأتم على قتلاهم وردت برقية من أنور باشا القائد العام في درنة إلى عزيز علي المصري قائد المجاهدين في بنغازي عن برقية من الأستاذة عن برقية من برلين عن برقية من روما، تفيد أن وقعة الفويهات هذه كانت من أشد المصائب على الطليان خسروا فيها ألفاً وخمسمائة مقاتل ومنهم ضباط كثيرون قتلى وجرحى، ومنهم من أصابهم الجنون من هول ذلك اليوم»⁽²⁾.

وفي شهر أبريل سنة 1912م خرجت حملة إيطالية بعدتها وعتادها مزودة بجميع أنواع السلاح، وهاجمت معسكر بنينه، فاندلعت بين الفريقين معركة عظيمة، استمرت ساعات متتالية، تمكن العدو فيها من احتلال موقع المعسكر، وانسحب المجاهدون، ثم باكر هذه المعركة التحم المجاهدون مع القوات الإيطالية في معركة بموقع حلق الرياح، ولم يكن الفوز لأحد من الفريقين، رغم كثرة الأموات من الطرفين، ومن شهداء تلك المعركة الشيخ موسى قرق عمدة قبيلة العمارنة، والشيخ جبريل العبيدي، ثم عقب ذلك التحم الفريقان في معركة بموقع «حوش العكب» وذلك يوم 17 رمضان سنة 1330هـ، وكانت القوات الإيطالية زاحفة نحو سلوق، ولكنها فشلت في تحقيق هدفها، ومن بين شهداء هذه المعركة: أبي زيد بن محمد الكزة، ومن بين الجرحى الشيخ عبد الحميد العبار، والشيخ يونس بن مصطفى أبي شنيف⁽³⁾.

واستمر القتال في جميع أنحاء برقة من بنغازي إلى طبرق، وقد تمكن الطليان من احتلال بعض المراكز في الدواخل، وبعد حصول معارك كثيرة وفي مواقع مختلفة أرسل الجنرال أميليو

(1) انظر: برقة العربية، ص 260.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 140.

(3) انظر: برقة العربية، ص 266.

قائد القوات الإيطالية إلى شيوخ القبائل يطلب منهم إرسال مندوبين للدخول معهم في المفاوضات، وعندما وصل الوفد الإيطالي الذي يحمل الكتاب إلى المشايخ وصل السيد أحمد الشريف إلى موقع رويغ بن ثابت الأنصاري المعروف بسيدي رافع، فكان رد شيوخ القبائل على الجنرال الإيطالي، كالآتي:

حضرة... .

وبعد نخبر حضرتكم أننا اتصلنا بأعيان بنغازي واطلعنا على شروطكم المسطورة الواردة معهم من حضرتكم، وقد أخبروا براحتهم مع دولتكم قبل وصول الأعيان جاءنا رسول من طرف الأستاذ الفاضل سيدنا أحمد الشريف يخبرنا أنه وصل إلى الجبل الأخضر بموقع سيدي رافع ويأمرنا بالحضور عنده بناءً عليه لا يمكن الآن حضور أحد منا صحبة أعيان بنغازي حتى نتصل بشيخنا وأستاذنا، إن شيخنا الموماً إليه نزل بساحتنا وطلب منا الحضور فلا يمكن التأخر عنه، وبعد الاجتماع به سيصدر من طرفه العالي كل ما يلزم، وبه يكون العمل، وها نحن أخذنا كتابكم لعرضه عليه 15 جمادى الثانية سنة 1331هـ.

وكان الموقعون على هذا الكتاب الشيوخ الآتية أسماؤهم:

عبد السلام الكزة، إبراهيم المصراطي، عمر الأوجلي، علي الأوجلي، محمد الكاسح، خليل مصطفى، مفتاح أبو خزيم، علي محجوب، مصطفى خليل، أبو بكر القذافي، مفتاح حسين، جاد الله أبو زيد، حبيب الله اللواطي، رويله أبو لطيف، مطرود أبو شنيف اللواطي، المبروك اللواطي، المبروك عمر⁽¹⁾.

أما جبهة الجبل الأخضر فقد كانت الكتاب السنوسية يقودها كل من:

- * الشيخ محمد الدردفي رئيس زاوية شحات مع رؤساء ومشايخ وقبائل الحاسة.
- * الشيخ محمد الحسين الخلافي رئيس زاوية المخيلي.
- * الشيخ صالح بن إسماعيل رئيس زاوية الفائدية مع رؤساء ومشايخ عائلة فاند.
- * الشيخ محمد العربي رئيس زاوية القصرين مع رؤساء ومشايخ قبائل البراعصة.
- * الشيخ عبد القادر فركاش رئيس زاوية بشارة مع رؤساء قبائل العبيدات.
- * الشيخ عبد الله أبو سيف رئيس زاوية مارة مع رؤساء قبيلة العبيدات.
- * الشيخ الغماري رئيس الزاوية البيضاء مع رؤساء قبيلة البراعصة.
- * الشيخ محمد الغزالي رئيس زاوية ترت مع رؤساء قبيلة العبيدات.

(1) انظر: برقة العربية، ص 267، 268.

- * الشيخ الحبيب بن جلول رئيس زاوية المرازيق مع رؤساء قبيلة العبيدات.
 - * الشيخ المرتضي فركاش رئيس زاوية أم الرزم مع رؤساء قبيلة العبيدات.
 - * الشيخ محمد العيساوي رئيس زاوية الحنية مع رؤساء المدرسا.
 - * الشيخ السنوسي الغماري رئيس الزاوية الحمامة مع رؤساء قبيلة البراعصة والمدرسا.
 - * الشيخ جاد الله الجبالي رئيس زاوية العرقوب مع رؤساء قبيلة البراعصة والمدرسا.
 - * الشيخ محمد أبو فارس رئيس زاوية أم حفين مع رؤساء قبيلة العبيدات.
 - * الشيخ محمد بن عمور رئيس زاوية قفظة مع رؤساء قبيلة البراعصة.
 - * الشيخ عبد الله سعد فركاش رئيس زاوية مرتوبة مع رؤساء قبيلة العبيدات.
- لبت هذه القبائل من السعادي والمرابطين نداء شيخ المجاهدين أحمد الشريف. وحضرت لقتال العدو تحت قيادة رؤساء زواياها وزعمائها وشيوخها الأسود. وبالنسبة لمنطقة طبرق جمع شيوخ الزوايا، وزعماء العشائر القوات التي تأسس بها معسكر طبرق:

- * الشيخ محمد الشارف رئيس زاوية أم الجرفات مع رؤساء قبائل حيون.
 - * الشيخ محمد عبد الله رئيس زاوية أم ركة مع رؤساء قبائل القطعان والشواعر.
 - * الشيخ مرتضي الغرياني رئيس زاوية جنزور مع رؤساء قبائل العبيدات والمنافا.
 - * الشيخ صالح الشريف رئيس زاوية المرصص مع رؤساء قبائل العبيدات.
- فتم تأسيس أربع معسكرات هي: معسكر بنغازي، ومعسكر الجبل، ومعسكر درنة، ومعسكر طبرق في وقت قياسي⁽¹⁾.

صممت الدولة العثمانية على المقاومة حفاظاً لماء الوجه أمام الرأي العام الإسلامي، فأرسلت نخبة من ضباطها وقوادها المشهورين لتقوية روح المقاومة والدفاع وتدريب المجاهدين وتعليمهم كيفية استعمال الأسلحة الحديثة والمعدات، وبدأت المساعدات المادية والمعنوية تتوافد على المجاهدين، وكان من أبرز القادة الأتراك الذين أرسلتهم الحكومة العثمانية كل من الرائد أنور بك، ومصطفى كمال، فتحي أوفيار، وخليل بك عم أنور بك، فؤاد بولجاقاش باشي، سليمان العسكري، وعزيز علي مصري، أدهم باشا الحلبي⁽²⁾.

(1) انظر: برقة العربية، ص 261.

(2) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص 69، 70، 71.

أولاً: القائد التركي أنور باشا:

أرسلت تركيا أنور بك «باشا بعد» قائداً عاماً ببرقة، فوصل إليها من تركيا عن طريق مصر، ونزل بمنطقة درنة، فاتخذ منها مركزاً لقيادته، واتصل برؤساء الزوايا، وزعماء القبائل، وشرع في ترتيب المعسكرات إدارياً، وعسكرياً، تحت إشراف قادة المناطق، ومجالس شيوخ الحركة السنوسية، وشيوخ القبائل الليبية، ووزعت القبائل نفسها على معسكرات الجهاد، وتكفلت كل قبيلة بالموثن والخيل والسلاح والرجال، ويتناوب رجال كل قبيلة على المعسكرات بين كل خمسة أشهر أو ستة أشهر، ونزل أحمد الشريف إلى الجغبوب مواصلاً دعمه الكبير لحركة الجهاد بكل ما يستطيع، يقول أمين سعيد في كتابه «الاستعمار الفرنسي والإيطالي في بلاد العرب» تحت عنوان السنوسيون في الميدان: «وأسرع السنوسيون في مقاطعة برقة عاصمتهم وسكانها من أتباعهم ومريديهم لتأييد الدولة وشد أزرها، يتقدمهم شيخهم الأكبر السيد أحمد الشريف وجاء شيوخ الزوايا للجهاد يقودون رجالهم فأبلوا البلاء الحسن في الكر والفر، وجددوا عهد المفخرة العربية، وأدهشوا العالم بما أبدوه من بسالة وشجاعة... فقد أصلى السنوسيون نار هذه الحرب في برقة من الأول إلى الآخر فكانوا رجالها وقوادها وكانوا آخر من جلا بعد أن فقدوا الجانب الأكبر من أقطابهم وشيوخهم»⁽¹⁾.

ومع مجيء أنور باشا لقيادة عمليات المجاهدين ضد إيطاليا في شرق ليبيا أصبحت الجبهة الشرقية البرقاوية تشن هجومات مكثفة على الإيطاليين، وكانت علاقة أحمد الشريف بأنور بك علاقة قوية ومحترمة، وكانت الرسائل لا تنقطع بينهما، ففي شهر أبريل سنة 1912م بعث أحمد الشريف برسالة إلى أنور بك، يظهر فيها تأييده للدولة العثمانية، ويشكر أنور كثيراً لجهاده وقاتله للطلليان ويعد بالنصر المبين من عند الله تعالى⁽²⁾، ويذكر أنور بك في مذكراته أن رسالة وصلته في أوائل شهر يوليو من السيد أحمد الشريف يشكره فيها على جهوده وجهاده، ويحثه على المزيد، ويدعو الله لنصرة الإسلام وقهر أعدائه الإيطاليين⁽³⁾، لقد بذل أنور باشا مجهوداً عسكرياً، وأخلص في حربه ضد إيطاليا وأحبه الشعب الليبي لنشاطه، وشجاعته النادرة، فكان محل تقدير الشيوخ وإعجابهم، وأحب أنور باشا المجاهدين الليبيين وأظهر إعجاباً بهم في مذكراته حيث يقول: «القبائل العربية ترسل لي مقاتليها، ويأتون على شكل جماعات صغيرة، كل واحد يحمل سلاحاً قديماً على كتفه، رابطاً رصاصاته في حزامه، وفي يديه بضع كيلوات من الدقيق، وبين القادمين مسنون بيض اللحى، وصبيان لم يبلغوا سن الخامسة عشرة، إن

(1) انظر: برقة العربية، ص62.

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص33.

(3) المصدر السابق نفسه، ص33.

أعمارهم لا تمنعهم من مواجهة الموت مع رفاقهم جنباً إلى جنب، لهم إيمان راسخ بأن أقدارهم مرسومة بإرادة الله، فمهما يكن لن تتغير، فإذا حان الأجل لن يتخلص منه أي مخلوق، ولهم قول مأثور رائع: «إذا أراد الرب فلا مناص من الشهادة، فالشجاع يموت مرة واحدة، أما الجبان فيموت كل يوم مائة مرة»⁽¹⁾.

ويتحدث عن تشكيلات المجاهدين ودور المرأة في الجهاد فيقول: «... وعلى الأغلب يكون هناك جمل واحد من نصيب كل عشرة مقاتلين، وعليه يحملون الخيمة التي يشتركون فيها، وترافقهم امرأتان من العشيرة تعملان على إعداد الخبز وخياطة الملابس، وتنظيف السلاح»⁽²⁾، ويتحدث عن اشتباك وقع بينهم وبين الإيطاليين استمر لمدة تسع ساعات، حقق المجاهدون فيه نصراً عظيماً، وكان من بين الجرحى مجاهدة أصيبت بقذيفة في صدرها رغم ذلك رفضت البقاء بالمستشفى وعادت إلى الجبهة لتلهب معنويات المجاهدين⁽³⁾.

وقد تأثر أنور باشا بالمجاهدين وقال عنهم: مثال رائع وفريد للتفاني بدون قيد أو شرط⁽⁴⁾، وقال: تلاشت ذكرياتي عن حياتي الماضية، وأصبحت في طي النسيان، وأشعر كأنني لم أعاشر أحداً غير العرب، ولم أشاهد مكاناً غير الصحراء، رغم ما أفضيه من أيام محروماً من كل شيء فإن هذه الحياة تولد لدي أحاسيس غريبة، هذه الحياة تتخللها حوادث تسعدني كسعادة الطفل في العيد⁽⁵⁾.

ولقد اعترف أنور باشا بتأثير أحمد الشريف على سير الحرب ضد إيطاليا فقال: «... رسائله تشكل بصورة واضحة أهمية كبيرة بالنسبة لي كرمز للصدقة، ولأنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بتأثير سلبي أو إيجابي في هذه الحرب...»⁽⁶⁾.

ويتحدث بإعجاب عن شجاعة قبيلة الحسا وموقفها الصلب من الإيطاليين فيقول: «استلمت اليوم الأنباء الأولية من درنة، خسارة الإيطاليين تفوق توقعاتي بلغت (800) قتيل وجريح، عثر الإيطاليون على الجرحى الذين تخلينا عنهم والبالغ عددهم (21) أكثرتهم من رجال قبيلة الحسا، من أبناء جبل برقة، فقد أرسل الإيطاليون رسولاً ليلغهم: الموافقة على إطلاق سراح الجرحى إذا تخلى أبناء حسا عن الاشتراك في القتال، وكان رد القبيلة كالآتي:

(1) انظر: مذكرات الضباط الأتراك، ص 60، 61.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 61.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 63.

(4) انظر: مذكرات الضباط الأتراك، ص 75.

(5) المصدر السابق نفسه، ص 77.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 81.

(إنكم أتيتم لتدمير بلادنا، سنبقى أمناء لأوامر الله والسلطان، اتحدنا لنحاربكم، واعتبرنا الأسرى موتى منذ فترة وبكيناهم، ولكن كل ذلك مضى، وسواء أطلتكم سراحتهم أم لا، فسنحاربكم حتى آخر رجل، نوصيكم بمعاملة الأسرى بالحسنى ولا تنسوا ما في أيدينا من رجالكم) أشعر بالفخر لكوني قائداً لمثل هؤلاء الرجال، ولأنني أحارب معهم في صف واحد...»⁽¹⁾.

ويتحدث بفخر عن المجاهدين فيقول: «جنودي شجعان مستمرين في تأدية واجباتهم، هناك عائلة لم يبق من أفرادها غير الأب، قتل أولاده الأحد عشر، وصهره، عندما قدمت له التعازي قال لي: إنني فخور وسعيد؛ لأنهم قتلوا في المعركة من أجل الوطن والدين»⁽²⁾. لقد تأثر الضباط الأتراك لما رأوا من شجاعة أجدادنا، فهذا الضابط العثماني أمين بك الذي يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين عاماً يتحدث في رسائله إلى زوجته عما رآه في ليبيا، تقتطف منها حديثه عن الشيخ لطيف بن طويلة فيقول: كان خطيباً بارعاً، ومجاهداً قتل أولاده في طبرق، وذكر في رسائله بعض خطبه التي كان يلقونها على المجاهدين فيبين أن الشيخ أكد بالحاح على أن الحرب ليست سياسية بقدر ما هي دينية، وفي هذه الحرب لا تجابه أمم بعضها البعض، وإنما هي أديان تجابه أدياناً، وأن العرب يجب ألا يدافعوا عن أرضهم فحسب، وإنما أيضاً عن عقيدتهم وتقاليدهم... وأقسم على القتال حتى لا يبقى في ليبيا إيطالي أو أوروبي وقال: «يا إلهي إننا نتعرض للغزو من جانب أهل الظلم والبغي، فلنشرب كأس الانتقام ببطء حتى نطفئ غليل ظمئنا...»⁽³⁾.

«... أيها المسكين، أيها المسكين، إنه لمن الأفضل لك أن تسكن خيمة ممزقة حيث يسود الإيمان من أن تقطن قصرًا تحرسه أسلحة الشيطان، إن حيل الشيطان ضعيفة، هذا ما تعلمنا إياه القرآن الكريم...»⁽⁴⁾.

«... إنني أريد شهداء، وليس جنوداً، إن الخطر والموت في انتظارنا، إنني أريد مذنبين، ولا أريد أولياء، فالرجل النقي نقاوة رمل البحر لن يكون محبوباً، وإذا ما كنتم مذنبين فلتذهبوا معي وتقاتلوا، ولتخلصوا أنفسكم من الذنوب، إننا نوار ويجب أن نكون كذلك، إذا ما قام العدو على العتب بما أوصانا الله به، إننا ندين بالولاء لله وليس للدولة، ولا تقعدوا طويلاً مع القاعدين، ولتأتوا إليّ إن الله سريع الحساب، وأكرر قولي لكم إن عشرة من المؤمنين سيغلبون مائة من الكفار»⁽⁵⁾.

وفي رسالة مؤرخة في 22 سبتمبر 1911م يتحدث أمين بك عن أخبار طبرق، وعن صديقه

(1) انظر: مذكرات الضباط الأتراك، ص94.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه، ص98.

(3 - 5) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ص196.

حبيب الذي أخبره كيف جرى اجتياح المواقع الإيطالية وتخريب عدد من الرشاشات، وكيف أن حبيب حمل رشاشاً إلى المعسكر العثماني، ثم يمضي قائلاً: «ومما يؤسفني أن الشيخ لطيف بن طويلة وثلاثة من أبنائه المتمرسين في حمل السلاح قد لقوا الشهادة على مقربة من طبرق، لقد فقدنا فيه واعظاً ميدانياً ما من أحد كان يستطيع أن يتقاعس عن الحرب عندما يسمع كلماته النارية، وحتى أولئك الذين أعتهم الحرب، وأريد أن أبلغك هنا إحدى خطبه النارية الأخيرة التي حضرتها متخفياً بالزري العربي، وقد نقلتها بالكتابة المختزلة، وربما «يا غولدانا» نحتاج يوم من الأيام أن نشير حماساً بأبنائنا بمثل هذه الكلمات. . . وقد تحدث الشيخ لطيف واعظاً وهو يلبس رداء الخطيب، ولقد كان مثل أسد تلحف بجلد جمل وقال: أيها المقاتلون في سبيل الرحمن الواحد الأحد لا تحتاجون الآن إلى السلاح، وإذا ما اعتقدتم أنكم تحققون الفتح فلتبقوا حيث أنتم، إن هذه الحرب ليست حربكم، وإذا ما كنتم تبغون طرد الإيطاليين فقط فلتذهبوا إلى بيوتكم إنما يتوجب عليكم هو طرد الشيطان ودولته من بلادنا، وأن تعيدوها إلى رحمة الواحد القهار. . . ولكن يجدر بكم ألا تتوقعوا ليالي ملاحاً وأياماً لطيفة، إنكم الآن خدم عقيدتنا، إنها نار حامية في النهار، ومسيرات طويلة في الليل، إنه الجوع والعطش، كل هذا ينتظركم، على أن المعجد والشرف ينتظرانكم أيضاً، فلتودعوا خيمتكم، وإذا ما أراد الله فلن تروا ذويكم ثانية، ولا تخافوا شيئاً.

إن المعركة حسب مشيئة الله، إنها ستغسل ذنوبكم بالدم، وإذا ما وضعت الشهادة يوم الحساب سينظر إلى ما قمتم به من أعمال، عندئذ ستكون الجنة بانتظاركم، . . . فلتأتوا معي باسم الله»⁽¹⁾.

يقول الضابط التركي أمين بك: إن وقع صوت الشيخ في نهاية الخطبة كان مثل وقع البوق، لقد كانت عيون ألف من العرب «المجاهدين» تتوقد حماساً وهي تنظر إليه وقد وقفوا جميعاً في صف الجهاد⁽²⁾.

يقول عن المجاهدين: إن جرأة هؤلاء الناس لا يعلى عليها، وأما دوافعهم إلى الاستهانة بالموت فهي ذات أساس فلسفي: «أرغب أن أموت في الحرب شاباً على أن أموت على فراشي شيخاً فما من مجد في الموت الناجم عن مرض الشيخوخة»⁽³⁾.

هكذا كان تأثر الضباط الأتراك بالمجاهدين الليبيين الذين حركتهم عقيدتهم، وحبهم لدينهم، وحرصهم على الشهادة في سبيل الله تعالى.

(1) انظر: الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ص 197، 198.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 198.

(3) انظر: المصدر السابق نفسه، ص 200.

ولقد تفاعل العالم الإسلامي مع أخبار الانتصارات التي حققها المجاهدون، فأشدوا القصائد الجميلة، فمنها قول الشاعر:

حيا الإله ببرقة الأبطال
أسد إذا دعت الوغى أبناءها
الناهضون المقعدون بعزمهم
شوس إذا حمى الوطيس تدافعوا
دولا السلام على السلام تحية
في أي دين أو كتاب منزل
والصلح خير تصلح الدنيا
لم تقتصد «روما» بخطتها ولم
وطغت وعاثت في البلاد بظلمها
هل منصف والحق أبلج واضح
إن كان بالظلم اتساع ممالك
إلى أن يقول:

من كل وضاح الجبين مجاهد
عرب إذا دفعوا الجياد لغارة
هذي طرابلس وفعل سيفها
هرع الطموح لضمها جهلاً بها
أبني طرابلس حفظتم ملككم
بيضتم وجه الحمى وملاتم
إلى أن يقول:

قد خلد التاريخ فعالكم
من مبلغ عنا الأنام جميعهم
إن السلامة في سلامة موطن
وإذا أراد الله بين عباده
ويقول:

«إيطاليا» عشقت فأنحلها الهوى
عشقت «طرابلساً» وكم من عاشق
والعشق يجعل من يحب خيالا
يقضي عليه ولا ينال وصالا

خذلوا العدو وأوسعوه نكالا
نفروا خفافاً للوغى وثقالا
الضاريون الهام والأوصالا
باليأس حزمًا والرماح طوالا
إن كان تأويل السلام نزالا
فيه أتى قتل النفوس حلالا
وبه عباد الله تنعم بالا
تترك لعقد الصلح ثم مجالا
ولكل حال أوجدت أشكالا
والعدل يملك للزمان عقالا
فالظلم يهدم كل ملك طالا

نور اليقين بوجهه يتلالا
هزوا العباب وخفخفوا الأوشالا
ضرب العدا لا تعرف الأقوالا
هيهات قد طلب الطموح محالا
يوم النزالا وضعتم الأعمالا
عين العباد مهابة وجلالا

إن الزمان يخلد الأفعالا
ومخبر الأيام والأجيالا
نقف النفوس عليه والأموالا
إصلاح حال غير الأحوال

تجني به نفعاً فجر وبالا
جلبت عليها الحنق والإذلالاً⁽¹⁾

ماذا جرى للظالم المتجبر؟
عار على الشيخ «السنوسي» وأنور
ينبي المهند والقضيب السمهري
ما بين مرتجز وبين مكبر
صكت مسامعها بزارة قسور

يا جيش روما لا تمن وخبر
وعلمت ما عقبى الظلوم المغتر
يسعى الهيجاء بنفس غضنفر
لا كنت يا منهوم بين الأعصر
وجعلت أهلك في لظى متسعر
كفى عن المظلوم لا تتهوري⁽²⁾

ومما قال الأستاذ معروف الرصافي عن ملحمة الجهاد في ليبيا:

صوارمكم حق المواطن في الذب
وذاك بما فيكم لهن من الحب
يمد لهذا الصدع منه يد الرأب
طلائع من خيل ومن إبل نجب
وينهض كشافاً لهم غمة الخطب
إلى الله يشكو قلبه شدة الكرب
جنود بني «عثمان» في الجبل الغرب
وهل من رحى ألا تدور على قطب⁽³⁾

جاءت بأسطولا وخالت أنها
جهلت وما عرفت بأن حروبها

أما الشاعر حمزة الفقي الجهيني فيقول:

يا أرض برقة عن رجالك خبري
أخذوا بشارك أم رضوا بمذلة
قالت سلوا زرق الأسنة والضبا
أسد إذا حمى الوطيس رأيتهم
فكأنما الأعداء أعيان الفلا
إلى أن يقول:

ماذا رأيت من الحروب وشرها
حقاً ذهبت وقد رجعت بنكبة
وبليت من عرب بكل سميدع
عصر التمدن أنت أم عصر الشقا
صيرت موج البحر ناراً والهوى
يا أمة بالبغي أغضبت الوري

(1) انظر: برقة العربية، ص333، 334.

(2) انظر: برقة العربية، ص341.

(3) انظر: برقة العربية، ص330.

ثانياً: تفاعل العالم الإسلامي:

أبلى الشعب الليبي بلاءً حسناً في جهاده ضد القوات الإيطالية الصليبية الغازية، وبدد أحلام القادة العسكريين السياسيين، الذين زعموا أن مدة الاحتلال لا تتجاوز خمسة عشر يوماً، وقد قدرها القائد السياسي الكبير البريطاني «كتشنر» بثلاثة أشهر، لقد طارت أخبار المعارك في بنغازي، وطرابلس، ودرنة، إلى العالم أجمع، ورأت حكومة الأتراك أن الشعب الليبي جدير بالمساعدة وجاد في جهاده وكفاحه ضد العدو، ولذلك قامت بإرسال مجموعة من القادة العسكريين، ليجسوا النبض، ويرسلوا التقارير، فوصلت بحوث ودراسات أنور باشا مع زملائه «بإيمانهم بأن هذا الشعب يعتمد عليه في الحروب، ورفعت التقارير إلى الأستانة، فأخذت الإمدادات ترد منها، وبدأت وفود المتطوعين من مصر والعالم الإسلامي ترى لمساعدة إخوانهم المسلمين في ليبيا، ووصلت البعثات الطبية من تركيا، ومصر، فقامت بدورها خير قيام، ومراسلين من الصحف الإسلامية والعالمية، وكان الأمير عمر طوسون في مصر، ووالدة الخديوي «أم المحسنين» وخلفهم مسلمو مصر قد وقفوا بما يملكون لدعم الشعب الليبي مادياً ومعنوياً، ووصل الأمير شكيب أرسلان على رأس بعثة طبية كان عدد جمالها التي تحمل الأثقال من المؤن والأدوية 650 جماً يصحبه خمسة أشخاص من أخص رجاله، قد تطوعوا للجهاد ببرقة وهم شلبي عبد الصمد، عجاج عبد الصمد، عباس عبد الخالق، شاهين عبد الخالق، يوسف أحمد فياض.

وقام أنور باشا باختيار مجموعات من الشباب الليبي وأرسلهم إلى إستانبول لتعليمهم النظم السياسية والعسكرية الجديدة، وقد أحسن بما صنع، ليشرفوا على قيادة الجيش الوطني الذي نهض في إعداده؛ وتدافع المجاهدون المسلمون من كل مكان إلى ميدان القتال عن طيب خاطر، وجاد المسلمون الخيرون بأموالهم، وأعز ما ملكت أيديهم، وفاضت قرائح الشعراء، وأقلام الكُتاب بما أوحته ضمائرهم، وقامت الصحف وفي طليعتها «المؤيد» الغراء بدورها وكانت حلقة الاتصال بين جهاد الليبيين والعالم الخارجي، وكانت المساعدات تأتي من العالم الإسلامي إلى مصر إلى اللجان المختصة والتي أشرف عليها علي يوسف، وعمر طوسون، ترسل إلى المجاهدين، وكانت والدة الخديوي «أم المحسنين» تنفق الأموال، والمؤن، والملابس، والأدوية، والقوافل المحملة للمجاهدين، وعندما قابلت الوفد الذي استلم هذه الأشياء قالت: «إنني لم أفعل شيئاً يذكر في جانب ما يقوم به أولئك المجاهدون في سبيل الله والوطن، وإنني قلقة لأنني لم أسمع منذ أيام خبراً عن ميدان القتال»⁽¹⁾ وكانت المساعدات تأتي من أهل الشام إلى بلاد مصر ثم تدخل إلى ليبيا، وكان الليبيون الذين هاجروا إلى مصر من

(1) انظر: برقة العربية، ص 348.

عشرات السنين قد وقفوا وقفة رجل واحد بالمال⁽¹⁾ والرجال، وكان أحمد الباسل من وجهاء مصر سنداً قوياً لحركة الجهاد في ليبيا، قد كتب للسيد السنوسي الأشهب رداً على رسالة وصلت إليه: «إني وما أملك تحت تصرفكم ولمساعدتكم، وإنكم قمتم بما يرفع شأن العروبة في جميع أنحاء الدنيا، وإنكم لن تغلبوا وفيكم الغازي العظيم سيد مجاهدي القرن الرابع عشر السيد أحمد الشريف، فقفوا موقف البطولة؛ لأن العالم يتطلع لأعمالكم ويرقبها على البعد...».

لقد كانت قبائل الفوائد، والجوازي في مصر نعم العون لحركة الجهاد في برقة.

وتفاعل العالم الإسلامي جله، فقد اجتمع أعيان ووجهاء وشباب مسلمي الجزيرة موريس الواقعة شرق مدغشقر، ورفعوا احتجاجهم إلى نظارة الخارجية البريطانية ضد الاعتداء الإيطالي على طرابلس الغرب «ليبيا» ونظموا مظاهرة عظيمة، ثم أرسلوا إلى رئيس اللجنة العليا بخمسة عشر ألف روية لمساعدة المجاهدين، وفي يوم 20 ذي الحجة سنة 1320هـ دعا جلالة ملك أفغانستان حبيب الله خان، جميع وجوه مملكته ورجال حكومته وأعيانها وتجارها، دعاهم لاجتماع عظيم وعرض عليهم القضية الطرابلسية وما يعانیه المسلمون في طرابلس الغرب من الظلم والعدوان ودعاهم إلى الإنفاق لجمع أموال لهم وفتح كتاب أسماه كتاب «إغاثة يتامى وشهداء ومجروحي مجاهدي طرابلس الغرب» وقال لهم: افتحوا كيس همتكم وبلوا قلوبكم بماء الشفقة الأخوية، أعينوا يتامى وأيامى أولئك المجاهدين الذين جادوا بأرواحهم لأجل حفظ وطنهم وشرف ملتهم، أعينوهم على الأقل بلفائف يشدون بها جروحهم، لا تنظروا إلى قلة ما تعطونه من المال وكثرته، أعطوا ما تتمكنون من إعطائه، واثبتوا أسماءكم في هذا الكتاب إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً» وقد تبرع سيادته بمبلغ عشرين ألف روية، وكان يقول وكله حماس: ألا ليتني قريب منهم أمدهم بالفعل لا بالقول، ألا ليتني طائر أطير لمساعدة إخواني المسلمين⁽²⁾، ومن بين المتبرعين مسلمو إندونيسيا، ومسلمو الهند، وحاكم قطر الشيخ قاسم محمد، فقد تبرع للمجاهدين بعشرين ألف روية، وأهل البحرين، وجاء إلى ميدان القتال كل من محمد حلمي، وعبد المعطي صالح ضابط مصري، عارف بك والي البصرة سابقاً، نشأت بك أحد كبار رجالات تركيا المشهورين، محمد طاهر أفندي مصري، وغيرهم كثير⁽³⁾.

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء كثيرة ساهمت في دعم حركة الجهاد من تونس، وتشاد، والنيجر، ومالي، والسودان، ومصر، والجزائر، والشام، وتركيا، وغيرها، ويمكن الرجوع إلى المقال الذي كتبه محمد الأسطى بعنوان: «صدى حركة الجهاد الليبي في العالم الإسلامي»

(1) نفس المصدر السابق، ص 348، وتجد تفصيلاً عن المساعدات.

(2) انظر: مجلة المنار، ج 12، ص 940 إلى 943 لمحمد رشيد.

(3) انظر: برقة العربية، ص 249.

وهو من منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي فيه معلومات جيدة عن أسماء من ساهم في الدعم الجهادي⁽¹⁾.

إن الذين كتبوا عن الجهاد وقالوا: إن الليبيين جاهدوا الإيطاليين وحدهم دون أن يتلقوا أية عون أو مساعدة، افتروا على الواقع الذي حدث وزيفوا الحقائق وهضموا حقوق إخوانهم، فهذا الجنرال الإيطالي غرسياني يعترف بذلك ويقول: إن مساعدة مصر للمجاهدين أجبرته على أن يأخذ الاحتياطات اللازمة في مراقبة الحدود الشرقية⁽²⁾.

ثالثاً: معاهدة أوشي وانسحاب الأتراك:

واجهت القوات الإيطالية في ليبيا مقاومة عنيفة، والتحم المجاهدون بالأتراك، وشكلوا قوة عسكرية ضاربة، وأدركت إيطاليا عجزها عن إتمام احتلال بقية الولاية، ولذلك قررت أن تهاجم الدولة العثمانية في مراكزها الضعيفة، وتوجهت لهذا السبب نحو الجزر الاثني عشر التي كانت تؤلف الولاية المعروفة باسم «مجموعة جزر بحر إيجه - الدردنيل»، ففي الثامن عشر من جمادى الأولى سنة 1330هـ الموافق 4 مايو سنة 1912م، قامت أساطيل إيطاليا باحتلال الجزر، ثم قامت بتهديد مدخل الدردنيل، وقصفت ميناء بيروت على ساحل الشام، وكأنها بذلك تدعو إلى توسيع رقعة الحرب، وهذا ما أثار الدول الأوروبية خاصة بريطانيا العظمى صاحبة الإشراف المباشر على الحركة البحرية المتوجهة إلى البحر الأسود وقناة السويس⁽³⁾.

وقد أقامت إيطاليا إدارة لهذه الجزر، وأصدرت بها طوابع بريد إيطالية، واستبدلت بالبحارة الذين قاموا بعملية الاحتلال حاميات إيطالية من الجنود وحملة البنادق الصغيرة، كما استبدلت الأعلام العثمانية أعلاماً إيطالية، حينذاك سارعت الحكومة العثمانية إلى إجراء بعض التحصينات لسواحل آسيا الصغرى خوفاً من هجوم إيطالي جديد على تلك السواحل⁽⁴⁾.

في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة العثمانية استقالت وزارة الاتحاديين في أواخر شهر رجب 1330هـ، المصادف لشهر يوليو 1912م لتتولى الحكم وزارة أطلق عليها اسم «الوزارة الكبرى» وقد ألفها أحمد مختار باشا الغازي⁽⁵⁾، وقد استلمت هذه الوزارة الحكم في وقت كانت الحالة السياسية في الدولة العثمانية قد بلغت من الحرج حداً لا يمكن لهذه الوزارة أن تخرج منه دون تضحية كبيرة عليها، وهو ما تحقق في معاهدة الصلح مع إيطاليا، بعد ذلك ببضعة أشهر حاولت الوزارة الاتحادية التي كان يرأسها سعيد باشا أن تفتح أبواب المفاوضات

(1) انظر: الشهيد، العدد الخامس، 1984م، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ص 103.

(2 - 3) انظر: حروب البلقان، ص 80.

(4 - 5) انظر: حروب البلقان، ص 81.

مع إيطاليا عن طريق بعض الدول الأوروبية، وقد لعب بعض رجال الأعمال اليهود المؤيدين لجمعية الاتحاد والترقي دوراً بارزاً في بدء هذه المفاوضات⁽¹⁾، وكانت محاولات الصلح تجري في طي الكتمان، بينما تعلن الحكومة شديد تمسكها بوحدة الدولة العثمانية، وعدم التفريط في ولاية طرابلس وبنغازي.

ولقد بين وزير خارجية بريطانيا لسفير دولته في الأستانة مدى معارضة الحكومة الإيطالية للمقترحات التي طرحها وزير الخارجية العثماني في حكومة الاتحاديين، واقترح الوزير البريطاني بدوره مشروع سلام، يحول دون إراقة ماء الوجه للسياسة التركية كما قال، ويتلخص مشروعه هذا في أن تعترف الدولة العثمانية بسيادة إيطاليا على الأمور المدنية مقابل اعتراف إيطاليا بالسيادة الروحية للسultan، والسماح للمسلمين بممارسة عباداتهم الدينية بحرية تامة، والبقاء على قوانينهم وعاداتهم، وعلى أن تدفع إيطاليا مبالغ سنوية عن طريق شيخ الإسلام اعترافاً بالخلافة الروحية⁽²⁾.

وقد حاولت كل من حكومة النمسا - المجر، والحكومة الفرنسية، أن تقوما بدور الوساطة لإيقاف الحرب بين كل من الدولة العثمانية وإيطاليا، غير أن مساعيهما لم تلق نجاحاً يذكر في كلتا الدولتين⁽³⁾، وأمام الأزمات الخائفة التي تمر بها الدولة العثمانية رأت حكومة مختار باشا الغازي أن تصل بالمفاوضات مع إيطاليا إلى نتيجة حاسمة، فأوفدت وزير الزراعة العثماني وزودته بصلاحيات واسعة، وقد وصل المسؤول العثماني إلى لوزان في 16 شوال سنة 1330هـ، الموافق 27 سبتمبر 1912م، ومع وصوله أخذت المباحثات تدخل في دور حاسم ويتفق الطرفان على الخطوط العريضة لتوقيع الصلح بينهما⁽⁴⁾.

كانت العقبة التي لا تلتقي فيها آراء الطرفين المتفاوضين هي الاعتراف العثماني بإلحاق طرابلس بإيطاليا، وانتقال جزر الدوديكانيز إلى إيطاليا، فالعثمانيون لا يستطيعون الإعلان صراحة عن إلحاق طرابلس بإيطاليا؛ لأن ذلك يؤثر على مكانتهم في العالم الإسلامي والعربي، أما جزر الدوديكانيز فكانت أمراً عسيراً، إلا أن نذر الحرب في البلقان جعل الدولة العثمانية تعقد هدنة للحرب الدائرة في طرابلس⁽⁵⁾ وتتبعها بعقد معاهدة الصلح المعروفة بمعاهدة لوزان - أو شي مع إيطاليا والتي منحت الدولة بموجبها الاستقلال لولايتي طرابلس وبنغازي، ومن ثم أبدت استعدادها لسحب قواتها من هناك.

(1) جريدة المقطم عدد 6975 في 19 ربيع الأول عام 1330هـ.

(2) انظر: حروب البلقان، ص82.

(3) انظر: حروب البلقان، ص82.

(4) انظر: جهاد طرابلس الغرب، ص98، 99.

(5) انظر: جريدة المقتبس، عدد 1014، 5 ذو القعدة 1330هـ.

لقد تم توقيع معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية، والحكومة الإيطالية في 8 ذي القعدة 1330هـ الموافق 18 أكتوبر 1912م، وحررت مواده الإحدى عشرة في لوزان - سويسرا ووقعه عن الدولة العثمانية كل من: محمد نابي بك، ورومبيوغلو فخر الدين، وعن الحكومة الإيطالية كل من: لبترو بروتوليني، وقويدو فوزيناتو، وجوسيبي فولبي⁽¹⁾.

ومن المفيد هنا أن نشير بصورة موجزة إلى مضمون مواد المعاهدة كما وردت في النسخة الأصلية المحفوظة في الأرشيف العثماني في إستانبول تحت رقم 335:

المادة الأولى: تعهدت الحكومتان فيها بإيقاف حالة الحرب بينهما وإرسال مفوضين من الجانبين لتنفيذ ذلك حال توقيع هذه المعاهدة.

المادة الثانية: تعهدت الحكومتان بإصدار أمر بسحب القوات الحربية والضباط من جبهات القتال، فالدولة العثمانية تسحب قواتها من طرابلس وبرقة، والحكومة الإيطالية تسحب قواتها من الجزر التي احتلتها في بحر إيجه.

المادة الثالثة: يتم تبادل أسرى الحرب بين الدولتين في أسرع وقت ممكن.

المادة الرابعة: تتعهد الحكومتان بمنح عفو شامل لكل من ساهم بأعمال عدائية أو حامت حوله الشبهات أثناء الحرب لصالح أي من الدولتين.

المادة الخامسة: التزام الحكومتين بجميع المعاهدات والاتفاقات التي كانت بينهما قبل الحرب، والعودة بعلاقاتهما إلى وضعها السابق.

المادة السادسة: تلتزم حكومة إيطاليا بما تفرضه الدولة العثمانية من زيادة في الجمارك، وما تقيمه من امتيازات في إطار القانون التجاري الذي تلتزم به جميع الدول الأوروبية تجاه الدولة العثمانية.

المادة السابعة: تتعهد الحكومة الإيطالية بإلغاء مكاتب البريد الإيطالية في الدولة العثمانية، إذا علمت الدول الأوروبية ذلك.

المادة الثامنة: تؤيد الحكومة الإيطالية الدولة العثمانية في مطالبها إلغاء نظام الامتيازات واستبداله بنظام القانون الدولي.

المادة التاسعة: استعداد الدولة العثمانية بإعادة الموظفين الإيطاليين الذين يعملون في الدولة، وفصلوا من عملهم أثناء الحرب، على أن تدفع لهم رواتب الفترة التي أوقفوا فيها عن العمل.

المادة العاشرة: تتعهد الحكومة الإيطالية بدفع قسط سنوي للدولة العثمانية، يعادل المبلغ

(1) انظر: حرب البلقان، ص 86.

المستوجب عن إيرادات الولايتين - طرابلس الغرب وبنغازي - لكل سنة من السنوات الثلاثة التي سبقت الحرب، والذي لا يقل عن ٢ مليون ليرة إيطالية لكل سنة.

المادة الحادية عشرة: تدخل هذه المعاهدة حيز التنفيذ وسريان المفعول في نفس يوم توقيعها، وإثباتاً لذلك وقع المفوضون ذوو الصلاحية المطلقة هذه الاتفاقية، وختموها بأختامهم^(١).

وقد ألحقت بالمعاهدة الرسمية المشار إليها بعاليه أربعة ملاحق اعتبرها الموقعون على المعاهدة جزءاً مكماً لها، وأهم هذه الملاحق هو المنشور الموقع من السلطان العثماني والذي تم بموجبه منح الاستقلال الإداري التام لولايتي طرابلس وبنغازي^(٢)، على أن تدار بقوانين جديدة من قبل الأهالي الذين يجب أن يساهموا بتقديم الوصايا والإرشادات، وأنه سيعين نائباً للسلطان لمدة خمس سنوات للمحافظة على المنافع العثمانية، كما يعين قاضي للولايتين من قبل السلطان ليقوم بتنفيذ أحكام الشرع الشريف على أن يعين هذا القاضي بدوره من العلماء المحليين نواباً شرعيين له وفقاً للأحكام الشرعية، وتدفع الدولة العثمانية راتب القاضي من خزينتها، أما رواتب نائب السلطان والموظفين الشرعيين غير القاضي فتصرف رواتبهم من مداخيل الولاية المحلية^(٣).

كما أن الملحق الثاني لا يقل عن الملحق الأول أهمية؛ لأنه عبارة عن منشور من ملك إيطاليا على غرار منشور السلطان العثماني، إلا أنه يؤكد فيه خضوع ولايتي طرابلس وبنغازي لإيطاليا، وفيه منح ملك إيطاليا العفو العام لمن ساهم في الحرب إلى جانب جيوش الدولة العثمانية من أهل الولايتين، وترك لهم الحرية بإقامة شعائرهم الدينية، وذكر اسم السلطان العثماني في خطبة الصلوات باعتباره خليفة المسلمين، وذكر أن هناك لجنة سيتم تشكيلها تضم في عضويتها بعض الأهالي تقوم بوضع الأنظمة المدنية والإدارية على النمط الإيطالي^(٤).

إن موافقة الدولة العثمانية على عقد معاهدة الصلح مع إيطاليا على تلك الصورة السالفة الذكر دليل قاطع على أن الدولة العثمانية كانت تعيش أسوأ مراحل تاريخها، وأن الأزمات العنيفة كانت تهدد كيانها^(٥) وهو ما عبر عنه السفير البريطاني في الأستانة الذي اعتبر شروط الصلح التي تم التوصل إليها بين الدولة العثمانية وإيطاليا من «أفضل ما يمكن أن تحصل عليه الحكومة

(1) انظر: حرب البلقان، ص 87.

(2) انظر: الطريق إلى لوزان، محمد الوافي، ص 213، 214.

(3) انظر: حروب البلقان، ص 89.

(4) انظر: ميلاد دولة ليبيا، محمد فؤاد، ص 435، 436.

(5) انظر: حروب البلقان، ص 89.

العثمانية في ظل الظروف القائمة»⁽¹⁾ وصدر الأمر من الأستانة إلى القائد العام التركي أنور بك بأن يغادر برقة، فوقع هذا النبأ على نفس أنور وقوع الصاعقة وتوجه إلى الجغبوب لمقابلة أحمد الشريف السنوسي والتفاهم معه .

كان موقف أحمد الشريف واضحاً قبل توقيع الصلح بين إيطاليا وتركيا، فقد بعث إلى أنور باشا في درنة كتاباً يذكر فيه ما وصله من أن الدولة تعترم إعطاء ليبيا إلى إيطاليا، فقد جاء في رسالته: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه»⁽²⁾ إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو، وزيادة على ذلك فقد حذره مما سوف يحدثه قبول الصلح في نفوس المسلمين في جميع الأقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية، وحمل الكتاب أربعون شخصاً من كبار السنوسية المجاهدين إلى القائد العثماني⁽³⁾.

استقبل أحمد الشريف أنور بك بسيارته، وكانت هذه أول سيارة تدخل صحراء برقة، وقوبل بحفاوة بالغة، وأقام في ضيافة السيد أحمد ثلاثة أيام، وأبلغ أنور مضيفه أوامر السلطان وأدلى إليه بتوجيهاته «إسناد أمر الأمة الطرابلسية إلى سيادته وإخباره بأن السلطان قد منح الأمة الطرابلسية استقلالها تاركاً لها الحق في أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها»⁽⁴⁾.

وفي هذا اللقاء تم التصديق بين الرجلين على تأسيس الحكومة السنوسية لتسد الفراغ الذي ترتب على انسحاب تركيا من ولاية طرابلس وملحقاتها⁽⁵⁾ ولم يطلب أحمد الشريف من أنور بك غير شيء واحد وهو مساعدته بالأسلحة والعتاد الحربي⁽⁶⁾ ولم يكن المجاهدون في برقة وحدهم الذين قرروا المضي في القتال ورفض الصلح مع إيطاليا على أساس غير الجلاء من بلادهم، فقد أرسل سليمان الباروني برقية إلى مجلس النواب العثماني يعارض فيها باسمه وباسم المجاهدين عقد أي صلح مع إيطاليا لا يكفل انسحابها الكلي من أراضي ليبيا العزيزة⁽⁷⁾.

انسحب أنور باشا إلى بلاده واستطاع أن يحقق انتصارات للحكومة التركية، وللأسف الشديد استطاعت الصهيونية العالمية والمحافل الماسونية أن تستخدم هذا الرجل في إفساد الخلافة، وإسقاط الخليفة السلطان عبد الحميد الثاني، ولم ينتبه أنه ألعوبة في يد أعداء الإسلام

(1) انظر: الحملة الإيطالية على ليبيا، محمود حسن، ص166.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص142.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) المصدر السابق نفسه، ص146.

(5) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص42.

(6) المصدر السابق نفسه، ص41، 42.

(7) انظر: السنوسية دين ودولة، ص142.

إلا بعد أن سبق السيف العذل، وقد مدح صاحب كتاب «الفوائد الجليلة»، وصاحب كتاب «برقة العربية» أنور باشا كثيراً.

لقد اعترف أنور باشا بأنه استغل من قبل أعداء دينه، وأمه وشعبه ووطنه، ولم يكن يدري لقد قال بعد فوات الأوان: إن مصيبتنا أننا قمنا بالانقلاب ونحن آله في يد الصهيونية ولم نكن ندري؛ كنا أغبياء⁽¹⁾.

إنها لعبرة للضباط والزعماء الذين يريدون خدمة شعوبهم الإسلامية أن يعرفوا أين يضعوا أقدامهم؟ وبمن يثقون؟ وكيف يتصرفون؟ حتى لا يندموا حين لا يندفع الندم.

رابعاً: نزول أحمد الشريف إلى ساحات الوغى:

جمع أنور باشا بعد رجوعه إلى الجغبوب الضباط العثمانيين وأبلغهم حقيقة الأمر وسرهم بأن السيد أحمد سيحل بينهم في القريب العاجل، ثم غادر أنور درنة متوجهاً بسيارته إلى السلم، ومنها إلى الإسكندرية متكرراً ووصل إلى الأستانة للمشاركة في حرب البلقان⁽²⁾.

توجه عزيز المصري الذي تم تعيينه قائداً للجيش أخيراً إلى الجغبوب لاستصدار ما يلزم من صاحب القيادة الشرعية، فأكرم أحمد الشريف وفادته وأمره بالرجوع فوراً إلى الميدان الجهادي، وكتب إلى رؤساء الزوايا وشيوخ القبائل وضباط الجيش يأمرهم بامثال أوامر وكيله القائد الجديد عزيز المصري، وترك أحمد الشريف الجغبوب متجهاً نحو مدينة درنة، ووصل إلى موضع يدعى «الظهر الأحمر» يقع جنوبها، فاستقبل استقبالاً عظيماً، وبعد استقباله للشيوخ والزعماء طلب منهم أن يعودوا إلى معسكراتهم ثم أصبح بين المجاهدين، وبذل كل جهوده لتنظيم حركة الجهاد أثر الانسحاب العثماني، وكتب منشوراً إلى مشايخ الزوايا والقبائل يعلن فيه استمرارية ومواصلة الجهاد، وطلب من كل مسلم من سن الرابعة عشر حتى الخامسة والستين أن يذهب إلى ميدان الجهاد مزوداً بمؤنثه وسلاحه⁽³⁾ وقام بتفقد المعسكرات، وأبدى نصائحه وآراءه حول الاستعداد لمواصلة الجهاد بدون الأتراك وأصدر أوامره التنظيمية للمعسكرات والمجاهدين.

عزم الإيطاليون على سحق قوات أحمد الشريف، فدبروا تنظيم حملة قوية قوامها خمسة آلاف جندي مسلح تسليحاً حديثاً لضرب معسكري المجاهدين في سيدي عزيز، وسيدي القرباع على ضفتي وادي درنة، وفي اليوم السادس عشر من مايو 1913م أي في نفس اليوم الذي وصل

(1) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، لمحمد حرب، ص 6.

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 42.

(3) انظر: صفحات مجهولة من تاريخ ليبيا، جامعة الكويت، الحولية الأولى، محمد عيسى صالحية، ص 7.

فيه أحمد الشريف إلى منطقة الظهر الأحمر جرت معركة مهولة عرفت باسم سيدي القرباع، واشتهرت باسم «يوم الجمعة» وقد تمكن المجاهدون بفضل الله من تحقيق الانتصار الحاسم في تلك المعركة، وقد أصيب الكثير من ضباط القوات الإيطالية بالجنون، وجيء على تلك القوة بأجمعها فكسي أديم الأرض بأشلاء الموتى والجرحى والعتاد المبعثر هنا وهناك، وكانت أول معركة يخوضها أحمد الشريف⁽¹⁾ وكان لهذا الانتصار العظيم أثره في جذب الناس إلى حركة الجهاد وانتسابهم للأدوار⁽²⁾.

خامساً: الجولة التفتيشية في الجبل الأخضر:

وبعد أن اجتمع برؤساء الزوايا وشيوخ القبائل شرع أحمد الشريف في جولات تفتيشية ابتدأت من العزيات وانتهت بجداية، فمر بجميع معسكرات الجبل الأخضر، وفتشها واطلع على سير الأمور فيها، ورتب أمور الضباط، ونظم المجالس الاستشارية بالمعسكرات، ووقعت معارك بين الطليان والمجاهدين أثناء مروره بدواخل البلاد، فاشترك في الكثير منها، وقد لقي في هذه الجولة من الأتعاب والمشاق والسهر، وقد أمضه الجوع، وأضناه العطش في كثير من الأيام، وكان لا يبالي بما يلاقيه ولا ينظر إلى التعب إلا بعين الأزدراء ما دام ينظر إلى ما عند الله من الثواب والجزاء، وقد وصفه الكثير من رفاقه بأنه في تلك الحالة كان باسم الثغر، مبهج خاطر، مرتاح الضمير، ساطع المحيا، صبيح المنظر، لا يركن للراحة، ولا يفكر في رغد العيش⁽³⁾.

يقول شكيب أرسلان عن أحمد الشريف: «... اشتهر أثناء الحرب الطرابلسية وقام فيها المقام المحمود الذي لم يقمه أحد، ولولاه لم يكن لأنور، ولا غيره من أبطال الدفاع عن بر طرابلس أن يعملوا شيئاً...»⁽⁴⁾.

«... وقد لاحظت منه صبراً قل أن يوجد في غيره من الرجال وعزماً شديداً تلوح سيماؤه على وجهه، وقد بلغني أنه كان في حرب طرابلس يشهد كثيراً من الوقائع بنفسه ولا يقتدي بالأمرء، وقواد الجيوش الذين يتأخرون عن ميدان الحرب مسافة كافية أن لا تصل إليهم يد العدو فيما لو وقعت هزيمة، وفي إحدى المرات أوشك أن يقع في أيدي الطليان، وشاع أنهم أخذوه أسيراً، وقد سألته عن تلك الواقعة فحكى لي خبرها بتفاصيله، وهو أنه كان ببرقة فبلغ

(1) انظر: الفوائد الجليلة، 26/2.

(2) المصدر السابق نفسه، 30/2، 31.

(3) انظر: برقة العربية، ص270.

(4) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 144/2.

الطلليان بواسطة الجواسيس أن السيد في قلة من المجاهدين، وغير بعيد عن جيش الطليان، فسرحوا إليه قوة عدة آلاف ومعها سيارة كهربائية، إذ كان اعتقادهم أنه لا يفلت من أيديهم تلك المرة، فبلغه خبر زحفهم، وكان يمكنه أن يخيم عن اللقاء أو أن يتحرف بنفسه إلى جهة يكون فيها بمنجاة من الخطر، أو يترك الحرب للمجاهدين فلم يفعل. وقال لي: «خفت أنني إن طلبت النجاة بنفسي، أصاب المجاهدين الوهن، فدارت عليهم الدائرة، فثبت للطلليان - وهم بضعة آلاف - بثلاثمائة مقاتل واستمات العرب، وصدمووا العدو، فلما رأى هؤلاء وفرة من وقع من القتلى والجرحى، ارتدوا على أعقابهم، وخلصنا نحن إلى جهة وافتنا فيها جموع المجاهدين» وقال لي: «وفي هذه الواقعة جرح الضابط نجيب الحوراني، الذي كان من أشجع أبطال الحرب الطرابلسية، كان قائداً شجاعاً، ولكنه كان يغامر بنفسه في كل وقعة، فجرح مرتين واستشهد في الثالثة ﷺ»⁽¹⁾ لقد كان في جولاته يشارك الناس في شرايبهم وأكلهم، ويصلي معهم، ويجاهد بنفسه بينهم، فقد كان قمة في الصبر والحلم والتواضع والبساطة، والشجاعة، والإقدام، ولا يعرف الخوف إلا من الله وحده سبحانه وتعالى، فقد قوى الله به عزم المجاهدين، وشحذ به همهم، ووحد به صفهم وكلمتهم في برقة كلها، ومن الأشعار التي قيلت بمناسبة نزوله إلى ساحات النزال ما قاله حمزة الفقي الجهيني من قصيدة طويلة:

يا ليث «جغوب» أتيت برقة
والأم ثكلى والدموع هوامي
والأسد في كنف الهلال يظلمها
يا ابن البواسل والجروح دوامي
قد عودت أن لا تضام فخاطرت
والعرب لا ترضى سوى الإقدام
والخيل تصهل والوجوه عوابس
والطير غرثى والسيوف ضوامي
قل للصوص تشتتوا فأنا الذي
أحمي الذمار بهمتي وحسامي⁽²⁾
وقد قال أيضاً في قصيدة أخرى:

ولي نفس إذا ما رمت أمراً
تحمل جسمها يا قوم ما لا
فقالوا: ما وهبت؟ فقلت روحي
وقالوا: ما بذلت؟ فقلت ما لا
ولي قلب «ببرقة» مشتهاه
يميل مع «السنوسي» حيث ما لا
ولي الله مقدام تقني
إذا ما جئته شمت الجلالا⁽³⁾

وقد وصف الشاعر الليبي الأستاذ حسين بن محمد الحلافي أعمال أحمد الشريف في الجهاد في قصيدة عصماء قال فيها:

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 160/2، 161.

(2 - 3) انظر: برقة العربية، ص 342.

فتاريخ السنوسي الدهر باق
غداة احتل جيش الظلم «ليبيا»
فصير بحرهما الأسطول ناراً
وزلزل أرضها بدوي تنك
فعاف العيش في ترف وعز
ببيت أبدع الصناعات فيه
ينعم فيه بين أخ وابن
وغادر «تاجه» وسعى إليها
أجيبوا داعي الله استعدوا
دعى فأجابه جم غفير
فضل حياته يسعى ويدعو
فكم ليل تطاول لم ينمه
وكم يوم طواه بغير زاد
بمعمة يشيب الطفل منها
فلم تنظر إذا حققت إلا
قنابلها تدك الأرض دكاً
فاخض الأرض أموات وجرحى
وكم يوم «ببرقة» مثل هذا

على رغم الخطوب المبليات
بنسافاته ومدمرات
وأحرق برها بمفرقات
وأزعج جوها بالطائرات
بعيد عن ضروب المهلكات
تحوط به الحدائق باسقات
وبين أفاضل كالنيرات
ونادى معلناً بين الكلمات⁽¹⁾
بني قومي إلى حرب الطغاة
وهل حرب تكون بلا دعاة
لتوحيد الشعوب على العداة
ولم يعمل به غير الصلاة
قضاه على ظهور الصافنات
يضيق لهولها صدر الفلاة
«مدافع» كالصواعق داويات
وتقتلع الجبال الشاهقات
ووارى الشمس تصنع العاديات
تسطره تواريخ الثقاة⁽²⁾

لقد طاف أحمد الشريف بين المدن والقبائل يحض الناس على الجهاد وحمل السلاح ضد الغزاة، وحضر بنفسه في المعارك، ونبه المجاهدين إلى ضرورة اعتماد حرب العصابات القائمة على الكر والفر، وأكد لهم صعوبة اعتماد الخطط السابقة التي كان الأتراك يعتمدونها خلال المراحل الأولى⁽³⁾.

سادساً: مجلس شوري أحمد الشريف:

انتخب أحمد الشريف - رحمه الله تعالى - بعض أعيان الحركة السنوسية ممن اشتهروا بنفاذ الرأي، وجودة العقل، وحسن الخلق، وقوة التدين، والمكانة العالية بين الناس، لرفقته

(1) التاج: اسم زاوية الكفرة.

(2) انظر: برقة العربية، ص 271.

(3) انظر: تاريخ ليبيا المعاصر، ص 91.

وليكونوا معه في رحلاته لاستشارتهم في الأمور الهامة وكان منهم كل من الشيوخ الآتية أسماؤهم: محمد علي بن عبد المولى، ومحمد الدرقي، ومحمد بن عمور، وأحمد بن إدريس الأشهب، ومرضى فركاش⁽¹⁾.

مساعي إيطاليا لإغراء أحمد الشريف:

أراد عزيز المصري أن يضعف الصف الجهادي ضد إيطاليا، فسولت له نفسه أن يذهب إلى أحمد الشريف ويصور له استحالة المقاومة وضررها، ونفاد الميرة والذخيرة والأموال، واقترح عليه الصلح مع إيطاليا، وسوف تدفع له لندن، وروما، وباريس مبلغاً يليق بمقامه وشرفه، وكرامته، وأن تكف فرنسا عن محاربهته في الصحراء والسودان، وكان عزيز المصري طلب من أحمد الشريف أن يتنازل عن قطعة الأرض الواقعة بين «بومبا» والجغبوب وبين الحدود المصرية، وترك برقة للطلينان، فقال له أحمد الشريف: اسمع يا ولدي إني كنت أقبل عن طيب خاطر التنازل عن القطعة المذكورة وضمها إلى مصر لو كانت حكومة إسلامية حرة أتركها وأنتقل أنا ورجالي إلى الغرب لمحاربة الطليان على بقية برقة حتى أزيل ظلهم الثقيل عنها دفاعاً عن بقية الإسلام، أما ومصر في قبضة إنكلترا فلا معنى لهذا العمل وإني سأقاوم حتى النهاية⁽²⁾.

ولقد اطلع المؤرخ محمد الطيب الأشهب على وثيقة تاريخية موقعة من أحمد الشريف بعث بها إلى أنور باشا الذي أصبح وزير الحربية التركية بتاريخ 29 صفر 1335هـ عند إبراهيم بن أحمد الشريف، وكان فيها: «أتى الطليان للوطن وراسلني وأرسل إليّ الأموال الهائلة فرجعتها كلها تعففاً وطلباً لرضاء الله ورسوله وقيمت بمعاوضة الدولة العلية والله الحمد، وأمرت كافة أهل الوطن وقيمت بجهدني ثم بعد ذلك قدمت بنفسي للجهاد»⁽³⁾.

حاولت إيطاليا أن تضغط على أحمد الشريف بواسطة الخديوي عباس باشا بعد أن فشلت جميع وفودها التي كانت تتوافد على المجاهد أحمد الشريف وتعرض عليه أن تضمن له إمارة هو أميرها، تحت حمايتها أو انتدابها وتكون له منطقة نفوذ تحت سلطانه، وتحفظ هي بالموانئ والثغور الساحلية فضرب بقولها عرض الحائط وقال: «إني أقسم أمام جميع المجاهدين على هذا المصحف والبخاري إني لن أنفك أذود عن حياض الإسلام ومجاهدة أعدائه إلى النفس الأخير ما دام معي نفر واحد من المجاهدين، وإذا خانني الجميع وسلموا للعدو أهاجر إلى المدينة لأعيش بجوار جدي الأعلى شاكياً إلى الله من خيانة الخونة مستنزلاً لعنته عليهم إلى يوم الدين»⁽⁴⁾.

(1) انظر: الفوائد الجلية 2/ 29 إلى 35.

(2 - 4) انظر: برقة العربية، ص 305.

وقال: «إنني لا أتفاوض مع إيطاليا في بلادي، ولا أتفق معها على تنازلي عن شبر واحد من البلاد، ولا أحميد عن أحد أمرين إما تحرير الوطن، وإما الموت في سبيل ذلك»⁽¹⁾.

وقال: «إنني أعاهد الله على أن لا أتساهل مع إيطاليا في حق من حقوق أهل البلاد، ولا أتنازل عن مقدار حافر حصاني»⁽²⁾. وكان جوابه للوفد الذي أرسله الخديوي عباس وكان يتكون من أنجال محمد عبد المتعال الإدريسي، كل من السنوسي ومصطفى، وعبد الحميد بك شديد، بأن شروطه للاتفاق مع إيطاليا هي أن تجلو عن البلاد وليس هناك من سبيل غير هذا السبيل للفاهم⁽³⁾.

سابعاً: خيانة عزيز المصري للمجاهدين:

عزيز مصري رجل عصبي المزاج حاد الطبع كثير المطامع حقوق، جاء إلى برقة من اليمن، وكان أول عمله في درنة أن خطب العرب فقال: «أيها الناس إن كتم مسلمين حقيقة ولديكم ذرة من الشهامة والشرف، فحاربوا العدو إلى آخر قطرة من دمائكم» فتكدر العرب منه وقالوا: «ما له يشك في ديننا وشهامتنا ألم يرنا نهزأ بالموت ونذود عن بيضة الإسلام من قبله، وما نحن نبلي في الطليان خير بلاء رغم نيران مدافعهم المتهاطلة كوابل المطر»⁽⁴⁾. وأراد أنور باشا أن يترك درنة ويذهب إلى بنغازي، فرفض الشيوخ والزعماء ذلك، وطلبوا منه أن يبقى ويرسل عزيز المصري أمين شاء، وأبوا الخضوع لعزيز المصري، فأرسل أنور عزيزاً إلى بنغازي، وبدأ عزيز منذ وصوله إلى بنغازي بالهجوم على أنور خصوصاً، والأتراك عموماً⁽⁵⁾، وكان المجاهدون بادية الأمر لا يحصون عليه خطواته، ولا يتعقبونه في حركاته لظنهم به خيراً، وعندما وصلت أخبار مطاعته إلى أنور قال: إننا في مصلحة عامة تذيب الأضغان الشخصية فليستمر في دفاعه عن البلاد، ولو أصبح رئيسها لكننت عن طيب خاطر من أتباعه ما دام ذلك في مصلحة الإسلام وأهله⁽⁶⁾.

بعد سفر أنور باشا تولى القيادة العامة عزيز المصري واستطاع العميل الإيطالي حسن حمادة أن يقتنع عزيز المصري بالتفاوض والتعامل مع إيطاليا سراً مقابل حطام من الدنيا زائل، وعمل عزيز المصري على خدمة المصالح الإيطالية، وقبل جميع شروطهم، وانكشف أمره للمجاهدين، فأحرق الأوراق الخاصة بالمجاهدين والأدوات الطبية وجعلها طعمة للنار، ومنع تسليم الأسلحة للمجاهدين وقرر ترك ليبيا وقطع الأسلاك البرقية، والتلفون، حتى لا يجد

(1 - 3) انظر: برقة العربية، ص 306.

(4 - 5) انظر: برقة العربية، ص 273.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 274.

المجاهدون وسيلة للمخاطبة وجردهم من وسائل الدفاع، وأخذ سلاح المجاهدين وجعله في أماكن مطمورة وأوعز إلى الإيطاليين إلى محلها، فدمروها بقنابلهم وغادر درنة ولما وصل طبرق اشتبك مع المجاهدين، وقتل منهم خمسة، وجرح أكثر من ثمانية عشر، وأخذ أسلاب الموتى وحرق ستة من الأسرى المجاهدين، وذبح اثنين منهم كالأغنام، وفي طريقه إلى السلوم التقى بالمآظ أفندي يحمل مساعدات للمجاهدين، وكان المبلغ الذي معه تسعة آلاف جنيه، فأخذها منه، وباح بجميع الأسرار الحربية لأعداء الإسلام⁽¹⁾.

وكان عزيز المصري قد واعد أحمد الشريف بتسليم السلاح والذخائر للمجاهدين قبل رحيله، إلا أنه رفض وتذرع بأنه لا يركن إلى القبائل البدوية ويخشى أن تهاجمه وقواته عزلاء من سلاحها، لقد أثبتت الوثائق البريطانية التي نشرت مؤخراً صلات عزيز المصري بالمخابرات الإنجليزية⁽²⁾ والإيطالية، ولقد قام بحرق الأسلحة التي معه عندما صعد ظهر الباخرة الألمانية التي كانت في انتظاره هناك، ولم يكتف بذلك، فقد أشاع لدى وصوله إستانبول بأن السيد أحمد الشريف قد خان وتكر للسلطان العثماني ومساعداته، مما جعل أحمد الشريف يوفد سفيره عبد العزيز العيساوي إلى إستانبول ليوضح الحقيقة للمسؤولين العثمانيين الذين يعرفون صدق أحمد الشريف⁽³⁾.

ثامناً: استمرار العمليات الجهادية:

ورغم كل الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد عام 1913م إلا أنها شهدت عدداً من المعارك ضد الإيطاليين في معظم جهات برقة، ومن أشهر تلك المعارك: معركة شتوان بينغازي 10 مارس، معركة قاريونس يوم 26 مارس، معركة بينيه يوم 14 أبريل، معركة الرجمة يوم 22 أبريل، معركة الأبيار يوم 26 أبريل، معركة البويرات يوم 18 يوليو بالجبل الأخضر، معركة زاوية ترث يوم 24 مايو غرب القبة بالجبل الأخضر، معركة الصفصاف أول يونيه قرب سيدي حميدة، معركة 15 يوليه شمال الأبيار، معركة تاكنسي يوم 16 سبتمبر بالجبل الأخضر، معركة سيدي رافع يوم 27 سبتمبر بالبيضاء، معركة المرج 19 أغسطس⁽⁴⁾.

ومع بداية عام 1914م أحاطت بالمجاهدين صعوبات شديدة منها: انقطاع الموارد عنهم من أسلحة وذخائر ومؤن، واستدعاء تركيا لبقية قواتها العاملة في برقة بكامل معداتها، وبقيت

(1) انظر: برقة العربية، ص 279.

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 45.

(3) المصدر السابق نفسه، ص 46.

(4) انظر: الحركة الوطنية في ليبيا، ص 46.

البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة للهجوم⁽¹⁾ واستجاب خديو عباس لضغوط وترغيب إيطاليا، وحاول شكيب أرسلان أن يقنع خديو عباس بدعم المجاهدين، وكان الخديو قد غير موقفه من المجاهدين وخصوصاً بعد الصلح الذي تم بين تركيا وإيطاليا، يقول شكيب أرسلان في رسالة بعثها إلى فضيلة الشيخ محمد الأخضر العيساوي من جنيف في 18 سبتمبر 1916م يشرح فيها ما وقع له عندما قابل الخديو في أثناء سفره من طرابلس ومروره بمصر في طريقه إلى الأستانة للبحث في مصير طرابلس الغرب مع الوزارة العثمانية الجديدة: «وعندما جئت من طرابلس إلى مصر في شهر أغسطس 1912م وذهبت من مصر إلى الأستانة مسرعاً كان السبب في ذلك أنني علمت بأن الدولة قررت الصلح مع إيطاليا فخفت أن تهمل طرابلس تماماً، فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفية عن يد الأمير عمر طوسون وغيره حتى يستمر الجهاد، ولا تذهب طرابلس، ولما وصلت إلى السلوم قال رجال الحكومة المصرية هناك إن سمو الخديوي أرسل يسأل عني...»⁽²⁾. ويتحدث الأمير شكيب كيف كانت مقابلة الخديوي له، وكيف سأله عن كل شيء ما عدا الجهاد في ليبيا، وينقل لنا الحوار الذي تم على مائدة الإفطار، وكان بجانب الخديوي حسين باشا رشدي ثم قاضي مصر - وكان تركيا - والشيخ علي يوسف، فقال الشيخ علي يوسف: إن الدول قررت عدم إقراض مال لتركيا إذا كانت لا تزال ترفض الصلح مع إيطاليا، فقال شكيب أرسلان: إن تركيا مضطرة أن تتابع الحرب حفظاً لشرفها، فقال الشيخ علي: ومن أين تأتي بالمال؟ فقال شكيب: كل ما تنفقه تركيا على حرب طرابلس هو 70 ألف جنيه كل شهر، والحال أن إيطاليا تنفق في الشهر مليون جنيه، فقال الشيخ علي: إلا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة إلى تركيا، كالمليون جنيه بالنسبة إلى إيطاليا، فالدولة لا تقدر على متابعة الحرب، فقلت له: إذا عجزت الدولة فالعالم الإسلامي يقدر على مساعدة طرابلس، فقال: أما نحن أهالي مصر فلا نقدر إذا صالحت الدولة على طرابلس أن نستمر على مساعدة الطرابلسيين إذ يكونون حيتن رعية نائرة على إيطاليا. قال شكيب: هذا كله يقوله الشيخ علي يوسف لا الخديوي، بل الخديوي كان ساكتاً وقد علت وجهه الحمرة، . . فلما سمعت جدال الشيخ علي هذا غضبت، وقلت له بحدة: لا تساعدون أهل طرابلس فالله يغنيهم عنكم، فانقطع الكلام على أثر هذه الحدة ووجم الخديوي، وصار قاضي مصر يتسم، وقمنا عن السفر إلى الصلاة، فأخذني الخديوي بيدي؛ لأنه شعر بكوني تأثرت جداً، وما زال حتى وصلنا إلى السجادة الخاصة به فتنحى قليلاً إلى اليمين حتى أن السجادة تسعه وتسعني، وكل هذا يقصد به تلطيف خاطري، وأنا لا أعني من التأثر، فلما بدأ الإمام بالصلاة ولم يكن الإمام حاضراً

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص156.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص152.

مجلسنا ولا سمع شيئاً مما دار بيني وبين الشيخ علي ألهمه الله أن يقرأ بعد الفاتحة⁽¹⁾ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْفِئْرَةَ لِلَّهِ جَيْمًا﴾ [يونس: 65].

وبالرغم من كل الظروف وبقاء المجاهدين وحدهم في القتال، وأمام تعدد احتياجاتهم ونواقصهم الحربية، وضغط الإيطاليين عليهم بالتركيز في شن حملات قوية وكبيرة إلا أن المجاهدين استمروا بنفس الروح الجهادية الأولى⁽²⁾ وكان المجاهدون التزموا الدفاع والتربص بالعدو حتى إذا خرج الطليان من مراكزهم انقضوا عليهم، فيوقعوا بهم شر مقتلة، وغنموا منهم أسلاباً كثيرة أمدتهم في الحقيقة بأكثر الأسلحة والعتاد ودواب التنقل مما كانوا في حاجة ملحة إليه جميعه وظل الحال على هذا المنوال⁽³⁾.

تاسعاً: تمركز قوات أحمد الشريف قرب السلوم:

بعد أن سحبت تركيا قواتها وتركت البلاد تخوض جهاداً شعيماً، معتمدة على طاقاتها الكامنة، ومقوماتها الذاتية، عقد أحمد الشريف السنوسي اجتماعاً عاماً لشيوخ الزوايا، ورؤساء الجند، وزعماء القبائل، تدارسوا خلاله الأوضاع العامة في برقة، واحتمالات الحرب، ومدى استعدادهم لمحاربة القوات الإيطالية الصليبية، واستقر رأيهم على الانتقال بكافة القوات الجهادية التي كان يبلغ عددها قرابة السبعة آلاف مقاتل، إلى منطقة إمساعد القرية الحدودية والمتاخمة للحدود الشرقية مع مصر؛ لأن مصر تشكل عمقاً إستراتيجياً لقوات المجاهدين، وكانت تأتيها المساعدات من قبل المسلمين بالتهريب عبر الحدود، وكانت بريطانيا مضطرة لغض البصر على المساعدات التي كانت تصل المجاهدين خوفاً من إثارة الرأي العام الإسلامي ضدها، وخاصة مستعمراتها، إذا ما ظهرت متأمرة على جهاد الليبيين، ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى ذهبت بريطانيا للتقرب من أحمد الشريف وحاولت أن تمد جسورها معه، كي تستعمله ورقة ضغط على إيطاليا، لا سيما وأن ملامح الحرب العالمية الأولى كانت قد بدأت تلوح في الآفاق، وكان أحمد الشريف يقظاً لما يجري حوله، فأقام معسكرات التدريب، ورسم خطة للدفاع، وحماية الشعب، والاستعداد للجهاد، وشرع أحمد الشريف في تشكيل جيش نظامي مدرب، ليخوض به غمار حرب طويلة المدى ضد العدو الصليبي الإيطالي، ومع اندلاع العالمية الأولى بدأت الدول تتسارع وتتسابق لكسب ود أحمد الشريف وقواته المجاهدة، كانت القوى المهتمة بكسب أحمد الشريف إلى جانبها هي تركيا وألمانيا بالدرجة الأولى، وبريطانيا ومصر بعد ذلك⁽⁴⁾.

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 153.

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا ص 47.

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 156.

(4) انظر: حوليات كليات الآداب، جامعة الكويت، ص 12.

المبحث الخامس الحرب العالمية الأولى

في أول عام 1333هـ قامت الحرب العالمية الأولى ما بين ألمانيا وحليفاتها النمسا وبلغاريا، وإيطاليا، وما بين بريطانيا وفرنسا وتبعتهن دول أوروبا الصغيرة ما عدا سويسرا، كما انضمت إليها روسيا وأمريكا، وكانت تركيا مترددة في الدخول مع هذا أو ذلك حتى أول عام 1334هـ دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا وحليفاتها، وفي نفس الوقت قامت إيطاليا وخانت حليفها ألمانيا، وانضمت إلى صف الحلفاء فرنسا وبريطانيا، وحليفاتهم روسيا وأمريكا، وبدخول تركيا الحرب ضد الحلفاء الذين كانوا يتوقعون منها ذلك تكالبوا عليها، وفتحوا عليها عدة جيئات، فكانت روسيا تحاربهم بالقفقاس، وفي عموم شواطئ البحر الأوسط، والإنجليز في عموم شواطئ البحر الأحمر، واستطاعت بريطانيا أن تفتن أمير مكة الحسين بن علي وتحرضه على الدولة العثمانية وحدثت معارك أضعفت الدولة العثمانية بسبب تلك الأمور⁽¹⁾، لقد خدعت بريطانيا الحسين بن علي وأعطته وعوداً وأملاً ومنته بإقامة دولة عربية تشمل كامل جزيرة العرب في الحجاز، وشرق الأردن، وأطراف نجد، وبادية العراق، وسوريا وفلسطين، وثاروا على تركيا لثورته، فعمت البلوى، ولم يكتف الحلفاء بهذا كله، فجمعوا قواتهم الجوية، وأساطيلهم الحربية في البحر الأبيض، وفتحوا جبهة الدردنيل وكانت هذه الجبهة هي أشد الجيئات على تركيا وأخطرها، ولذلك كرست ما لديها من المجهود لدفع هذه الجبهة، واستمرت معركة الاستماتة زهاء ستة أشهر، استشهد خلالها ما ينوف عن مائتي ألف جندي للأتراك لكنهم دفعوا العدو إلى البحر⁽²⁾.

وكانت بريطانيا حريصة على استمالة أحمد الشريف إليها قبيل الحرب العالمية الأولى، وزاد حرصها بعد اندلاع الحرب الكونية، ويحفظ لنا التاريخ بعض الرسائل من القادة الإنجليز في مصر مرسلة إلى أحمد الشريف فهذه رسالة أرسلها اللورد كتشنر بواسطة بعض عملائهم.

«بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله المتوكل على الله سبحانه وتعالى اللورد كتشنر المعتمد السياسي لجلالة جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى بالقطر المصري.

إلى مهبط أسرار الحضرة الربانية، ومصدر صفوة الإرشادات اللدنية صاحب التجليات الأسنية، والنفحات القدسية، قطب دائرة أهل الفضل والكمال، وخلاصة أرباب الحجا

(1 - 2) انظر: الفوائد الجليلة (2/36 - 37).

والجلال، المتحلي بروحانية أسلافه الطيبين الطاهرين، والمتجمل بصفات أهل الجلال واليقين، والمتخلي عن أضرار الأغيار في مهيع عبادة رب العالمين دوحه الشجرة الهاشمية وبضعة السلالة العلوية، خليفة صاحب ذلك النور القدوسي سيدي أحمد الشريف السنوسي رضي الله عنه وأيده بروح منه.

أما بعد، فإن الفرصة التي دعنتي الآن لمكاتبة السيد الجليل أحسبها من أشرف الفرص، وإن كانت القصة الداعية إليها ليست من أحسن القصص على أن السيد الجليل والشريف النبيل خليفة ذلك الإمام المهدي العظيم وولي الله الكريم قد يسره أن ترفع إليه الظلمات ليحقق آمال رافعيها، وأن تصل إليه أصوات الضراعات ليكون ملجأ ضارعيها، ولهذا يسرني أن أكون الوسطة لديكم لرفع مظالم قد ارتكبها من لم تخالط هدايتكم قلوبهم، ولم يستأصل إرشاداتكم العالية من نفوسهم الخاطئة ذنوبهم، ولذلك أكتب لمقامكم الكريم ما يلي:

قد ورد لي من سعادة حاكم السودان العام أن جماعة من عربان الكبايش التابعين لحكومة السودان ويبلغ عددهم تسعة وعشرين رجلاً قصدوا بير النظرون التابع لمديرية دنقلا، وبينما كانوا عند البئر إذا انقض عليهم عدد عظيم من العربان، بينهم نحو مائة من أهل فزان أتباع الطريقة السنوسية الشريفة، والباقون من أهل زغاوة والبديات، واعتدوا عليهم شر اعتداء وكان دافعهم إلى هذا الشر وداعيهم إليه قبل كل أحد زعيم الفزانين، واسمه الشيخ محمد أبو دوشي الفزاني أحد الخاضعين لسلطانكم والمستظلين بظل حمايتكم وإحسانكم إذ ذهب برجاله إلى عربان غزاوة والبديات، وطلب منهم الانضمام إليه لمقاتلة الكبايش وحرصهم على ذلك حتى انصاع إليه جمع منهم، فبلغ ذلك عدد عصابته التي أغار بها على ذلك النفر القلائل، ولم يخف سطوة الله عز وجل، ولم يذكر أن عمله المنكر فضلاً عن دونه يغضب الله وملائكته سيجلب عليه سخطكم وغضبكم الذي هو من سخط الله وغضبه، وكأنه لم يكفه أن يكون عدده كثيراً كالجيش الجرار، بإزاء جماعة الكبايش الذين كانوا عند البئر، بل أخذهم غدرًا وفاجأهم على غرة منهم، فبينما كانوا آمنين لا يحسبون للشر حساباً إذ أطلق عليهم رجال من بنادقهم ناراً حامية كادت أن تحصدهم حصداً، فلما رأهم قد وقفوا أمامهم برهة من الزمن حملوا عليهم بسيوفهم ورماحهم، فطعنوا في صدورهم، أنكى الطعنات، وقتلوا بذلك ثمانية وجرحوا ثلاثة، وأسروا اثنين، وسلبوا ما كان معهم من سلاح ومتاع، ثم استاقوا جمالهم وعددها مائة وواحد وأربعون بما عليها من الأحمال غير مبالين بأن يعدوا في شريعة الإسلام من العائين في الأرض فساداً، وأن جزاءهم فيها إذا وجدوا قضاة عدولاً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض، إلخ. الآية الكريمة، فيرى السيد حفظه الله ووفقه لإجراء عدله حكم الله وستة رسوله الأمين، أن جماعة الفزانين الذين ينسبون أنفسهم لطريقتكم الشريفة، ويعتزون بطول البلاد وعرضها بعزها قد خانوا الله وخانوا محجة رسول الله البيضاء، وخانوا عهد

طريقتكم السمحاء، ولم يبالوا بغضب الله ولا بغضبكم، ولم يذكروا اليوم الآخر وحسابه، وبطش الله وعقابه، وهذا غريب جداً أيها السيد الكريم، مع ما يعلم القاصي والداني من خضوع هؤلاء الأقوام لسطوتكم وائتمارهم بأوامركم، ومع ما سارت الركبان والأمثال من أخبار عدلكم المشهور، وشدة بأسكم على أهل البغي والعناد، وما تحلى به شخصكم الكريم من صفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي انتهت إليكم تراثاً عن أسلافكم العظماء الأكابر ذوي البأس الشديد، والتاريخ المجيد، فكيف مع هذا يجرؤ قوم أشداء كثير العدد من أتباع طريقتكم الشريفة على الاعتداء على قوم مستضعفين قليلي النفر، فيقتلون منهم الأنفس، ويسلبون الأموال والمتاع، وهم مع هذا يرون أنهم من أتباعكم خليقون بحمايتكم وحسن رعايتكم، لقد كان في وسع حكومة جلالة الملك أن تتخذ في مثل هذا الحادث إجراءات أخرى عظيمة التأثير والأثر على أمثال أولئك الطغاة البغاة، وتضرب بهم الأمثال للناس، وهي لا تعدم الوسيلة لذلك، ولكن بما أعرفه عن سيادتكم من حب العدل والإنصاف، والغيرة على إقامة معالم الشريعة الغراء في البلاد والجهات التي يصل لها نفوذكم، وتمتد إليها سطوتكم، قد فضلت أن أراجع مقامكم السامي في هذه النازلة، لرفعها طبق ما يقتضيه العدل الإسلامي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فإذا شاء السيد حفظه الله تحقيق آمالي في عدله وإنصافه فما أسهل على حضرته أن يأمر تابعيه بكف الأذى عن جيرانهم، وإخوانهم في الدين، وأن يكلف أولئك المعتدين بردّ الجمال والأحمال التي سلبوها مع دفع التعويضات كما يراها السيد بالحق الدية للمقتول، والتعويض للمجروح، ظلماً وعدواناً، ولست أظن أنه يوجد من الموانع ما يحول دون توقيع هذه الجزاءات على مستحقيها عند فضيلة السيد، ولكن إذا كان هناك مانع لا أعرفه فإنني أرجو من حضرته الكريمة أن تشرفني بإفادتي عن الطريقة التي يحسن اتباعها للوصول إلى تلك الغاية من غير أن يمس كرامتكم التي أودّ أن أحافظ عليها دائماً وأطلب من الله المزيد منها، وقد أرفقت بكتابي هذا بياناً مشتملاً على أسماء الأشخاص المعتدى عليهم من عرب الكبايش، ومن قتل ومن جرح منهم، لتكونوا على بينة من الأمر، ولتجروا العدل فيهم، كما أمر الله، جعلكم الله ملاذاً أعلى لتحقيق عدله بين خلقه وأمدكم بروح منه، ما دامت إحساناته إليكم متواصلة وعنايته بكم شاملة، ونفعنا الله ببركاتكم على الدوام آمين⁽¹⁾.

(اللورد كتشنر باشا)

بغض النظر عن حقيقة هذه القصة التي في الرسالة، إلا أننا نجد فيها أموراً مهمة منها: اهتمام الإنجليز بشخصية أحمد الشريف واحترامها ومحاولة كسبها واستمالتها، ونجد أيضاً

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي 129/2 إلى 131.

استعانة الإنجليز بالعرب الأدياء ليكتبوا لهم ما أرادوا توجيهه لسيادة أحمد الشريف - رحمته - وهذا أسلوب إنجليزي معروف، فيحاولون إيجاد ثغرات ومنافذ في كيان الأمة والسعي الدؤوب في تضعيفها، وتمزيقها، فقد نجحوا مع أمير مكة الحسين بن علي، وهم الآن يحاولون مع أحمد الشريف، كانت بريطانيا حريصة على جذب السيد أحمد الشريف إلى معسكرها، أو تحييده، وكانت حريصة على أن تكسب الشعوب الإسلامية، وأنها تعمل على مساندة حركة المجاهدين المسلمين في ليبيا، فتخدر بذلك مشاعر المسلمين في مصر والهند، وغيرها، وأظهرت تعاطفها مع أحمد الشريف للضغط على إيطاليا، وتضعيف تحالفها مع ألمانيا في حربها المنتظرة.

أولاً: إقحام أحمد الشريف في الحرب:

بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، رأت الحكومتان التركية والألمانية الاستفادة من جهود السنوسيين لتشتت القوات الإنجليزية وفق خطة لاحتلال قناة السويس وتطهير مصر من الوجود الإنجليزي، ولتحقيق هذه الغاية بعث أنور باشا إلى أحمد الشريف يبلغه أن السلطان العثماني قرر منحه النيابة عنه في إفريقيا، ويخوله ما له من نفوذ مطلق مدنياً، وعسكرياً، مثل حق إعطاء الرتب، والنياشين، والعفو عن المحكومين، والتولية والعزل، دون الرجوع إلى الباب العالي بإستانبول، ثم وصل إلى برقة الضابط العثماني أخو أنور باشا «نوري باشا» ومعه الأوسمة الرفيعة والنياشين، وقابل أحمد الشريف قرب السلوم وسلمه رسالة أخيه أنور التي كانت تحمل نبأ إعلان الحرب، وتعيين السلطان له نائباً عنه في إفريقيا الشمالية⁽¹⁾، وفي نفس الفترة وصل برقة الضابط الألماني مانسمان⁽²⁾ الذي كان معه كتاب خاص من إمبراطور ألمانيا إلى أحمد الشريف، ويحمل نيشاناً رفيعاً منحه الإمبراطور إليه، كما وصلها أيضاً جعفر العسكري⁽³⁾.

وكان هؤلاء الضباط مستائين من سياسة أحمد الشريف تجاه الإنجليز، لأن ذلك يخالف أغراضهم التي جاءوا من أجلها، وبذل نوري باشا ورفقاؤه جهوداً مضمية للتأثير على أحمد الشريف كي يهاجم الإنجليز، فأخفقوا أمام إصرار أحمد الشريف عن الامتناع، ووصلت عدة كتابات من أنور باشا يبين فيها للسيد أحمد الشريف فوائد الصدام مع الإنجليز، والاصطدام بهم ورد عليه أحمد الشريف بتقرير بتاريخ 29 صفر سنة 1335هـ جاء فيه: «... حرب يأتيك - يقصد به حرب الطليان - وحرب تأتيه - يقصد بها حرب الإنجليز - فالحرب الذي يأتيك يجب

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص50.

(2) مسؤول المخابرات الألمانية في المغرب العربي.

(3) قائد تركي أصله عراقي أسر في هذه الحرب عام 1916م.

عليك مدافعته بأي حالة كانت، والحرب الذي تأتيه يجب عليك الاستعداد له»⁽¹⁾.

ويوضح تقرير أحمد الشريف أنه مهتم بأمر حرب الطليان الذين جاءوا إلى أرضه، وأنه يجب عليه أن يركز جهوده عليها من أجل تحرير بلاده، وفي نفس الوقت فهو غير مستعد لإعلان حرب جديدة لا قدرة له عليها، ولا تسمح له ظروفه الحربية والسياسية، والاقتصادية القيام بها.

وهناك سؤال يطرح نفسه في نص تقرير أحمد الشريف وهو ماذا يقصد بعبارة «يجب عليك الاستعداد له» إن أحمد الشريف يؤكد لأنور وزير الحربية من خلال هذا التقرير أنه يجب الاستعداد لهذه الحرب، إن أحمد الشريف كان لا يريد الدخول في حرب إلا مع أعدائه الإيطاليين المحتلين للأراضي الليبية، وخصوصاً أنه يريد أن يحافظ على علاقته الجيدة مع الإنجليز الذين كانوا قد تركوا السنوسيين وشأنهم ولم يعتدوا عليهم، «وكان حيادهم على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لحركة الجهاد؛ لأن جميع ذخائر المجاهدين في الجبهة الشرقية كانت تأتي من مصر حيث كانوا يتمتعون بعطف الشعب كله»⁽²⁾ وقد ترك الإنجليز المجاهدين يبيعون الأسلاب التي غنموها من الطليان في ميناء السلوم، وحرصوا على أن تكون العلاقة بينهم وبين السنوسيين جيدة، فكانوا يبعثون الهدايا والكتب ومعها رسائل الاحترام والتقدير لشخصه وبلاده، كما أن أحمد الشريف نفسه كان يجامل المسؤولين الإنجليز لتأمين حدود بلاده وسلامتها أولاً، ثم لقضاء حاجياته من مصر، فقد كانت تصنع فيها ألبسة رجال جيشه وكان بعض العتاد والذخائر يصل إليها منها⁽³⁾.

كان أحمد الشريف مشفق من التورط في أمور هو في غنى عنها في ذلك الوقت بالذات، ولذلك فقد طلب من الشيخ محمد سوف المحمودي الذي وصل من تركيا أن يسافر برجاله إلى طرابلس، وأن يقيم معسكراً بمجرد وصوله إلى هناك لمواصلة حرب الإيطاليين، وقد منحه أحمد الشريف رتبة بكباشي شرف تقديراً لشخصه وجهاده، وأطاع الشيخ سوف الأمر، وسافر برجاله إلى طرابلس، وذلك في أوائل شهر يناير سنة 1915م.

إلا أن منظمة تشكيلات مخصوصة وهي تابعة للمخابرات العسكرية العثمانية يعرفها البعض: «بأنها منظمة عثمانية سرية غامضة مهمتها الأساسية الأمن الخارجي للإمبراطورية العثمانية، ومكافحة التجسس الأجنبي عليها وكان لمعظم المنتسبين إليها الصفة العسكرية»⁽⁴⁾ حاولت هذه المنظمة أن تجعل من أحمد الشريف أداة طيعة تستغلها حسبما تمليه مصالح

(1) انظر: برقة العربية، ص314.

(2) انظر: الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، ص336.

(3) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص57.

(4) المصدر السابق نفسه، ص53.

الإمبراطورية العثمانية، وليس حسبما تقتضيه مصالح ليبيا والمتمثلة في تحريرها من الاستعمار الإيطالي، وكانت الحكومة التركية قد أرسلت بعض أنصارها الذين هم من ولاية طرابلس الغرب، وكانوا قد هاجروا إلى تركيا بعد فشل المجاهدين في معركة جنودية سنة 1913م وكان من هؤلاء الشيخ سليمان الباروني، عضو مجلس المبعوثان، وزعيم الجهاد الطرابلسي في الفترة الأولى 11/1913م وكان الباروني: «عثماني الميول وهو على علم بالمخطط التركي لغزو مصر، وإعداد حملتين لها شرقية وغربية وإخراج الإنجليز منها، ثم تحرير طرابلس بعد إخراج الطليان منها.». وقد عبر عن هذا عند وصوله إلى برقة وسأله هلال محمد الشريف السنوسي وهما بالسلم عن شعر رأسه الطويل، وهو رجل متقدم في السن وصاحب منزلة كبيرة، ما هذا الشعر يا باشا؟ فردّ الباروني: سأجيبك بقصيدة من شعري؛ لأنه أحمل من شعري. . وكان مما قال:

هذا هو الشعر الذي	شهد الحروب الهائلات
وعليه أمطرت القنابل	كالصواعق نازلات
خاض المعامح لا يهاب	على الجياد الصافنات
حبا بتطهير المواطن	من بني الإيطاليات
أليت أن يبقى إلى	أن يعبر الجند القناة ⁽¹⁾
لنرى الغزاة على ضفاف	النيل تفتك بالبغاة
ونرى طرابلس العزيزة	في ليال باهرات
تختال في برد الهنا	بالانتصار على الطغاة
وتسود أعلام الخليفة	في البلاد الضائعات
ونرى الهلال متوجاً	جزر المحيط الخالدات
إذ ذاك يحلق بين	أفواج الأعاظم والغزاة
ما بين تهليل وتكبير	وتقديم الصلات
فيكون عنوان الفتوح	مدى العصور الدائرات
أو هكذا يبقى إذا	لم تنتصر حتى الممات
يا من وعدت المسلمين	النصر امنن بالحياة ⁽²⁾

عزمت المنظمة العثمانية على الزج بقوات أحمد الشريف في حرب لم يكن في حاجة إليها، خاصة في ذلك الوقت، ولما يشست هذه المنظمة من إقناع أحمد الشريف بتلك الحرب،

(1) القناة: قناة السويس في مصر.

(2) انظر: الشهيد، العدد الخامس، 1984م، ص146.

اتجهت نية ضباط تشكيلات مخصوصة إلى الخلاص من أحمد الشريف، وأعدت انقلاباً ضده، وتفجير خيمته، ووضع بديل له من العائلة السنوسية، يكون أسهل انقياداً وانصياعاً لمخططات هذه المنظمة، وتم إعداد المؤامرة إلا أنه اكتشف أمرها، وألقى القبض على المتهمين، وأمر أحمد الشريف البقية من مهاجري طرابلس بأن يسافروا إلى بلادهم بسرعة للانضمام إلى الشيخ محمد سوف، وأنذر أحمد الشريف من يخالف أوامره بالإعدام، فنفذت كاملة، وهدأت الحالة، وكان ذلك في شهر فبراير عام 1915م⁽¹⁾ ووصل الأمر بأن اتهم أحمد الشريف بأنه ممالئ للإنجليز سراً، وفي مقابلة مع أحمد الشريف قام بها الضابط المصري محمد صالح حرب قبل نشوب الحرب، سأل الأخير أحمد الشريف عن حقيقة موقفه، فأجاب: «... إن الأتراك إنما يريدون أن يورطوه في حرب مع الإنجليز قبل أن يستعد لها، وأنه لا يمالئ الإنجليز محبة فيهم أو تقريباً منهم، ولكن مصر هي الباب الوحيد المفتوح الذي تأتيه منه الأرزاق التي يستطيع بسببها متابعة القتال ضد الطليان، فإذا قفل هذا الباب تخرج موقفه، وأنه لم يستدع الأتراك إلى ليبيا إلا ليجلبوا معهم الإمدادات الكافية والتي يكون فيها الغناء عن ذلك المفتوح، ولكن هؤلاء حضروا وليس معهم أية إمدادات أو أرزاق أو مال، ومع ذلك فهم يطلبون منه كل يوم القيام بحركة ويلحون في هذا الطلب، مع العلم أن بدء الحركة قبل أن يحين الوقت الملائم يعود بالشر والوبال على الجميع، وختم السيد أحمد قوله: «وإني أصرح لك بأنه لا سلاح ولا ذخيرة، ولا مال ولا أرزاق كافية لدينا، وأنا ليس في نيتي أن أحارب الإنجليز»⁽²⁾.

استمر ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة في مهمتهم الرئيسة لإقحام أحمد الشريف في حرب ضد الإنكليز وقد اعترف نوري باشا بأنه صار مرغماً بسبب سكوت أحمد الشريف على تدبير المخطط لقصم العلاقات القائمة بينه وبين الإنكليز، وبإدراك الأتراك سرياً بمهاجمة المراكز البريطانية، وزوروا أوامر أحمد الشريف إلى ضباط العرب وعساكرهم ووقع ما وقع⁽³⁾ وأرسل الأتراك سعادة إلى مصر يقولون: إن أحمد الشريف يأبى الزحف إلى مصر مداراة للإنكليز مع أنه حضر من الأستانة لأجل إعداد حملة على مصر وإنقاذها من أيدي الإنكليز، فصارت تتوارد من مصر الرسل إلى أحمد الشريف تعاتبه على موقفه هذا⁽⁴⁾.

وعلى العموم فإن الأمور تلاحقت، وتتابع الحوادث على الحدود بفعل التأثيرات الشديدة للحرب وضغوطها على الجانبين، فلم يكن بمقدور أحمد الشريف صد تيار الانجراف،

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 59.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 167.

(3) انظر: برقة العربي، ص 315.

(4) انظر: الحركة الوطنية الوطنية شرق ليبيا، ص 63.

فحدث ما حدث دون أن تكون له سيطرة على زمام الأمور، وحاول الإنكليز تدارك الموقف بالطرق الدبلوماسية، تجنباً للعنف والصدام مع السنوسيين وتقليلاً لعدد خصومهم وأعدائهم، في وقت كانت الحرب العالمية الأولى على أشدها، فاتصلوا بالسلطان حسين كامل «سلطان مصر» وأطلعوه على ما جرى وراء الحدود، ورجوه أن يعمل للإصلاح والتوفيق وإقناع أحمد الشريف بالتزام الحياد، والتنبيه إلى خطورة الاستماع إلى الأتراك والألمان، فأرسل السلطان حسين كامل وفداً برئاسة محمد الشريف الإدريسي نجل عبد المتعال بن أحمد بن إدريس، وكانت معهم رسائل من السلطان حسين كامل، ومن السير ماكهمون نائب ملك الإنكليز في مصر، ومن الجنرال ماكسويل قائد جيش الاحتلال البريطاني في مصر، وتدور الرسائل حول فكرة النصح للسيد أحمد الشريف بالتزام الحياد⁽¹⁾.

وهذا نص الرسالة التي أرسلها الجنرال السير جون مكسويل القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى:

مصر في 3 ديسمبر سنة 1915/25 محرم سنة 1334هـ.

حضرة الأستاذ الأعظم السيد أحمد الشريف السنوسي الخطابي الإدريسي الحسني دام وجوده الكريم.

تحية وسلاماً وبعد، فقد أدهشني ما وجدته بعد عودتي إلى مصر من زيارة الجيوش المتحالفة في غليولي، إن العلاقات بيننا قد حدث فيها تغيير، وإن أتباع سيادتكم قد ارتكبوا أعمالاً عدائية ضد الحكومة المصرية.

وقد سمعت بارتياح أنكم أرسلتم كبيراً من مستشاريكم إلى البراني ليسعى في إرجاع بعض أتباعكم الذين عصوا وأمركم، ولكنني تعجبت إذ سمعت أن هؤلاء الأتباع قد تمادوا في العصيان، حتى أنهم لم يطيعوا الأوامر فقط، بل أطلقوا فعلاً على جعفر أفندي، هذا وقد بلغني أيضاً ما أهمني وهو أن سبعين رجلاً من رعايا الدولة الذين نجوا من مركب غرقته العدو قد حجزوا غرب حدودنا، فأسألكم برهاناً على العواطف الودية التي أظهرتموها لنا أن ترسلوا هؤلاء الرجال المنكوبي الحظ حالاً بدون أذى إلى مرسى مطروح، وهذا ويظهر أن نفوذ نوري بك وأصدقائه الألمان عليكم يشبه نفوذ أنور باشا على جلالة سلطان تركيا، وهذا النفوذ الضار هو الذي زج تركيا في الحرب المهلكة والتي ستنتهي حتماً بزوال دولة الأتراك من الوجود، إنكم تعلمون أن الحكومة المصرية والحكومة البريطانية عاملتا سيادتكم بكل اهتمام واحترام، وأما الآن فقد اضطرت بسبب المقاصد السيئة التي تحيط بسيادتكم أن أستدعي رجالي من نقطة

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص65.

السلوم، وأتخذ لهم مركزاً في مرسى مطروح، وعليكم الآن أن تبنوا بأعمالكم وأعمال أتباعكم إذا كنتم تحبون بقاء العلاقات الودية أم لا .

ومن الآن وصاعداً كل رجل من أتباعكم يتعدى الحدود حاملاً سلاحه أضطر أن أعده كمن له مقاصد عدائية وأعماله كذلك، لقد سألتكم أن تظهروا مقاصدكم الودية بإبعاد الأشخاص الذين معكم الآن المعروفين بعداوتهم لنا، وأنا أتأسف أن أرى أنكم لم تتمكنوا إلى الآن من إبعادهم، إنني لا أشك أن السيد محمد الشريف الإدريسي قد سلمكم كتابي، وفاوضكم في جميع الشؤون التي أولج إليه مفاوضتكم فيها، ولا أشك في أنه بين لكم مقاصدنا نحوكم ودية محضة، وأن ما أوجب التغيير في العلاقات بيننا هو أعمال صدرت من جهتكم لا من جهتنا، ولا يسعني إلا الظن بأن الدسائين قد نقلوا أخباراً كاذبة عن الحرب الأوروبية، والحقيقة هي أن خسارة إمبراطور الألمان وحلفائه بطيئة، ولكنها أكيدة على جميع خطوط القتال والمستقبل يريكم ما أراد الله .

وإنني أسألكم أن تمنعوا النظر في الأمر وتعتبروا أنه إذا اتخذتم بسوء الحظ خطة عدائية فإنكم لا تجلبون عليكم إيطاليا، بل فرنسا، وإنكلترا، ومصر، وتحملون مسؤولية جميع النفوس التي تضيق في هذا السبيل، وتعرضون بلادكم للجوع، إذ تسد عليكم طريق الزاد والمؤنة برآ، وتحصر الشطوط البحرية، وإذا كان مستشاروكم يعتمدون على غواصات الأعداء فاعتمادهم قائم على لا شيء، وأنى لكم، ذلك كله ليس بقصد التهديد، بل بقصد «النصيحة» كصديق، والأترك يقضون بكم مأربهم، ثم يبنونكم نبذ النواة وراء ظهورهم .

إن الحالة الحاضرة لا يمكن أن تبقى على ما هي عليه الآن، ولذلك فإني أسألكم أن تبرهنوا حسن مقاصدكم، بالأعمال، وليس بالأقوال، وأن ترسلوا حالاً إلى مرسى مطروح الرجال الإنكليز الذين نجوا من مركبهم وهو الآن غرب حدودنا، وأن تعيدوا العلاقات الودية معنا، وأن تخرجوا من بلادكم المستشارين الأتراك والألمان، أي نوري بك ومانسمان وغيرهما من الذين لا شك في أنهم يجلبون عليكم وعلى بلادكم بلاءً عظيماً، ولي الرجاء أنكم توفون هذه المسائل حقها من الاهتمام قبل أن يقع ضرر ولا يمكن تلافيه⁽¹⁾ .

وقد كلف الجنرال ماكسويل رئيس الوفد بأن يبلغ أحمد الشريف باسم حكومته بأنها إذا انتهت الحرب العظمى الأولى، ولم يشترك فيها أحمد الشريف، وحافظ على الحياد، فإن إنكلترا تتعهد بأن تساعد في الحصول على استقلال بلاده وتوفيق بينه وبين إيطاليا، كما أنه سيكون أعظم شخصية عربية في البلاد العربية ومرجعاً لأمرء العرب، وكبرائهم⁽²⁾ .

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي 132/2، 133، 134.

(2) انظر: جهاد الأبطال، ص 264.

واستمرت جهود ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة لإشعال نار الحرب على الحدود، واستمالوا بعض العناصر بالوعود، والمال والذهب، ومن هؤلاء الذين تأثروا بدعاية الأتراك «أحمد مختار الطرابلسي وأبو القاسم وآخرون»⁽¹⁾.

وكان هؤلاء الضباط قد هاجموا القوات الإنكليزية قرب السلوم، وكان كل هذا يجري دون علم أحمد الشريف، وفعلاً هاجم المسلحون نقطة حراسة القوات الإنكليزية في السلوم، وعلم أحمد الشريف بالحادثة في صباح اليوم التالي، فتأثر لذلك كثيراً، واضطرب اضطراباً شديداً وحاول إصلاح الموقف، إلا أن الأمور سارت بما لا تشتهي، وانفرط زمام الموقف من يده فوجد نفسه هدفاً لهجوم مضاد من قبل الإنكليز، فما كان منه إلا أن يقبل الأمر الواقع الذي أوقعته فيه ضباط منظمة تشكيلات مخصوصة⁽²⁾.

وكانت الأحداث تتجاذب أحمد الشريف بشدة، وتضعه في جملة من المواقف الحرجة

منها:

- 1 - إن تركيا مسلمة وهي تمثل الخلافة الإسلامية في نظره، وكان طبيعياً أن يميل إلى الإسلام والمسلمين ومساعدتهم.
- 2 - إن قوة الألمان العسكرية، وانتصاراتهم الباهرة مع بداية الحرب العالمية الأولى أُنعت بصورة أو أخرى أحمد الشريف بقوة ألمانيا العسكرية، وبأنها ستحقق النصر النهائي على قوات الحلف «فرنسا وبريطانيا وإيطاليا».
- 3 - إن وعود بريطانيا للسيد أحمد الشريف بالتنازل له عن بعض الواحات هي وعود شفوية، أو كتابية فقط، ولن ترى النور، ولن تخرج إلى حيز التطبيق العملي مطلقاً، وهذه هي عادة بريطانيا التي كانت تطلق وعوداً غامضة متكررة ومتناقضة تصدر تحت ضغط الحرب.
- 4 - كان أحمد الشريف مديناً بالولاء الودي والجميل للأتراك، فهم الذين قاتلوا وجاهدوا مع الليبيين في برقة وطرابلس، وله ارتباطات متينة مع كبار الضباط الأتراك، وعلى سبيل المثال كعلاقته مع أنور باشا وزير الحرية، كما أنه أصبح نائب السلطان «بحكم فرمان سلطاني» في شمال إفريقيا.
- 5 - إن وعود الأتراك «الباب العالي - السلطان - وزارة الحرية - كبار الضباط - منظمة تشكيلات مخصوصة . . .» للسيد أحمد الشريف بتزويده بالسلاح والعتاد، والمال، وكل

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 66.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 66.

مستلزمات الحرب، كانت وعوداً صادقة في البداية، وكان في تصور أحمد الشريف أن ذلك العون سيستمر حتى تحرير البلاد، وخصوصاً أنهم بعثوا له بعض العون عن طريق الغواصات الألمانية قبل قيامه بإعلان الحرب ضد الإنكليز في مصر.

6 - التقت مصلحة أحمد الشريف ومصلحة الأتراك والألمان في شيء واحد، ينتفعون جميعاً من فعله، والقيام به، ألا وهو محاربة إيطاليا؛ لأنها عدوة لهم جميعاً في تلك الفترة⁽¹⁾. ورغم كل ذلك ومهما كانت الظروف، فإن قراره بمهاجمة الإنكليز عبر الحدود المصرية، كان قراراً سريعاً رغم أن السيد أحمد قد رفضه وبشدة في البداية، لأنه على يقين أن ذلك الهجوم لا يتمشى مع مصلحة بلاده، فإن الأتراك والألمان كانوا ينظرون إلى الحرب في شكلها المتكامل، والتي لا تمثل طرابلس إلا جبهة فرعية في تلك الاستراتيجية، اتخذوا من أحمد الشريف مطية لتحقيق أغراضهم، ونحن نستغرب موافقة السيد أحمد على الدخول في تلك الحرب، فهي خارج بلاده، وتنقصه العدة، والأسلحة، كما ليست ضد إيطاليا المحتلة لوطنه، لقد كان خطأ في الحكم والتقدير من رجل محنك صقلته التجارب، وابتلته الأحداث، وكان له في ميادين السياسة والحرب صولات وجولات.

كان يجب عليه أن يتعاون مع الأتراك والألمان ضد إيطاليا لتحرير بلاده أولاً⁽²⁾. ومهما يكن من أمر فإن الظروف لعبت دورها واشترك أحمد الشريف بقواته، وسار بجيشه وعدده أربعة آلاف مسلح وكان معه نوري باشا قائداً أولاً وجعفر العسكري قائداً ثانياً، وغرضهم الهجوم على السلوم، وجهاز الإنكليز جيشاً بلغ تعداده ثلاثين ألفاً من مشاة وفرسان. وقامت الحرب بالفعل في نوفمبر سنة 1915م، وأخذت الفرق العسكرية النظامية والمتطوعة تنحدر إلى الأراضي المصرية، وبدأت القيادة في إعلان وجوب اشتراك رجال القبائل المصرية في الحرب ضد الإنكليز المحتلين لمصر، والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية⁽³⁾. وكان الضابط المصري محمد صالح حرب تابعاً للقوات الإنكليزية، فجمع الرؤساء والمشايخ وخاطبهم قائلاً: «نقف اليوم بين معسكرين: الإنجليز أعداء الله والوطن الذين رفعوا علينا الحماية، والآخر معسكر العرب والأتراك الذين يقولون إنهم جاءوا ليخلصونا، وقد أقنعني ضميري واجبي الديني بعدم البقاء مع الإنكليز، وقد خرجت في سبيل الجهاد ضدهم، فمن كان منكم يحرص على حياته أو تلزمه أية مسؤولية عائلية بالعودة إلى مرسى مطروح فإنني لا أحول بينه وبين العودة، إنما شريطة أن يترك ما معه من سلاح ومؤونة...»⁽⁴⁾.

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 60، 61.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 60، 61.

(3) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 69.

(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 173.

فلم يرغب أحد منهم في العودة، بل أبدوا جميعاً التصميم على البقاء إلى جانب رئيسهم، وعاهدوه على الجهاد والثورة التي بدأت بصورة علنية، واستجاب لها بعض عرب قبائل أولاد علي، وبغض النظر عن عدد هذه القوة التي انضمت لقوات السيد أحمد، وغالباً ما كانت تقدر بحوالي مائة وخمسين جندياً⁽¹⁾، فإن هذه القوة المنظمة للمجاهدين أعطتهم دفعاً جديداً وأججت في نفوسهم الرغبة لمنازلة الإنكليز وتحرير الديار من نير المستعمرين.

بدأ هجوم المجاهدين والأتراك على القوات الإنكليزية عند حدود مصر، ودارت معارك طاحنة من أشهرها معركة وادي ماجد في أواخر شهر ديسمبر عام 1915م، ومعركة العدو بوتونس التي قال فيها ضابط بريطاني شارك في هذه المعارك: «... لقد قام العدو بعزم شديد ومقاومة عنيفة ودام القتال من أجل إحراز قصب السبق أربع ساعات تحت نيران البنادق التي كان العدو يستخدمها بنجاح ودقة بقيادة ضباط أتراك وألمان، وعلى حين كنا نحاول بشق الأنفس أن نصمد دبت الفوضى في صف الفرسان على الميسرة، عندها قويت شوكة العرب الذين كانوا يجابهون هذا الجانب من صف الفرسان...»⁽²⁾.

إلا أن المجاهدين كان يتقصهم الدواء واللباس، والذخيرة، والسلاح، ولذلك تأثرت بقية المعارك ونتائجها تبعاً لذلك، فأخذ المجاهدون في الانسحاب والتقهقر اضطراراً، وبذلك النقص والانسحاب تأزم الموقف، ودب الخلاف بين أحمد الشريف ونوري باشا، لتفاقم واشتداد الضرر الاقتصادي في معسكر المجاهدين وما حوله بشكل تجاوز الاحتمال⁽³⁾ ولذلك عقد أحمد الشريف اجتماعاً عاجلاً لوضع حد معين لهذه الاحتجاجات والنواقص ولدراسة الأحداث من كل جوانبها، وعقد الاجتماع في أواخر يناير 1916م، في خيمة أحمد الشريف وحضره نوري باشا وجعفر العسكري عن الجانب التركي، ومحمد صالح حرب عن الضباط المصريين، وثلاثة من كبار رجال السيد أحمد الشريف الذي ترأس ذلك الاجتماع، وكانت تبدو على أحمد الشريف علامات الانفعال والغضب، وألقى نقده على الضباط الأتراك الذين تسرعوا في بدء العمليات العسكرية بالرغم من عدم استكمال الاستعدادات اللازمة لها، وكان مما قاله موجهاً حديثه لنوري وجعفر: «لقد قفلتم فمن أين نتنفس؟...»⁽⁴⁾ وقد ختم أحمد الشريف حديثه مخاطباً «نوري وجعفر»: «فما رأيكم وقد أوصلتموها إلى هذا الحال... وظهر إنني كنت على هدى وكنتم على ضلال»⁽⁵⁾.

وتناول الحديث محمد حرب بعد ما تكلم ضباط الأتراك وانتقد الخطة الحربية العامة

(1) انظر: منظمة تشكيلات مخصوصة، عبد المولى الحريري، مركز الدراسات العربية، عام 1979م، ص 36.

(2) انظر: كفاح الشعب الليبي في سبيل الحرية، عبد الرحمن عزام، ص 38، 39.

(3 - 4) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 78.

(5) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 176.

للضباط الأتراك، وكان رأيه مناقضاً لما ذكره «نوري وجعفر» ذلك أن التقدم من جهة الساحل «قرب البحر» وعلى أرض تكاد تكون مكشوفة بالكامل يُمكن - حسب رأيه - القوات الإنكليزية على قوات المجاهدين، وتسليط نيرانهم المختلفة عليهم، هذا إضافة إلى أن الأراضي الساحلية متماسكة، وتساعد الإنجليز في أن يستخدموا عرباتهم وسياراتهم ونقلياتهم بسهولة، وكذلك فإن نشوب المعارك قرب البحر يُمكن الإنكليز من استغلال البحر بسفنهم الحربية المزودة بالمدافع أو بنجدة سريعة للقوات الإنكليزية إذا ما حقق المجاهدون انتصاراً عليها، وبناءً على ذلك، فقد كان رأي الضباط المصري «محمد حرب» هو أن يتحرك المجاهدون في ناحية الجنوب محاولة منهم لاحتلال الواحات المصرية على التابع، ويمكنهم بذلك الاتصال بمشايع العرب ومسلمي الصعيد في المدن والقرى، الذين يرغبون في التخلص من الاستعمار الإنكليزي، لعل حركة الجهاد تشعل ثورة قوية تعصف بالحكم الإنكليزي في مصر، بالإضافة إلى توفر الماء، والتمور، وبالإضافة إلى ذلك فإن القوات الإنكليزية تضطر إلى نشر قواتها على طول وادي النيل، وبشكل يستهلك جزءاً من هذه القوات⁽¹⁾.

ورأى أحمد الشريف بصفته رئيس الاجتماع ونائب السلطان العثماني، أن تنقسم قوات المجاهدين إلى قسمين، قسم يتوجه إلى الجنوب وهدفه احتلال الواحات المصرية، وكان هذا القسم يتألف من ثلاثة آلاف وخمسمائة مجاهد تقريباً يقوده محمد صالح حرب تحت إشراف السيد أحمد، والقسم الآخر يبقى في الشمال «الساحل» ويقوده جعفر العسكري ويشرف عليه القائد العام نوري باشا، وعدد رجاله ستة آلاف مجاهد⁽²⁾ وانتهى ذلك الاجتماع على هذه المقررات، واتضح من خلال هذا الاجتماع بعض الأمور الهامة وفي مقدمتها ما يلي:

- 1 - سيطرة أحمد الشريف الكاملة على جميع القوات الزاحفة ضد الإنجليز عبر حدود مصر الغربية.
- 2 - خطأ القادة الأتراك سواء في عدم الاستعداد لهذه الحملة «عسكرياً، ومالياً، وبشرياً» أو في رسم الخطط الحربية، ووضع إستراتيجية هامة وتنسيق كامل لتحطيم النفوذ الإنكليزي في مصر.
- 3 - إن وعود الأتراك للسيد أحمد الشريف بأن المدد متواصل، ومستمر، ولن ينقطع ولن يكون هناك نقص في السلاح والذخيرة والعتاد، والمؤن والأموال واللباس والدواء... كانت وعوداً غير علمية ولم ينفذ منه شيء، بل كان نوعاً من الدعاية لخدمة مصلحة الأتراك وأعاونهم.

(1) انظر: المغرب الكبير، يحيى جلال، 3/ 860، 861.

(2) انظر: قضية ليبيا، محمود الشنيطي، ص 68.

- 4 - اتضح وبجلاء أنه ليس بمقدور المجاهدين هزيمة الإنكليز والانتصار عليهم لتفوقهم في الإمكانيات والقدرات المتباينة .
- 5 - اتضح الآن أن برقة يهددها شبح المجاعة ذلك أن جميع الطرق التجارية أقفلت «مع الإنكليز شرقاً، والفرنسيين جنوباً، والإيطاليين شمالاً» .
- 6 - إن الحال الذي عليه المجاهدون يبدو من خلال ما دار في هذا الاجتماع متسماً بالصعوبة والضيق .
- 7 - صواب رأي أحمد الشريف في عدم الرغبة في دخول الحرب مع الإنجليز .

دخلت القوات الشمالية بقيادة نوري باشا في معارك طاحنة مع الإنكليز في معركة وادي مقتلة، ومعركة العقاقير، وكانت النتيجة هزيمة المجاهدين الذين أخذوا في الانسحاب نحو الغرب، ولحقت بهم السيارات المدرعة الإنكليزية بعد أن حلقت فوقهم الطائرات الإنكليزية تذرهم بالتسليم خلال الأربع والعشرين ساعة، وإلا هاجمتهم حتى الإبادة⁽¹⁾ واستمرت مطاردة المنسحبين إلى الحدود، بل وأكثر من ذلك داخل أراضي برقة نفسها، واستولى الإنكليز على سيدي براني يوم 28 فبراير سنة 1916م، وكان من أثر معركة العقاقير التي أسر فيها القائد التركي جعفر باشا أن تشتت شمل القوات الشمالية للحملة، واستطاع الإنكليز مطاردة فلول قوات المجاهدين، وتعقبتهن السيارات المدرعة متوغلة في برقة إلى ما وراء بئر واعر، لقد كانت معركة العقاقير تمثل نتيجة حملة أحمد الشريف على مصر، واستمرت القوات الإنكليزية تطارد فلول المجاهدين، فوقعت معركة بقبق شرق السلوم انتصر فيها الإنكليز، الذين احتلوا بعد ذلك معركة السلوم⁽²⁾ ودخل الإنجليز الأراضي الليبية ووصلوا بئر حكيم في جنوب غرب طبرق واستطاعوا تخليص الأسرى الإنجليز وكان عددهم 92 بحاراً بعد أن أبادوا قوات الحراسة⁽³⁾ أما قوات المجاهدين في الجنوب فكان يقودها اللواء محمد صالح حرب تحت إشراف أحمد الشريف زحفت هذه القوات جنوباً وتمكنت من احتلال الواحات البحرية، والفراغة والداخلة، وانضم إليها كل من كان بهذه الواحات من الموظفين المصريين، وكذلك الضباط والجنود، واتصل محمد صالح حرب بشيوخ العرب في المنيا، وأسيوط، والفيوم، ولم تعط هذه الاتصالات نتائج مشجعة، وبدأت قوات الإنكليز تتزايد وتتكاثر بعد أن صدت الحملة العثمانية الشرقية على قناة السويس، وفشلت ثورة السلطان علي دينار في منطقة دارفور، واضطر المجاهدون للانسحاب من الواحات الداخلة إلى الغرب جنوب سيوه والجغبوب، وكان

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص86.

(2) انظر: المصدر السابق، ص86، 87.

(3) انظر: المصدر السابق، ص90.

لا اعتماد الإنكليز على الطائرات العسكرية في عمليات الكشف والإغارة، واستخدام قواتهم العسكرية للسيارات المصفحة والمدرعة المزودة بالمدافع السريعة الطلقات أثر كبير في قلب ميزان القوى لصالحهم⁽¹⁾.

وتمكنت قوات المجاهدين من الوصول إلى واحة سيوه في أمان تام، وكان أول ما عني به قائد المجاهدين محمد صالح حرب في سيوه هو إرسال التمور إلى الجغبوب ليتزود به المجاهدون هناك⁽²⁾.

وفي سيوة لحقت القوات الإنكليزية بالمجاهدين وحصلت بينهم معركة كبيرة بتاريخ 8 فبراير 1917م دامت نحو يوم كامل، وكانت معركة فاصلة جهز لها الإنكليز كل إمكانياتهم لقتال وهزيمة وإفناء المجاهدين الذين دافعوا دفاعاً مستميتاً وانسحبوا من سيوة إلى الجنوب مسيرة ثلاثة أيام⁽³⁾ وكان وصولهم إليها في شهر فبراير 1917م وحاول الإنكليز مطاردة قوات المجاهدين المنسحبة إلى الغرب نحو الجغبوب وبالقرب منها دارت بينهما آخر معركة في تلك الحرب وهي معركة «قرب» إحدى ضواحي الجغبوب⁽⁴⁾ ولم يستطع الإنكليز مواصلة السير، والتجثوا بعد ذلك إلى الوسائل السياسية، وكان قبل وصول أحمد الشريف إلى الجغبوب قد أرسلوا إليه رسالة مطولة، وهذا نص رسالة الجنرال السير جون مكسويل القائد العام لجنود جلالة ملك بريطانيا العظمى:

مصر في 4 جمادى الأولى سنة 1334هـ الموافق 8 مارس سنة 1916م

حضرة صاحب السيادة الأستاذ أحمد السنوسي الكبير تحية وسلاماً وبعد، فقد وصلني كتابكم المرسل بيد رسولكم موسى، وليس لي أن أرد عليه عما قلته في كتيبي السابقة، إني كنت دائماً أحذركم من خطر الإصغاء إلى نصائح نوري بك، وجعفر وغيرهما لأن مصلحة هؤلاء تناقض مصلحتكم على خط مستقيم، فإنكم بالإصغاء إلى نصائحهم قد أثرتم حرباً على مصر ونسيتم جميل بيت محمد علي باشا الكبير الذي يمثله صاحب العظمة السلطان حسين سلطان مصر الحالي.

إنكم تعديتم الحدود ودخلتم الأراضي المصرية برجال مسلحين ومدافع وقد أطلقتكم نيرانكم على العساكر المصرية والإنكليزية، وأظهرتم بكل جلاء ووضوح أن مقاصدكم عدائية. تقولون إني صدقت مقالة سنوبك ولم أصدق ما قلتموه أنتم فما هو الصحيح؟.

(1) انظر: السنوية دين ودولة، ص 179.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 180.

(3) انظر: جهاد الأبطال، ص 266.

(4) انظر: برقة العربية، ص 317.

إن جماعات من المحافظة المسلحة كانت على الدوام تأتي إلى الأراضي المصرية، إما بعلم منكم أو بغير علم منكم، وتسيء معاملة العرب الذين تحت إرادتنا وتأخذ منهم ضرائب بالقوة، وقد أطلق أتباعكم النيران على الغواصات الإنكليزية لغير ما سبب، وأنزلت الغواصات الألمانية الأسلحة والعساكر وغيرها بقرب برديه، وأطلقت نيرانها على طراد لخفر السواحل وأغرقته، وأتباعكم لم يطلقوا النار على الغواصات الألمانية، بل استقبلوها بالترحاب، ثم إنكم حفظتم في الأسر جماعة من رعايا الدولة البريطانية الذين غرقوا وابورهم ولجئوا إلى سواحلكم وقد هاجم أتباعكم نقطتنا في البراني والسبيل، وأسروا عساكر الحرس وسرقوا بنادقهم وقطعوا خطوطنا التلغرافية، وهددوا نقطتنا بالسلم حتى اضطرت أن أصدر الأوامر إلى سنوبك بالرجوع إلى مرسى مطروح، وفي الوقت الذي كتتم فيه تصرحون بأن علاقتكم معنا على غاية الوداد كتتم تكتبون وترسلون مع رسلكم كتباً كالتالي أرفقها بكتابي هذا، وإني مرسلها إليكم لتعلموا الحقيقة، أرى أنكم لا زلتكم تذكرون أمر معاهدة عقدت مع الطليان ووجدت بين أوراق سنوبك، وأنا أعود فأكرر القول أن ذلك غير صحيح لسببين: الأول لأنه لم نعمل معاهدة مثل هذه قط، والثاني لأن سنوبك لم يكن عنده السلطة لأن يعقد معاهدة كهذه.

إن جعفر هو الآن أسير حرب يقول: إن الإنكليز الذين نجوا من الوابور والآن في الأسر عندهم هم في شقاء عظيم وليس عندهم ما يلزمهم من الثياب والطعام، وأنتم تقولون إنهم على أتم الراحة والأمان، فأبي القولين أصدق؟ إنكم تشكون من أنني حجزت رسلكم هنا، وأنا لم أفعل ذلك إلا بعد أن بدأتوني بالعداء، إن الله وحده يعلم بالخفايا، وما هو في ضميركم، وكل ما يمكنني أن أقوله لكم إن أعمالكم كلها دلت على عدم تبصر وروية، ويلزم أن تحصدوا الزرع الذي غرستموه.

إنكم بأعمالكم قد وقفتم موقف العدو وما دام في الأراضي المصرية رجل مسلح من رجالكم فإني أعتبركم عدواً، وقد سبقت فأخبرتكم عن الشروط التي بها وحدها يمكنني أن أبدأ بالمفاوضة معكم، وهذه الشروط أرسلتها في كتاب مؤرخ في 28 صفر سنة 1334هـ، الموافق 4 يناير 1916م وهي كما يأتي:

- 1 - أن تردوا بسلام جميع الأسرى البريطانيين أو الهنود أو الأوروبيين الذين في أيديكم.
- 2 - يجب أن تبعدوا كل الأتراك أو الألمان الذين عندهم، وإن كتتم تجدون صعوبة في إبعادهم فيمكنكم أن تسلموهم لي أسرى حرب.
- 3 - يجب أن تخرجوا جميع رجالكم المسلحين من الأراضي المصرية وتعهدهوا بعدم دخول رجال مسلحين إلى الأراضي المصرية، وإذا دخلوا عوملوا معاملة أعداء حيثما وجدوا.
- 4 - يجب أن تجلبوا جلاء تاماً عن سيوة والسلم، وعن جميع البلاد التي إلى الشرق منها، وتقيموا بسلام في الجفنب، فإذا كتتم الآن تجيبون هذه المطالب، وتظهرون بالأعمال

أنكم تريدون أن تكونوا على الوداد فإني مستعد للتساهل معكم أكثر مما تؤملون⁽¹⁾.

الجنرال السير جون مكسويل

القائد العام لجيوش جلالة الملك بريطانيا العظمى

كانت تلك الرسالة قد كتبها ماكسويل قائد الجيش البريطاني في مصر بعد الاستيلاء على معسكر السنوسي واحتلال السلوم.

كان إدريس المهدي السنوسي أثناء تلك الحوادث ببرقة وكيلاً عاماً عن أحمد الشريف، وقد عرف سيادته ببعد النظر، والتضلع في معرفة الأمور، وكان قد نبه أكثر من مرة أحمد الشريف وأوضح له رأيه، وكان يرى عدم الدخول مع الأتراك ضد بريطانيا في الحدود المصرية، وقد أصبحت البلاد في حال يُرثى لها فقد تفتشت فيها المجاعة، كما تسرب إليها مرض الطاعون، وسدت السبل في وجوه الليبيين بعد ما كانت السوق المصرية مفتوحة الأبواب، وأصبحت الحيوانات بالجدب، وهي أهم موارد البلاد وقد أمسكت السماء، ودخلت البلاد في حروب مع إيطاليا من جهة، ومع الإنكليز من جهة أخرى، والتفت القبائل وشيوخها حول زعامة إدريس المهدي السنوسي⁽²⁾ وكتبت إلى إدريس بمقره في إجدابية بصفته صاحب الحق الشرعي في إمارة السنوسيين، ليتدارك ما وقع فيه ابن عمه أحمد الشريف الوصي على الإمارة بمحاربتة الإنكليز جرياً وراء الأتراك، خصوصاً أنهم لم يوفوا بوعودهم التي قطعوها له، فلم يرسلوا إليه بما يسد حاجة جيشه وبلاده كما وعدوه، بل ورطوا البلاد في نكبة الحرب ضد بريطانيا، وتركوا شعبها الأبى يموت جوعاً⁽³⁾ وكتب الأمير إدريس السنوسي إلى ابن عمه أحمد الشريف شارحاً له ما كان يجري في برقة، فرد الأخير برسالة مماثلة في أواخر سنة 1916م جاء فيها: «... اعمل ما تراه مناسباً، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، وأنا موافق على مطالب أهل الوطن حيث إن لهم حقاً في ذلك...»⁽⁴⁾.

كان فشل الحملتين الشرقية والغربية على مصر، وتدهور الحالة الاقتصادية في برقة من الأسباب التي ساعدت على ظهور الأمير إدريس على مسرح الأحداث، بعد أن أصبحت حاجة البلاد إلى قيادة جديدة تتولى معالجة تلك المواقف الحرجة، وسوف نرى بإذن الله تعالى الخطوات السياسية التي اتخذها الأمير إدريس، بعد أن تكمل مسيرة أحمد الشريف إلى وفاته.

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 134/2، 135.

(2) انظر: برقة العربية، ص317.

(3) انظر: تاريخ حرب طرابلس، محمد لطفني، ص57، رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار لمحمد العيسوي، ص19.

(4) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص108.

ثانياً: أسباب هزيمة أحمد الشريف :

- إن حملة أحمد الشريف فشلت في تحقيق أهدافها لعدة أسباب منها :
- 1 - لم تكمل الحملة استعداداتها العسكرية والاقتصادية، واتصفت بالسرعة، وعدم التخطيط الإستراتيجي .
 - 2 - لم يكن جيش أحمد الشريف على مستوى من القدرة القتالية والاستعداد الكامل بحيث يستطيع أن يخوض حرباً مع عدو قوي مزود بأحدث الأسلحة وأشدّها فاعلية .
 - 3 - ذهبت وعود الأتراك والألمان أدراج الرياح، ولم تستطع الغواصات الألمانية أن تقوم بالدور المنوط بها لتزويد المجاهدين بأدوات الحرب ومعداتها .
 - 4 - إن التوقعات التي كانت محتملة عن قيام الشعب المصري بثورة عارمة ضد الوجود البريطاني في مصر ذهبت أدراج الرياح حيث استطاعت بريطانيا تفرغ شحنات الغضب الشعبي بوعودها وأموالها الطائلة، وبمنحها الجاه والسلطان للعديد من كبار المصريين، كما أن ثورة علي دينار في دارفور بالسودان جاءت متأخرة «أكتوبر - نوفمبر 1916م» فسهل القضاء عليها، وبعد فشل حملة جمال باشا الشرقية على قناة السويس وفشل حملة الشريف الغربية عبر حدود مصر، ومن ناحية أخرى فإن الكثير من مشائخ وأعيان الجهات الجنوبية والغربية من مصر «أسيوط، الفيوم مثلاً...» لم يناصروا حركة الجهاد ضد الإنكليز .
 - 5 - اختيار نوري باشا لمكان العمليات قرب البحر مكن للإنكليز من استغلاله وبعث المزيد من الحملات بسرعة عاجلة، كما أتاح الفرصة لبحريتهم، فشاركت في المعارك، لقد كان ميدان المعارك في الجبهة الشمالية محصوراً بين البحر وعقبة السلوم بما يتجاوز الثماني كيلومترات عرضاً، فوجدت بذلك قوات المجاهدين نفسها مقيدة الحركة⁽¹⁾ .
 - 6 - كان لفشل جمال باشا قائد الجيش التركي في الشام في حملته على قناة السويس أثر كبير في هزيمة قوات أحمد الشريف؛ لأن الإنكليز قد انتهوا من الحرب على حدود مصر الشرقية، ففرغوا للحرب على حدودها الغربية، وجندوا جميع إمكانياتهم لها .
 - 7 - إن ميزان القوى كان منذ البداية لصالح الإنكليز، فالقوات المجاهدة كانت منهكة نتيجة صراعها مع إيطاليا الذي دام فترة طويلة «من سنة 1911م إلى آخر سنة 1915م»⁽²⁾ .

ثالثاً: الخلاف بين إدريس وأحمد الشريف :

كان رأي الأمير إدريس السنوسي بأن الحرب ضد بريطانيا لا تحقق أية نتيجة، وعلى

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 95.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 96.

السنوسيين استغلال الظروف الدولية، لتحقيق استقلال ليبيا، وكان يرى أن بريطانيا هي المؤهلة لأن تأخذ على عاتقها إنجاز هذا الأمر، أما أحمد الشريف فيرى أن حميته الدينية وغيرته الإسلامية تمنعه من الوقوف مع الإنكليز ضد تركيا.

لقد كانت علاقات الإنكليز بالسيد إدريس ودية منذ البداية، واستمرت العلاقات بين الطرفين تنمو وتزدهر طول عام 1913هـ، وفي بداية عام 1914م تجددت عندما توجه إدريس السنوسي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فمر في طريقه بمصر وقوبل بالاحترام والتبجيل من قبل حسين كامل، السلطان النائب عن الإنكليز في مصر، وحملته باخرة خاصة إلى حيفا، ومنها إلى الأراضي المقدسة، وفي طريق عودته لقي من الاحترام والتبجيل الزائد عن المرة الأولى، واجتمع مع اللورد كتشنر، قائد القوات الإنكليزية في مصر، ومن ثم نقل بطرد بريطاني إلى السلوم، حين جرى له وداع رسمي على الحدود، وكان أحمد الشريف قد كلف إدريس السنوسي تبليغ قبائل حرب والبالغ عدد مقاتليها ثمانون ألفاً والتابعة للحركة السنوسية أن تعمل ضد الإنكليز وأعاونهم في مصر والحجاز، وكان جواب إدريس بعد رجوعه من الحج إلى السيد أحمد الشريف بأن القبيلة أجابته: «لم يصبنا أي أذى من الإنكليز، فهم عدول وكرام، وأغنياء، بينما نجد الترك متصفين بالظلم والقهر والترفع»، وعليه فلا داعي للدخول معهم في أية معارك.

وقد كشفت الوثائق البريطانية رقم (2139، 2147، 2478) التي نشرت أن إدريس قد بلغ القبيلة بأنه يؤيد وجهة نظرهم، وأنه يحب الإنكليز ولا يود أن يرفع سيفه ضدهم.

وقد انعكست نتائج تلك الزيارة على علاقة إدريس بابن عمه السيد أحمد إذ ما لبث السيد إدريس أن أعلن أنه لا يوافق على بقاء الأتراك في القوات الوطنية، وطلب من أحمد الشريف ضرورة الحفاظ على العلاقات الإنجليزية السنوسية، ولما قوبل طلبه بالرفض الشديد من قبل أحمد الشريف ترك معسكره في مساعد، وتوجه إلى الجبل الأخضر، وأشاع بين الناس، بأن المنفذ الوحيد لسكانه مع مصر سيغلق إن استمر أحمد الشريف في سياسته المعادية لبريطانيا، وبالتالي فإنهم سيجدون أنفسهم وقد أحكم الطوق عليهم من الشرق والغرب.

لقد تلاقت أهداف الإنكليز مع تمنيات السيد إدريس، حين عرضوا على هذا الأخير الصلح والاعتراف بإمارته، وهو على برقة والجبل الأخضر نظير طرد نوري ومن معه من الضباط الأتراك، وإقناع ابن عمه بمغادرة المنطقة في المرحلة الأولى⁽¹⁾.

وقد وضحت أهداف إدريس في رسالته التي أرسلها إلى أحمد الشريف في 25 صفر 1335هـ، الموافق 21 ديسمبر سنة 1916م وجاء فيها:

(1) انظر: كلية الآداب جامعة الكويت، 1980م. 1399هـ، الرسالة الثانية في التاريخ، ص 18.

«ألم تنظر إلى ما حدث للشريف حسين أمير مكة، الذي عينه الأتراك، ثم وجد تحقيقاً لمصلحة بلاده أن ينقلب عليهم، ثم أرغم على الوقوف خصماً، فأعلن استقلال البلاد، ووافقت الدول المتحالفة على ذلك، ونودي به ملكاً على العرب، وهو الآن يبذل قصارى جهده في إدارة شؤون بلاده، فيؤسس المجالس وينشئ الإدارات والمصالح؟ ولو أنه قبل أن يدخل الحرب إلى جانب الأتراك لكان الحلفاء الآن يحتلون مملكته، كما احتلوا البصرة العراق ومناطق أخرى.

فالملك حسين كون جيشاً كبيراً الآن، ويريد احتلال الشام، وأرسل إليه الضباط وجاءت المدفعية من مصر، ووصله كل ما يحتاج إليه للقيام بحركة واسعة، وأذاع في العالم الإسلامي، أنه لا يريد بالإسلام شراً، وإنما يعمل فقط ضد جماعة الاتحاد والترقي، ويذكر في خطبه اسم الخليفة العثماني، وهو الخليفة المعتد، والذي فقد كل سلطة بفضل القيود التي فرضها عليه أولئك الذين أحاطوا به من كل جانب من هؤلاء الاتحاديين، وقرر العرب المحافظة على شرفهم والدود عنه ضد هؤلاء الجماعة أيضاً فأقاموه ملكاً.

ثم حدثني بالله يا سيدي، كيف يستطيع الأتراك غزو مصر ودخولها، وهم الذين أخفقوا في محاولة استرجاع الحجاز، وألا تنظر يا سيدي إلى السيد إدريس في بلاد اليمن، فهو يحتفظ دائماً باستقلاله، ويتمسك بحياده وهذا على الرغم مما يفعله الإنكليز الذين يحاولون إقناعه بمحاربة الأتراك، ومما يفعله الأتراك الذين يريدونه أن يحارب الإنكليز، ولكنه لا يريد أن يورط نفسه في شيء من هذا كله؟.

وكان في إمكانكم أن تفعلوا مثل هذا، قبل حادث السلوم، وكان في أيديكم الترك والإنكليز معاً، ولكن ما فائدة الحسرة على الماضي، والندم على ما فات، إن الذي أريد أن أسترعي نظركم إليه هو العالم الإسلامي؛ لأن الإسلام يريد أن يعرف، ومن حقه أن يدرك ويفهم فهماً صحيحاً ما تفعلون، وما تريدون ويجب علينا قبل كل شيء الانتباه إلى ما فيه فائدتنا، وما يحقق مصلحة بلادنا حتى لا تذهب ضحية لغيرنا⁽¹⁾.

رابعاً: آثار حملة أحمد الشريف ضد الإنكليز على حركة الجهاد:

كان لفشل حملة أحمد الشريف آثار سلبية على سير حركة الجهاد في برقة ضد القوات الإيطالية نذكر منها:

1 - ضاعت فرصة مواصلة القتال ضد الإيطاليين، في فترة انشغالهم بمعارك الحرب العالمية الأولى في أوروبا، وقواتهم في ليبيا محاصرة في المدن الساحلية، وغير قادرة على الحركة وتقديم المساعدة.

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص 191.

- 2 - تزعزعت العلاقات الروحية التي كانت تربط أحمد الشريف بالقبائل المصرية بسبب المواجهة بين الطرفين وسقوط القتلى من كل جانب؛ لأن الجيش البريطاني كان يضم رجالاً من أبناء تلك القبائل وضعف تعاطف المصريين مع القضية الليبية، وتضررت الزوايا السنوسية في صحراء مصر، وتحطم نفوذها السياسي والديني، وتشجيع الإنكليز على اتخاذ موقف مناوئ ومعادٍ لهم⁽¹⁾.
- 3 - انقطع الشريان الاقتصادي لحركة الجهاد في ليبيا وكان لهذا الانقطاع أثر كبير على المجاهدين وحركتهم.
- 4 - تأثرت نفوس المجاهدين وشعروا بالندم بما في ذلك السيد أحمد الشريف نفسه، ونستدل على ذلك من رسالة له إلى سليمان الباروني بمناسبة قدوم الأخير إلى طرابلس معيناً من قبل السلطان العثماني والياً على طرابلس، ومما جاء فيها:
- «... إني لو استطعت لقضيت عليهم - الطليان - وطهرت الأرض منهم اليوم قبل باكر، وتعرف أيضاً أنه ما تمكن مما تمكن منه إلا بعد حركتنا نحو مصر ولولاها كنا قذفنا به اليوم في البحر، وما كان له أثر ولا خبر ولكن تلك الحركة - الحملة - ولو أنها أفادت الدولة والملة من وجوه كثيرة، وشغلنا بها أكبر عدو لمقام الخلافة ناوأها العديد من السنين، إلا أنها كانت سبباً لنفوذ الطليان الذي لا يتألم منه أحد أكثر مما أتألم منه، ولو أن لي به قوة ما تأخرت يوماً عن مناوئته...»⁽²⁾.
- لقد اعترف السيد أحمد بخطئه وقال: «يُخيل إليّ أنني أخطأت عندما باليت ببناء إستانبول ذاك...»⁽³⁾.
- 5 - تغير الوضع السياسي للمجاهدين، ولم يعد المجاهدون من القوة، والاستعداد بالقدر الذي يمكنهم من الصمود، والإصرار على تحقيق مطالبهم، بل اضطروا تحت ضغط الحاجة إلى المهادنة، والتفاوض والتنازل، بعدما كانت قيادة المجاهدين صلبة قوية لا تلين، تطالب بشيء واحد فقط هو تحرير الأرض والوطن وإجلاء الغاصبين، ولا نقبل في ذلك مهادنة أو مصالحة أو تفاوضاً إلا على هذا الأساس؛ تحرير البلاد من الغاصبين⁽⁴⁾.
- 6 - لقد كانت حملة أحمد الشريف ضد الإنكليز في مصر كسباً ونفعاً كبيرين للإيطاليين،

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص97.

(2) حياة سليمان الباروني، لأبي القاسم الباروني، ص80.

(3) انظر: الطريق إلى الإسلام، لمحمد أسد، ص370.

(4) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص98.

ولأنها زعزعت قيادة أحمد الشريف، وأشعرتها بضعف إمكاناتها الحربية وقدرتها القتالية، ومهدت السبيل لطريق الصلح والتفاوض الذي قاده إدريس السنوسي فيما بعد⁽¹⁾.

خامساً: هجرة أحمد الشريف إلى تركيا:

وصلت قوات المجاهدين إلى الجغبوب، منهكة، متعبة لطول الحروب، فأذن أحمد الشريف للجنود، وقال لهم: من منكم يرغب بالذهاب إلى أهله ببرقة، أو الجبل الأخضر، فمعه الإذن، ولم يرخص لبعض المجاهدين، وذهب بعض المجاهدين وقال الباقون: والله ما نترك ما دمت حياً سواء نحيا أو نموت⁽²⁾.

وبادر الإنكليز بتهديد أحمد الشريف بواسطة ابن عمه إدريس، وطلبوا منه ترك الجغبوب وإلا ضرب قبر جده بالطائرات، واحتلت المدينة واستيحت للجنود.

غادر أحمد الشريف الجغبوب عن طريق الصحراء الكبرى إلى جالوا، وأوجلة، وزلة، والجفرة، وسوكنة، وهون، ومن هناك عرج على موقع سلطان بقرب سرت، وذلك عامي 1335هـ و1336هـ، وكان معه جيشاً جراراً وكانت المجاعة قد ضربت أطنابها في جميع أنحاء برقة، وبالرغم من ذلك كان أحمد الشريف الضيف الكريم أينما حلّ، ويقابل في كل موقع بالإكرام والتقدير والتبجيل، وتقدم له جميع المساعدات من الأهالي، وكانوا يقدمون له الجزر، والأغنام، وكل ما تصل إليه أيدي الأهالي من التمور والحبوب، وكان يطلب أشياء من الأهالي لبيتاعها منهم مقابل سندات يقدمها على نفسه، فكانوا يجيبونه بكل ذلك، وقد اتصل كل إنسان بحقه عندما وصل أحمد الشريف إلى الأستانة، إذ راسل من هناك مندوباً خاصاً يحمل المبالغ الكبيرة لتسديد تلك السندات وإيفاء كل ذي حق حقه⁽³⁾ ومن بين من تقدموا لخدمته بصدق وإخلاص والحالة هذه سيف النصر شيخ مشايخ أولاد سليمان وأولاده: أحمد، وعبد الجليل، وعمر، ومحمد، وقاسم، وقاموا بكل لوازم أحمد الشريف وأتباعه من المصاريف والأرزاق لمدة ستة أشهر⁽⁴⁾ وقالوا: إن جميع ما نملكه وتملكه قبيلتنا هو لكم وتحت تصرفكم⁽⁵⁾، وكان أحمد الشريف لا ينساها لهم ويشيد بها بين الخاص والعام في كل مناسبة، ويقول: وجدناهم صادقين عند الحاجة⁽⁶⁾ وكذلك وقفت الكثير من قبائل المغاربة وعلى رأسهم صالح باشا

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 99.

(2) انظر: الفوائد الجلية 2/ 45.

(3) انظر: برقة العربية، ص 318.

(4 - 5) انظر: الفوائد الجلية 2/ 46.

(6) المصدر السابق نفسه، ص 319.

الأطيش، والشيخ السنوسي البراني، والشيخ عبد المجيد سليم القبائلي، والشيخ ابن شرادة⁽¹⁾.

ولما وصل أحمد الشريف إلى العقيلة تقدم إليه أحمد بن إدريس الأشهب بواجب الضيافة وأعطاه سبعة جمال هي كل ما في وسعه ليذبحها للجند، ويقتاتوا بها كضيافة لهم، وكان تهيئة مؤن أحمد الشريف الخاصة من قبل أحمد بن إدريس وهي مؤلفة من البيض المسلوق، واللحم، وشيء قليل من خبز الشعير، وكلما يأتي هذا الطعام الخاص بالسيد أحمد، ورجال مائدته، وهم محمد صالح حرب، ووصفي باشا الخازمي، والأستاذ مصطفى الهوني، وعبد السلام باشا أبو قشاة، وطبيب السيد الخاص عبد السلام أفندي المسلاتي، وعندما يأتي الطعام المذكور يبادر أحمد الشريف بتوزيعه على بعض الجنود في حين أنه لا يكفي السيد ورفاقه الخاصين، وأحياناً لا يمسك منه شيئاً بالمرة، فقاسى - كَقَلْبَةٍ - ما قاسى من أنواع الشدائد ما لا تحمله الجبال بصدر رحب وجلد عظيم، وكثيراً ما تمر الأيام عليه بدون أن يتناول شيئاً يسد به رمقه ومع كل هذا لا يعرف عنه أنه شكا أو تألم⁽²⁾ وقد تساقط عشرات الموتى بسبب المجاعة والحصار المفروض عليهم⁽³⁾.

سادساً: القافلة ورمضان السويحلي:

راسل محمد صالح حرب نوري باشا في مصراته، ووضع له الحالة التي يمرون بها وطلب منه مدهم بالسلاح والذخيرة، والملابس والمال، حتى يتمكنوا من مواصلة جهاد الإيطاليين، وكان أحمد الشريف قد راسل رمضان السويحلي، وناشده باسم الأخوة الإسلامية وطلب منه المساعدة والوقوف معه، فوافق السويحلي، وأرسل أحمد الشريف قافلة يرافقها الطبيب عبد القادر المصري، وما يزيد عن خمسة وعشرين رجلاً من خيار رجاله، يصحبهم الشيخ محمد بو طريف، ومعه كتاب وهدية إلى رمضان السويحلي، واشترت القافلة لوازمها من شراء بعض الأمتعة والملابس⁽⁴⁾ وقام نوري باشا بتزويد القافلة بالسلاح والذخيرة، والمؤن، حتى يؤكد لزعماء طرابلس على أن الدولة العثمانية لا يمكن أن تتخلى عن أصدقائها، ومناصريها⁽⁵⁾.

وعند رجوع القافلة إلى أحمد الشريف تعرضت لهجوم غادر نتج عنه قتل جميع أفراد

(1) انظر: برقة العربية، ص 318.

(2) انظر: المصدر السابق.

(3) انظر: الفوائد الجلية (2/46).

(4) انظر: المصدر السابق.

(5) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 162.

القافلة، وسرقت الأموال، والمؤونة، والسلاح، ويؤكد معظم المؤرخين أن رمضان السويحلي دبر أمر القضاء على هذه القافلة واغتصاب أرزاقها، وقتل أفرادها، ويذكر العيساوي: «إن السويحلي جهز قوة خفية عن نوري باشا قدرها مائة نفر مسلح، وجعل عليها رئيسين أحدهما يدعى محمد سليمان الجطلاوي والثاني عبد العزيز الدينخ، وأمر تلك القوة أن تجد في السير لتكمن في وادي ززم، وقد نفذت هذه الخطة بدقة⁽¹⁾، وفاجأت قوة السويحلي القافلة في منطقة تماد حسان قرب تاورغاء⁽²⁾.

ويرى المؤرخ المتعاطف مع رمضان السويحلي محمد مسعود فوشيكه إن المعركة التي انتهت بانتصار جماعة الحداد والعودة إلى رمضان بصناديق النقود، إنما تمت بعلم رمضان نفسه، مما جعل بعض المخلصين له يلومونه كثيراً بسبب تجاهله ماضي السيد أحمد الشريف في الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، والغزو الإيطالي لبرقة، وفي عدم مبالاته بالظروف الصعبة التي كان يمر بها وحاجته الماسة إلى المساعدة⁽³⁾.

أما الشيخ محمد بن حسن عبد الملك المصراتي قاضي مصراته عام 1915م فقد أشار إليها بقوله: «كنت أنا ومن معي وقت وقوع هذه النازلة الشنيعة بمعية السيد أحمد الشريف السنوسي، وقد بلغتنا قبل بلوغها بخمسة أيام وكنمنا أمرها حيث أن من حاشيته من يزين له أعمال رمضان، فلو سارعنا بإبلاغها وقتها لقليل لنا: إننا مفتنون فوكلنا أمرها للأيام والليالي...»⁽⁴⁾.

أما الشيخ طاهر الزاوي فيرى: «... أن سياسة الترك مجمعة على كراهة السنوسية، إلا أن بعضهم يجاهر بذلك وينادي بقطع الصلة بهم، وفريق يكتم هذه الكراهة في صدره ويريد أن يسلب بعضهم على بعض لينتقم لنفسه منهم بأيديهم، وقد أراد نوري - بما له من النفوذ في مصراته - أن يمد السيد أحمد الشريف بإعانة فأرسل إليه إعانة مالية، وبعض البنادق، ولكن الأتراك الذين لا يريدون الصلة بالسنوسية دبروا مكيدة ضد هذه المعونة، فأرسلوا من تربص لمن أرسلت معهم فقتلوهم عن آخرهم، وأخذوا ما معهم من المال، ولم يعلم رمضان بشيء من أمر هذه المكيدة إلا بعد وقوعها...»⁽⁵⁾.

ويبدو للباحث أن الفعلة الشنيعة كانت مؤامرة ضد مساعي الصلح التي حرص أحمد الشريف على نجاحها بينه وبين رمضان السويحلي، وأحمد المريض وغيرهم، ولذلك خاف

(1) انظر: رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، ص 53.

(2) انظر: الفوائد الجلية (47/2).

(3) انظر: رمضان السويحلي البطل الليبي الشهيد، ص 128.

(4) انظر: رفع الستار عما جاء في كتاب عمر المختار، ص 54.

(5) انظر: جهاد الأبطال، ص 198.

الأعداء من حصول الصلح بين أحمد الشريف ورمضان السويحلي، فدبروا تلك المكيدة، والقرائن الكثيرة تدل على أن رمضان السويحلي ألصقت به التهمة، ولا يوجد دليل واحد قوي على إثباتها، بل القرائن تدل على عكس ذلك حيث أن رمضان السويحلي كان في تلك الفترة يتلقى الدعم من تركيا وألمانيا بواسطة الغواصات، وأحمد الشريف نائب الخليفة في إفريقيا، قام بتضحية عظيمة وجهاد جليل، خدم به المصالح التركية، كما أن سيرة رمضان السويحلي تدل على أنه من المجاهدين الذين زادوا عن هذه البلاد، إلا أن له أعداء كثيرين عملوا على تشويه سيرته الجهادية التي تحتاج إلى من يتفرغ لدراستها، وتحليلها وإلقاء الضوء عليها، ولا ننسى أن إيطاليا عملت بواسطة عملائها على إيجاد الفرقة والعداوة بين رمضان والحركة السنوسية وقادة الجهاد في غرب ليبيا، ويبدو أنها نجحت بواسطة مكائدها ومؤامراتها المتوالية لتحقيق هذا الهدف الحقيقير.

أما رأي أحمد الشريف في رمضان السويحلي فيظهر في الرسالة التي أرسلها إلي وصفي بك في المحرك سنة 1340هـ قال ﷺ مخاطباً وصفي بك:

«نعم أيها الولد الكريم المحترم، فإني والله تأسفت غاية الأسف على ما حصل . . . إلى أن قال: «فبالله الذي لا إله إلا هو إني كنت عازماً على إكرام رمضان بك السويحلي وإنزاله المنزلة التي ما كان يظنها، والناس الذين سعوا في الفساد مثل أمين وغيره فهؤلاء لا حاجة لهم في صلاح الوطن، بل حاجتهم في امتلاء جيوبهم . . .» إلى أن قال: «وقد بلغني ما أساءني جداً وهو قتل المرحوم رمضان بك السويحلي فإني والله تأسفت غاية الأسف، لأنه كانت حاصلة منه رهبة للبلاد، ومنفعة عمومية لأهلها، ونحن كل من سعى في المصالح العمومية فهو حبيينا . . .»⁽¹⁾. لقد اشتد الأمر بأحمد الشريف وأتباعه، وزادت الظروف قسوة عليهم، وأراد المجاهدون أن يهجموا على مصراته انتقاماً ممن قضى على القافلة إلا أحمد الشريف استطاع بفضل مكانته بين المجاهدين من تهدئة النفوس الشائرة⁽²⁾.

بعث أحمد الشريف قائده محمد صالح حرب إلى الأمير عثمان فؤاد المتواجد في مصراته، وحمله رسالة هامة إليه، يطلب من الأمير العثماني أن تقوم إحدى الغواصات الألمانية بنقله إلى الأستانة ليقابل صديقه القديم أنور باشا وزير الحربية، وليبحث معه تطورات الموقف في ليبيا، وعلى ضوء ذلك يمكن أن يرجع السيد أحمد مزوداً بكل ما يساعده على الاستمرار في الجهاد في ليبيا، أو أن يبقى في الأستانة مؤقتاً حتى يتسنى له الذهاب إلى الحجاز «الأراضي المقدسة بمكة والمدينة» حيث يخلص العبادة إلى الله بعد أن عمل ما في وسعه من أجل قضية

(1) انظر: جهاد الأبطال، ص200.

(2) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص164.

بلاده، ولكن الظروف المحلية في ليبيا والعالمية منعت من تحقيق أهدافه الإسلامية . وقد اجتمع محمد صالح حرب مع الأمير عثمان فؤاد، وأوضح له حالة وظروف السيد أحمد الشريف، وبين له معظم آرائه ومطالبه، كما اجتمع برمضان السويحلي مع الكثير من أعيان مصراته، ووجهائها، وعاد مندوب أحمد الشريف بسلام، وكانت نتيجة هذه الرحلة العمل على نقل أحمد الشريف إلى العاصمة العثمانية بواسطة إحدى الغواصات الألمانية، وبالفعل وضعت وزارة الحربية الألمانية تحت تصرف أحمد الشريف غواصة لنقله مع بعض أتباعه إلى النمسا، واتفق على أن تبقى قواته في منطقة العقيلة في انتظار عودته، على أن تتلقى من القيادة العثمانية في مصراته، ما يمكن أن تجود به عليها مما كانت تحضره إليها الغواصات الألمانية⁽¹⁾.

ووصلت الغواصة الألمانية إلى برقة وكان بها يوسف باشا شتوان، وحسام الدين بي، وهما عضوان هامان في منظمة تشكيلات مخصوصة⁽²⁾ ويحملان رسالة من السلطان محمد وحيد الدين إلى السيد أحمد الشريف، يدعوها فيها لزيارة إستانبول «والسبب الحقيقي لهذه الدعوة هو أن الحالة في تركيا أصبحت تندر بالخطر العظيم بسبب ثورة أمير مكة حسين ضدها، ومتابعة القبائل والجيوش العربية له، وانحلال جبهات القتال في فلسطين وسوريا والعراق، وكانت الحكومة العثمانية تثق كامل الثقة في إخلاص السيد أحمد الشريف للإسلام والخلافة، فأرادت أن تقنعه بالدخول في مفاوضات بينها وبين الشريف الحسين بن علي، على أن تعطي الشريف حسين مطالبه، هذه هي الحقيقة التي طلب من أجلها، أما في الظاهر فهو كما ذكر في وقته لتقليد السيف للسلطان عند جلوسه على العرش، وللمفاهمة معه في خصوص ليبيا⁽³⁾.

لبي سيادة أحمد الشريف طلب السلطان محمد وحيد الدين، وأتاب عن المجاهدين أحمد بن محمد بن أحمد الريفي، وأمره بالانضمام إلى الأمير محمد إدريس بعد سفره، وسافر من البريقة وركب معه الشيخ محمد عبد الله الموهوب، محمد صالح حرب، عثمان الشائقي، عبد السلام أبو قشاطة، الدكتور عبد السلام المسلاتي، وصالح بن محمد أبو عرقوب البرعصي، وركب الغواصة في شهر سبتمبر سنة 1918م، الموافق ذي القعدة 1336هـ⁽⁴⁾.

وجاء على لسان الأمير شكيب أرسلان قوله: «قال لي السيد أحمد الشريف: قبل ركوبي الغواصة تحادثت مع الضباط الألمان الذين فيهم وسألتهم عن خطر ركوبها فقالوا لي: لا يخلو الأمر من الخطر، ولكني ما باليت بذلك لأنني كنت رأيت أستاذي سيدي أحمد الريفي في المنام

(1) انظر: الحركة الوطنية، ص172.

(2) المصدر السابق، ص172.

(3) انظر: الفوائد الجلية، 2/49.

(4) المصدر السابق نفسه، 2/50.

فقال لي: الشيء الفلاني ستأخذه من بولا، ففي اليوم التالي سألت الضابط: هل يوجد محل اسمه بولا؟ فقالوا لي: نعم إن المرسى الذي ستنزل فيه من بلاد النمسا اسمه بولا، فاعتقدت أننا بالغو هذا المكان بحول الله وقوته⁽¹⁾.

اضطرت الغواصة أن تبتعد عن الجزر التابعة لإيطاليا خوفاً من الديناميت المزروع في المدخل، وصادف أن اصطدمت بقمة صخرة كبيرة في قاع البحر وتعطلت محركاتها، وخاف قبطانها والبحارة خوفاً شديداً، وكان أحمد الشريف أثناء ذلك منهمكاً في صلاته وعبادته التي كانت شبيهة بتسبيح نبي الله يونس عليه السلام عندما كان في بطن الحوت، وفي قعر البحر، فلما أخبروه بالواقع وأتم صلاته التي كان فيها، ثم قام ببساطة ورباطة جأش وبقدرة الله العلي القدير وسبب دعاء أحمد الشريف إذ بالمحركات تعمل فجأة، وسر الجميع وعادت لهم الطمأنينة وحمدوا الله على النجاة⁽²⁾ ولا شك عندي أن أحمد الشريف قد تلا قول الله تعالى: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنْتَ سُبْحٰنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (AV) فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿ [الانبيا: 87-88].

وقد عرف عن أحمد الشريف صلته بالله القوية، وكان دائماً يرشد أتباعه إلى الالتجاء إلى الله القوي العزيز، ففي معاركة مع الإنكليز، وبعد معركة وادي ماجد الثانية انسحبت قوات المجاهدين إلى بئر الصريحات، ولما لم يجد الجيش ماء بهذا المكان الأخير انسحبت قوات المجاهدين إلى بئر يونس على أمل العثور على ماء، ولما لم يجدوا بها ماء كذلك، أشار أحمد الشريف باستسقاء الماء، ففتحت أبواب السماء وانهمر المطر مدراراً حتى رويت قوات المجاهدين، وظل المطر ينهمر يومين⁽³⁾.

إن صلاة الاستسقاء سنة مؤكدة بإجماع علماء المسلمين، والاستسقاء طلب السقيا من الله تعالى عند حدوث القحط والجذب والتضرر من ذلك، ولا شك أن التقرب إلى الله وطلب مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير⁽⁴⁾.

وكان أحمد الشريف لصدقه وإخلاصه يقيض الله له من يدافع عنه في غيبته، فعندما كان أحمد الشريف مخالفاً لرأي أنور باشا وجعفر العسكري في شن الهجوم على الإنكليز في مصر ولم يوافق على ذلك، كانت حركة منظمة تشكيلات مخصوصة تشن حرباً إعلامية على أحمد الشريف في إستانبول، فقيض الله شكيب أرسلان للدفاع عنه حيث قال: كنت أشم من معية أنور

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 2/ 153.

(2) انظر: الفوائد الجليلة (2/ 51، 52).

(3) انظر: السنوسية دين ودولة.

(4) انظر: توضيح الأحكام للبسام (2/ 432، 433).

باشا رائحة الوحشة من سيدي أحمد الشريف، وأسمع بعض رجال الدائرة المسماة بدائرة «تشكيلات» التابعة للحرية يلمزون السيد، ويعزون إليه أموراً، كنت على يقين أنها بهتان محض، مثل كونه يريد الخلافة لنفسه، ومثل إنه غير مخلص للدولة وما أشبه ذلك، وكان أنور دعاني مرة للإفطار معه في رمضان، فقلت له: «إن بعض بطانتك بدؤوا يغمزون السيد أحمد الشريف ويشيعون عنه أراجيف يصعب تصديقها، وهذا الأمر يمس جانبك أنت، ولا ينحصر في السنوسية، لأن أكثر مظهرك كان بهؤلاء الجماعة، فإن ظهر بعد ذلك أنهم خائنون، لا سمح الله، فتكون أنت المعلوم، ويستدل الناس بذلك على كونك فاشل الرأي، وإن كان عندك شيء راهن بحقهم، فصرح لي به لتعلم درجة الخير من الصحة، قال لي أنور رحمته الله: «حاشا، ما يقدر أحد أن يتهم سيدي أحمد الشريف بالخيانة ولكن الإنكليز كانوا يخدعونه أحياناً»، قلت له: «إن سيدي أحمد الشريف لم ينخدع للإنكليز، وإنما يصانعهم كما يصانعونه، وما تلكاً عن محاربتهم إلا خشية الفشل، إذ كان يعلم أن القوة التي لديه غير كافية للدخول إلى مصر، أفلا ترى كيف أن الإنكليز مجرد زحف الأربعة آلاف مجاهد إلى مرسى مطروح، رموهم بثلاثين ألف مقاتل، وبالمدافع والطائرات والدبابات، ولولا لطف الله بهم لوقعوا جميعاً أسرى وأخوك من الجملة...» قال لي أنور: «أنا أعطيتهم أوامر بأن يتجنبوا المعارك الفاصلة» فقلت له: «يا سبحان الله: أنت عسكري صنعتك الحرب وأدرى مني بهذه الأمور، أفإذا هاجم الإنسان من هو أقوى منه مراراً، أفيبقى له الاختيار في الكر والفر؟» وانتهت هذه المحاوراة باقتناع أنور، وتركه مؤاخذاً السيد⁽¹⁾.



(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (2/ 152، 153).

المبحث السادس

وصول أحمد الشريف إلى تركيا

وصل أحمد الشريف إلى بولا «الساحل النمساوي» بعد أسبوع تقريباً من ارتحاله، وواصل سفره إلى فيينا عاصمة النمسا برفقة حاشيته، وهناك أرسل إليه الإمبراطور النمساوي يريد مقابلته، ودون علم السيد أحمد، أجاب يوسف شتوان الإمبراطور بالرفض، ولما علم السيد أحمد الشريف بذلك أبدى استياءه، وذكر أنه كان من اللائق مقابلته لا سيما أنه هو الذي طلب المقابلة⁽¹⁾.

وتابع السيد أحمد رحلته إلى إستانبول، وهناك استقبله كبار رجال الحكومة العثمانية استقبالاً حافلاً ورسمياً في محطة «سركه جي» حضره بعض المسؤولين العثمانيين، يتقدمهم صديقه أنور باشا وزير الحربية العثمانية، كما حضره أيضاً إبراهيم بك، وإحسان بك كاتب الديوان السلطاني، وفؤاد بك مدير التشريعات، وعلي رضا شيخ الإسلام وأمين الفتوى.

وأنزل بسراي طوب كوبر، التي كانت مقر الخلفاء من آل عثمان⁽²⁾ وفي اليوم التالي خصصت له مقابلة رسمية مع السلطان وحيد الدين، الذي منحه وسام النيشان المجيدي من الرتبة الخامسة⁽³⁾.

ورغم بعد السيد أحمد الشريف عن ميادين الجهاد في ليبيا، إلا أنه واصل جهوده من أجل تحرير ليبيا، وكان له نشاطات على ذلك الطريق الطويل منها: اتفق مع أنور، والسلطان العثماني على الرجوع، لتقوى به عزائم المجاهدين، وقرر الأتراك مده بالمال والعتاد والسلاح وتقرر إعطاؤه 12,000 بنديّة مع عدتها، عشر مدافع، وثلاثين رشاشاً، و200,000 جنيه فسأله السيد قائلاً: بلغني من بعض الضباط الطرابلسيين الذين في خدمة الدولة، إنكم تبغونني أقاتل ابن عمي سيدي إدريس، لكونه اتفق مع الإنكليز والطلليان» فقال له أنور: «معاذ الله أن نبغي منك ذلك، لأننا نعلم أنه لم يبق للإسلام في إفريقيا حصن أحصن من هذا البيت السنوسي الكريم، وإنه إن وقع لا سمح الله الشقاق في هذا البيت فسد الأمر، واضمحلقت القوة السنوسية التي عليها معول الإسلام في إفريقيا، فكن على ثقة بأننا نبغي اتحادكم قبل كل شيء نصحاً بالإسلام وضناً باستقلاله، وإن معاونتنا لكم إنما هي محض حمية على الإسلام؛ لأن تركيا من جهتها لم يبق لها

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (2/154).

(2) سراي طوب كبو تقع على ضفة البسفور الغربية أجمل بقعة في إستانبول.

(3) انظر: الفوائد الجليلة (2/52).

أدنى أمل باسترداد طرابلس؛ ولأننا لا نحب إخواننا مسلمي إفريقيا تبعة للأجانب»⁽¹⁾.

وتتابعت الحوادث بسرعة البرق، فتغيرت الوزارة في تركيا، وسقط أنور، وندم أحمد الشريف على تأخره عن سفره، وحاول الانسلاخ من الأستانة إلى النمسا، حتى يركب منها الغواصة راجعاً إلى ليبيا، واضطر مع دخول الخلفاء إلى الذهاب إلى بروسة، وكان الأتراك أينما حل يكرمونه غاية الإكرام، وكان في نيتهم الوقوف مع مجاهدي ليبيا ولكنه سبق السيف العذل، وحصل ما لم يخطر ببال، والأمر بيد الله وهو الفعال في ملكه ما يشاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

لقد دخلت جيوش الحلفاء إلى إستانبول واستولت على عموم الولايات والموانئ، وعقدوا العزم على إبادة تركيا، وتشتيها وتقسيمها، وأراد الإنكليز أن يستغلوا هذا الظرف لصالحهم وبدءوا في تنفيذ مخططهم الهادف إلى تدمير الدولة العثمانية بواسطة الأتراك أنفسهم المتصلين بالنوادي الصهيونية، والماسونية، والدول الغربية، وحرصوا على أن يجعلوا منهم أبطالاً ضد الحلفاء ثم يقومون بتدمير الخلافة الإسلامية كلياً، وكان من المؤهلين لتنفيذ هذا المخطط الرهيب: مصطفى كمال، الذي لبس في بداية أمره ثوب الإسلام ورفع شعار الجهاد لحين من الزمن، وقاد حرب التحرير ضد اليونان التي احتلت أزمير في 16 مايو 1919م وكان يلقي الخطب الحماسية ويقول: «موتنا أعزاء شرفاء خير من حياتنا أرقاء أذلاء تحت اليهود النصارى يلعبون بمقدراتنا ويمتصون دماننا وأموالنا، ويعتدون على أعراضنا وديننا وكرامتنا»⁽²⁾، واستطاع أن يقود المقاومة الشعبية الضارية التي فضلت أن تموت في سبيل عقيدتها بدلاً من الرضوخ للأعداء، وهكذا ظهر مصطفى كمال في ثوب المسلم الوطني المتدين الثائر وأصبح السلطان تحت قيود الخلفاء، وأصبحت تركيا تحت زعامتي مصطفى كمال، والسلطان وحكومته، وعمل مصطفى كمال على كسب أحمد الشريف لصفه لعلمه لما له من المكانة الروحية العالية في قلوب المسلمين، وكان مصطفى كمال ابتداءً حركته باسم الدين حتى أنه أمر بإحراق جميع الخمر، وتكسير أدواتها ومعاملها، وإبعاد جميع النساء المومسات، وإغلاق دور الدعارة، وإصدار أوامر شديدة بلزوم المحافظة على الصلوات في أوقاتها، وجعل يوم الجمعة يوم عبادة للعموم، وأمر بإغلاق المتاجر والمقاهي، والمنتزهات في كل يوم جمعة اعتباراً من يوم الضحى إلى بعد صلاة الجمعة، وهكذا تظاهر بهذه الأمور حتى أغرى المسلمين وقالوا: هذا مجدد الدين ومنقذه، ولذلك قرر أحمد الشريف بعد تفكير طويل الذهاب إلى الأناضول والانضمام إلى مصطفى كمال رغم ما جاء من الرسل والرسائل من طرف السلطان

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي (155/2).

(2) انظر: الفوائد الجليلة (53/2، 54).

وحكومته يحذرونه من الانخداع بمظاهر مصطفى كمال المصطنعة، وادعاءاته الكاذبة ويقولون لسيادته هذه كلها حيل لكسب عطف الشعوب الإسلامية عليه وإذا تمكن فسوف يقلب المحجن، ويكون حرباً على الإسلام، وإليك ما كتبه الداماد خالد درويش باشا: «يا مولانا يا خادم الإسلام يا فرع الدوحة النبوية المباركة، إياك أن تغتر بمظاهر الدين التي يصطنعها مصطفى كمال للوصول إلى غايته فإنني ربيته في بيتي، وبين عائلتي، وعرفت ظاهر أمره وباطنه فما في قلبه ذرة من إيمان أو خوف من الله أو مبالاة بما يعمله ودينه هواه، ولو تمكن لأضر في الإسلام والمسلمين، وأنا كابنك وأخيك ومحبك أقول لك هذا، ولولا محبتكم التي ملكت على جميع جوارحي ما قلته لكم، وربما سيكون قولي هذا في يوم من الأيام جريمة نؤاخذ عليها ونسأل الله أن يرشدنا إلى ما فيه سعادتنا في الدارين آمين. المحب المخلص» الداماد خالد درويش، جمادى الأولى 1338هـ⁽¹⁾، كل ذلك لم يغير عزمه، سافر أحمد الشريف إلى الأناضول ونزل في «اسكى شهر» وكان انضمام أحمد الشريف نصراً عظيماً لمصطفى كمال لما له من المنزلة الروحية الكبيرة في قلوب مختلف الشعوب الإسلامية، وكان الناس يعتقدون أن أحمد الشريف لا يميل إلا إلى الجبهة التي على الحق، واحتفل به قائد الجبهة في «اسكى شهر» المدعو عصمت باشا ودعا إلى الاحتفال قادة الجيش، وأعيان البلاد ووجهائها، وألقى كلمة في ذلك الاحتفال الكبير، فقال: إنكم اليوم في ميدان الشرف، وإنكم الآن بعملكم هذا تعيدون للإسلام عزه ومجده وتفضون عنه الغبار الذي علق به وتخلدون بطولتكم وتكتبون في صحائف التاريخ الإسلامي أسماءكم بحروف من نور، وعليكم أن تتموا هذه الرسالة العظيمة التي كلتم بها، وأن تغنموا هذه المكرمة وفقكم الله وأعانكم»⁽²⁾ وتأثر بتلك الكلمة الحاضرون وقالوا: يا مولانا لقد أيقظتم فينا الهمم، وبعثتم فينا روح القوة، والمقاومة، والاستماتة في سبيل إعادة عزتنا ومجدنا، ولكم علينا عهد الله وميثاقه أن نمضي في هدفنا حتى النصر أو الشهادة، ثم توجه أحمد الشريف بعد مقامه في «اسكي شهر» إلى أنقرة بالسكة الحديدية، وفي محطة أنقرة قابله مصطفى كمال وكافة رجاله، وكان يوماً حافلاً بأنواع المظاهر والزينات، ونزل في منزل مصطفى كمال الخاص به، وبدأت اتصالات مصطفى كمال مع السيد الشريف في أمور كثيرة⁽³⁾.

أولاً: عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف نيابة الخليفة وجهاده مع الأتراك:

عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف منصب نيابة الخليفة وقال لسيادته: إن كافة الوزارات أصبح لها عندنا وكلاء يقومون باختصاصها بصفة مؤقتة حتى تمام النصر إن شاء الله تعالى، غير أن مقام نيابة الخليفة لم نجد له من يليق به إلا سيادتكم ونرجو أن تتموا لنا هذا

(1) انظر: الفوائد الجلية (2/ 57، 58).

(2 - 3) المصدر السابق نفسه (2/ 59، 60).

النقص في جهازنا، ولكم علينا ميثاق الله وعهده أنا سنقوم بكل ما يترتب علينا نحو هذا المقام، ونرجو أن تتموا لنا نقصنا هذا، فقال له السيد أحمد الشريف: أنتم الآن مشغولون بما هو أهم، مشغولون بصد العدو المهاجم لكم، والمحيط بكم من كل ناحية وتحتاجون إلى من يؤازركم فعلياً في ميادين الجهاد لا من يجلس على الكرسي، ثم أنتم فيكم البركة وإجراءتكم حكيمة وصائبة، وأنا أحب أن أساهم معكم فعلياً في جهادكم هذا بقدر استطاعتي في أي جهة كانت، وأرجو أن تعذروني، وسوف يأتي الوقت الذي لا تحتاجون فيه إلى غيركم، وأنا معكم في السراء والضراء حتى يتم النصر إن شاء الله، فقال له مصطفى كمال: أنا مطمئن، وواثق من ذلك، وهذا ظني وظن كل من يشاركني في هذه الثورة، وفي الحقيقة ما تعلمت هذه الدروس المفيدة ولا تشربت في جسمي هذه الروح الأبية إلا في مدرستكم التي أسستموها في برقة المجاهدة، وها أنتم اليوم تؤسسونها عندنا من جديد، وبذلك سنتنصر بحول الله وقوته وستجني ثمرة جهادنا هذه ببركة مشاركتكم لنا، ووجودكم بيننا، فأنت الأب، وأنا الابن، وكل ما تراه صالحاً مرناً به ونحن على أتم الاستعداد للتنفيذ وفي اتباعنا لكم شرف لنا⁽¹⁾.

لقد أتقن مصطفى كمال دور النفاق والتدليس، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُمَجِّبُكُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَاكِينِ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلْمَهَادُ﴾ [البقرة: 204-206].

إن أحمد الشريف انخدع لكلام مصطفى كمال الذي مرد على النفاق وتفنن فيه؛ لأنه اكتفى بالظاهر، وترك الباطن لعالمه سبحانه وتعالى، ولأن مصطفى كمال ظهر بثوب الجهاد، وصد المعتدين، فالوقوف بجانبه واجب شرعي، هذا رأي أحمد الشريف حسب ظني.

ساهم أحمد الشريف بطلب من مصطفى كمال في إخماد ثورة الأكراد وخرج إليهم والتقى بشيوخهم ودعاهم إلى الوحدة، والوقوف صفاً واحداً ضد أعداء الدين، وطلب شيوخ الأكراد من أحمد الشريف أن يقيم بوسطهم، ويتولى أمرهم، فامتنع عن ذلك وقال: إنما أنا مجمع ولست مفرق، ومصالح ولست بمفسد، وسمع الأكراد وأطاعوا، وأخذ عليهم موثيق غليظة لوقوفهم مع مصطفى كمال، وبقي في ديار بكر، ونصيبين، وماردين، مدة ستة أشهر حتى تحقق تماماً من تهدة الثورة.

وفي مدة إقامته في ديار بكر كانت القوات اليونانية تتقدم، والقوات الكمالية تدافع، غير أن القوات اليونانية انتصرت في عدة مواقع، وقامت بهجمات خاطفة، وجعلت هدفها أنقرة، فاندحرت القوات الكمالية أمام الجيوش اليونانية، واحتلت الجبهة تماماً، وتحققت حكومة

(1) انظر: الفوائد الجليلة 2/60.

مصطفى كمال من الفشل، وأخلت بلدة أنقرة من كل شيء إلا الجنود⁽¹⁾.

وكانت القوات اليونانية قد استولت على ولاية أزمير وبروسة ومدانية، وعلى كوتاهية، وإسبارطة، وأفيون قره حصار، وإسكيشهر، وأخيراً قصدت العاصمة أنقرة، حتى لم يبق بينها وبين أنقرة إلا عدة كيلومترات، واضطربت الأحوال، وارتبكت حكومة أنقرة، وبدأ مصطفى كمال يوالي برقياته المطولة المثيرة إلى سيادة أحمد الشريف ويقول لسيادته فيها: تغلب علينا العدو، فاضرعوا إلى الله ليدركنا بعنايته، وكانت برقيات مثيرة تأثر منها أحمد الشريف تأثراً بالغاً، ورد أحمد الشريف على برقيات مصطفى كمال وقال له: ثق بالنصر من الله، ويأتيك الغوث إن شاء الله تعالى، ثم انتدب إليه رفيقه في جهاده الشيخ محمد عبد الله الزاوي، وأعطاه مصحفاً شريفاً، وسيفاً، وبرنساً من ملابسه الخاصة، وقال له في كتابه الخاص: بعثت إليك بمصحف الله تعالى، وسيف النصر، وكسوة العز والفوز إن شاء الله تعالى، فلما وصل مندوبه إلى مصطفى كمال وهو في الجبهة على رأس الجيش المستमित على نهر «سقاريا» سلمه الرسالة، وأعطاه الأمانة، فأمر مصطفى كمال بالتعبئة العامة، والهجوم المعاكس على العدو، ورتب الجبهة، وفي صباح اليوم الذي قرر فيه بدء الهجوم جمع القادة يتقدمهم رئيس أركان حربيه فوزي باشا، وعصمت باشا، ورأفت باشا، وغيرهم ثم لبس البرنس المرسل له من السيد أحمد الشريف، وتقلد السيف، وعلق المصحف الشريف، ثم تقدم وصلى بهؤلاء القادة ركعتين بحضور محمد عبد الله الزاوي، وتضرعوا إلى الله وطلبوا العون والنصر، ثم أطلق مصطفى كمال من يده رصاصة الهجوم وبدأت معركة الاستماتة، ودامت ثلاثة أيام بلياليها، فني خلالها ما ينوف على العشرين ألفاً من الأتراك، وما يزيد على الثلاثين ألفاً من اليونان، واختلت في نهايتها مقدمة جيش اليونان، وولت فلولة على أعقابها وتعقبها الجيوش الكمالية وكان ذلك بداية الانتصار النهائي على اليونان⁽²⁾.

وبعد ذلك الانتصار الحاسم ورجوع الحكومة الكمالية إلى أنقرة زار أحمد الشريف مصطفى كمال مهنتاً بالنصر، واحتفلت به الحكومة التركية، ثم ذهب إلى طرسوس، وفي أثناء إقامته بها قام مصطفى كمال بجولة تفقدية في أنحاء الأناضول، وعرج على ولاية أضنة، وأتى خصيصاً لزيارة أحمد الشريف، فأقام أحمد الشريف لمصطفى كمال حفلة غداء فخمة حضرها كل من معه من القادة، كما حضرها عموم أعيان البلاد ووجهائها، والموظفون، وفي أثناء جلوس الجميع على المائدة وقف مصطفى كمال وقال مخاطباً لقادته باللغة التركية: «أيها الإخوان اسمحوا لي لأعرفكم بمن نحن في حضرته، وعلى مائدته، نحن الآن في حضرة فخر

(1) انظر: الفوائد الجلية (2/ 64، 65).

(2) انظر: الفوائد الجلية (2/ 65، 66، 67).

المسلمين، وحفيد سيد المرسلين، المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسي، معلمنا الأول، ومؤسس أول مدرسة في برقة، كنا وفدنا إليها، وتلقينا دروس الجهاد، والمقاومة، والدفاع عن النفس، والدين، والوطن، وهذا يشير إلى سيادة أحمد الشريف، هو الذي غرس في نفوسنا شجرة الدفاع الثابتة، وهو الذي أزرنا في محنتنا القاسية، وشجعنا بأفكاره، وآرائه الصائبة حتى نلنا شرفنا، وعزتنا، وأنقذنا من براثن الأعداء بلادنا، فله من الحكومة والشعب التركي كمال الشكر والتقدير، ثم اختتم كلامه وجلس فقابلته سيادته بكلمات شكر، وقال: الشكر لله وحده هو الذي أيدكم ونصركم، ومزق أعداءكم بسبب جدكم واجتهادكم وتوحيد صفوفكم ونرجو من الله لكم مزيد التوفيق.

وبعد إقامته في طرسوس لمدة سنة تقريباً انتقل أحمد الشريف إلى مرفأ مرسين، وفي أثناء إقامته وفد إليه صديقه الحميم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان وأتت بعض وجوه الناس من ليبيا، وأرسل الرسائل إلى ابن عمه محمد إدريس، وإلى قائد حركة الجهاد الغر الميمون عمر المختار يحثه على مواصلة الجهاد⁽¹⁾.

ثانياً: شكيب أرسلان يصف أحمد الشريف:

«فلما جئت إلى مرسين ذهبت توأ لزيارته، فأبى إلا أن أنزل عنده، ريثما أكون استأجرت منزلاً في البلدة، وقد رأيت في هذا السيد السند بالعيان، ما كنت أتخيله عنه بالسمع وحق لي والله أن أنشد:

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيّب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

رأيت في السيد حبراً جليلاً وسيداً غطريفاً، وأستاذاً كبيراً، من أنبل من وقع نظري عليهم مدة حياتي، جلاله القدر، وسراوة حال، ورجاحة عقل، وسجاجة خلق، وكرم مهزة، وسرعة فهم، وسداد رأي، وقوة حافظة، مع الوقار الذي لا تغض من جانبه الوداعة، والورع الشديد في غير رثاء ولا سمعة، سمعت أنه لا يرقد من الليل أكثر من ثلاث ساعات، ويقضي سائر ليله في العبادة، والتلاوة والتهجد، ورأيته مراراً تنضج بين يديه السفر الفاخرة اللاتقة بالملوك فيأكل الضيوف والحاشية ويجتزئ هو بطعام واحد لا يصيب منه إلا قليلاً، وهكذا هي عادته، وله مجلس كل يوم بين صلاتي الظهر والعصر لتناول الشاي الأخضر الذي يؤثره المغاربة، فيأمر بحضور من هناك من الأضياف ورجال المعية، ويتناول كل منهم ثلاثة أقداح من شاي ممزوجاً بالعنبر، فأما هو فيتحامي شرب الشاي لعدم ملاءمته لصحته، وقد يتناول قداً من النعناع، ومن

(1) انظر: الفوائد الجلية 2/ 68، 69.

عادته أنه يوقد في مجالسه غالباً الطيب، وينسب السيد إلى الحديث، وأكثر أحاديثه في قصص رجال الله وأحوالهم ورقائقهم، وسير سلفه محمد بن علي السنوسي، والسيد المهدي وغيرهم من الأولياء والصالحين...»⁽¹⁾.

«والسيد أحمد الشريف سريع الخاطر، سيال القلم، لا يمل الكتابة أصلاً، وله عدة كتب...»⁽²⁾.

«وقد ذرف السيد المشار إليه على الخمسين ولكن هيئته لا تدل على وصوله إلى هذه السن، لندرة الشيب في شعره، وهو رائع المنظر، بهي الطلعة، عبل الجسم، قوي البنية، لا يمكن أن يراه أحد بدون أن يجله ويحترمه»⁽³⁾.

ثالثاً: القضاء على سلطنة آل عثمان:

بعد الانتهاء من حروب اليونان تهيأت القوات الكمالية لدخول ولاية إستانبول، وبعد حصار دام ما يقارب من الأربعة أشهر، ومحاولات طويلة مع دول الحلفاء تم الاتفاق على إخلاء إستانبول من قوات الاحتلال، وبذلك تحقق السلطان محمد وحيد الدين عدم قدرته على مقابلة القوات الكمالية، فقرر هو وحكومته الجلاء عن إستانبول والالتجاء إلى بعض دول أوروبا، وبذلك انطوى ملك آل عثمان بعد حكمهم للممالك الإسلامية مدة تزيد على السبعمئة سنة، فسبحان الذي لا يزول ملكه ولا يذل سلطانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

وقد تحدثت عن الدولة العثمانية في عوامل نهوضها وأسباب سقوطها منذ النشأة حتى النهاية في كتابي السادس «صفحات من التاريخ الإسلامي».

بعد أن دخلت القوات الكمالية بلدة إستانبول نصبت ولي العهد الأمير عبد المجيد ولقبته بخليفة المسلمين لمدة ستة أشهر تقريباً دون أن يكون له أي حل أو ربط، أو أي مظهر رسمي، أو صفة رسمية، وإنما هو ذر للرماد في عيون المسلمين، وتسكيناً للحالة حتى لا يثور المسلمون ويطالبوا ببقاء الخلافة، ثم تدرجت حكومة مصطفى كمال بعد أن تمكنت من الوضع وخلعت الخليفة السوري عبد المجيد، وأبعدته كما أبعدت كل من له صلة أو محبة أو انتماء آل عثمان، وفي ذلك اليوم قال أحمد الشريف كلمته المشهورة: ما زال أحمد الشريف «يعني لم يبق أمام مصطفى كمال إلا أحمد الشريف».

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي 2/156.

(2) المصدر السابق نفسه، 2/161.

(3) المصدر السابق نفسه 2/164، 165.

بدأت نوايا مصطفى كمال الشريعة تظهر رويداً رويداً، فتدخل في الأحكام وغير القوانين الشرعية، فانزعج أحمد الشريف غاية وغضب نهاية، وخاطب مصطفى كمال وقال له: إننا والمسلمون لم نناصرك ونقف معك إلا لأجل حفظ كيان الدين الإسلامي، والتمس منه إعادة النظر سريعاً في الموضوع، كما حضه على التمسك بعري الدين، الذي به انتصر، واكتسب عطف الشعوب الإسلامية عليه، فلم يرق هذا الكلام لمصطفى كمال، وعدّه تدخلًا في سياسته الشيطانية.

لقد كان مصطفى كمال أفعى يهودية بحق، وماسوني متضلع، وحاقد على الإسلام والمسلمين، أتقن فنون الكيد والمكر والخداع، ولما تمكن من تركيا وشعبها قام بإلغاء الخلافة الإسلامية، وفصل تركيا عن باقي أجزاء الدولة العثمانية، دولة الإسلام، وأعلن بكل وقاحة العلمانية في دار الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، واضطهد علماء المسلمين أبشع اضطهاد، وقتل منهم العشرات، وعلق جثثهم على أعواد المشانق، وأغلق كثيراً من المساجد، وحرّم الأذان والصلاة باللغة العربية، وأجبر الشعب على تغيير زيه الوطني، وألزم الناس بلبس الزي الأوروبي، وألغى وزارة الأوقاف، ومنع الصلاة في جامع آيا صوفيا، وحوله إلى متحف، وألغى المحاكم الشرعية، وفرض القوانين السويسرية، وفرض العطلة الأسبوعية الأحد بدلاً من يوم الجمعة، وألغى استخدام التقويم الهجري، واستبدله بالتقويم الميلادي، وألغى قوانين الميراث والزواج والأحوال الشخصية المستمدة من الشريعة الإسلامية، وحرّم تعدد الزوجات، والطلاق، وساوى بين الذكر والأنثى في الميراث، وشجع المرأة التركية والفتيات على الدعارة والفجور، وأباح المنكرات، وضرب من نفسه المثل الأعلى على انحطاط الخلق والإدمان على الخمر والنساء والانحلال، ومارس عن طريق حزب الشعب الإرهاب والبطش بالشعب التركي المسلم⁽¹⁾.

وأصبح مصطفى كمال مثلاً أعلى لكل طاغية مفسد في بلاد المسلمين، يقتدى به في كافة أموره بداية في لباس ثوب الدين حتى يتمكن، ثم خلعه وكشف الفجور والفسوق، وعلى العلماء والدعاة أن يتبها لهؤلاء المجرمين الذين يستغلون الشيوخ، والعلماء، والدعاة لحين، ثم يضربون بهم عرض الحائط، ويعلقونهم على المشانق، أو يفتحون لهم أبواب السجون على مصراعيها، وكم من طاغية متكبر لا يؤمن بيوم الحساب مكن نفسه بواسطة الدين، وعلمائه، إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن مصطفى كمال يعتبر مرتدًا ملحدًا زنديقًا خارجاً عن الإسلام، وهو أول جاهر بالعلمانية كنظام دولة نظرية وتطبيقاً، وما قام به مصطفى كمال في حقيقته تنفيذاً لمخططات قديمة أشرف على تنفيذها اليهود، والماسون، والنصارى، ومارس الإنكليز ضغوطهم بالقوة

(1) انظر: الأفعى في معادل الإسلام، عبد الله التل، ص 94، 95.

بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى 1914م - 1918م وقال وزير خارجية بريطانيا يومئذ «كرزون» بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا تركيا مستقلة حتى لا يجتمع المسلمون حولها مرة أخرى، وعندئذ طمأنهم مصطفى كمال بأن استقلال تركيا لن يكون خطراً عليهم في المستقبل، فأملى الإنكليز شروطهم المعروفة بشروط «كرزون» الأربعة:

- 1 - أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.
 - 2 - أن تلغي الخلافة.
 - 3 - أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.
 - 4 - أن تختار لنفسها دستوراً مدنياً بدلاً من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية على حدودها⁽¹⁾.
- وفرضت معاهدة لوزان التي ذكر فيها الشروط السالفة سنة 1340هـ/ 1923م على تركيا. لقد اتفق الغرب الحاقق والصهيونية الماكرة والماسونية الخادعة، على تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية.

رابعاً: طرد أحمد الشريف من تركيا وهجرته إلى الحجاز:

ومن طرف خفي بدأت السلطات التركية تضايق أحمد الشريف وتعد عليه أنفاسه، وأحكمت الرقابة على كل من له تعلق بالسيد، أو يزوره، وعلى المكاتبات الواردة إليه، والصادرة منه، ثم سحب بعض الجنود والضباط الذين كانوا مرافقين للسيد للقيام بحراسته وخدمته، ومرافقته، وأخيراً توقفت المصاريف التي كانت تعطى لسيادته لمدة أربعة أشهر، واشتدت الضائقة في بلاد الغربية، وقام الأتراك المحبين للسيد بالقيام بواجب الضيافة، وخشيت الحكومة حدوث ما لا تحمد عقباه، فقلبت المجن وعدلت عن خطتها وسارعت بحوالة الصرف، وبدأت تكيد في الخفاء لإيجاد أمر تدين به سيادة أحمد الشريف، فأرسلوا إليه شخصاً ادعى أنه طالب علم، وطلب منه أن يعطيه تزكية لحفيد السلطان عبد الحميد «الشهزادة سليم» الذي كان مقيماً في بيروت ليعينه على مهمته، وهي وصوله لطلب العلم بالجامع الأزهر، وبالغ الطالب الذي يدعى ضياء الدين جودت في الترجي والاستعطاف والتردد حتى أخجل أحمد الشريف، فكتب إليه: إن حامل هذا الكتاب إليكم هو أحد طلبة العلم المحتاجين للمساعدة، ويأمل أن تمدوا له يد العون بقدر المستطاع لإتمام مهمته، وإذ بالكتاب يصل إلى مصطفى كمال الذي طلب من مجلس الحكومة الاجتماع وقرأ عليهم الرسالة، فقالوا: هذه خيانة عظيمة للدولة، وقرروا حالاً إبعاد سيادة أحمد الشريف عن تركيا في مدة لا تتجاوز العشرة أيام، أو

(1) انظر: الاتجاهات الفكرية المعاصرة، جمعة الخولي، ص100.

إلزامه بالإقامة الجبرية في قرية عثمانية تابعة لولاية «أظنة» مدة حياته دون اتصال بأحد ما، وبذلك أبلغت حكومة أنقرة أمرها هذا لسيادة أحمد الشريف بواسطة والي الولاية «أظنة»، فقال أحمد الشريف عندما سمع القرار: كنت أتوقع منذ خلع عبد المجيد؛ لأن بقائي في تركيا لا يروق لمن يريد أن يتلاعب بأمر الشرع الشريف، وبطمس معالم الدين الحنيف، وإنني أختار الخروج من تركيا، وهذا جزء معاضدتي ومناصرتي لها، وسوف تخسر تركيا ميزتها بين عموم الشعوب العربية، والأمم الإسلامية، ورفع الوالي اختياره، وبذلك حددت لسيادته إقامة عشرة أيام، وتحصل على تأشيرة لدخول سوريا لمدة محدودة ونزل في دمشق ضيفاً على سعيد الجزائري حفيد المجاهد عبد القادر الجزائري، وفرح به أهل الشام فرحاً عظيماً، وتوافد الأعيان والشيوخ والزعماء لزيارته، ونشطت الحمية الإسلامية، وزار القدس ونزل ضيفاً عزيزاً على أمين الحسيني رئيس المجلس الأعلى الإسلامي، وضايقه البريطانيون من أجل خروجه من القدس ورجوعه إلى دمشق، وعاملته فرنسا معاملة حذرة وطلبت منه الخروج، وأرادت إيطاليا أن تستغل الموقف، وعرضت عليه مساعدات، والرجوع إلى ليبيا للتفاوض مع الحكومة الإيطالية من أجل مصلحة البلاد والعباد، فأجاب السيد الجليل، والجبل الشامخ ﷺ: أما وأنا خارج حدود الوطن، فلن أساوم أو أصالح على شبر منه، كما لا حق لي في ذلك، وإذا كانت الحكومة الإيطالية صادقة في قولها فعندها الأمير السيد محمد إدريس المهدي السنوسي في مصر، وعندها رؤساء الوطن فتفاهم معهم وهم أسهل لها وأخف شروطاً مني، وبهذا قفل باب المفاوضات⁽¹⁾، ولقد قال لمندوب الحكومة الإيطالية في تركيا من قبل: «... لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود به على الطليان، بل هما ملك أهلها»⁽²⁾.

واشتد ضغط الحكومة الفرنسية على سيادة السيد أحمد الشريف للخروج من سوريا، فطلب مقابلة القنصل الإنكليزي بدمشق فقدم إلى سيادته وبعد مقابلة المجاملة قال له: إنني أريد الخروج من سوريا إلى الحجاز عن طريق شرق الأردن، فقال القنصل: الحكومة الإنكليزية لا توافق، فقال له: إذاً إلى العراق، فقال له: أيضاً لا توافق، فقال له: إلى مصر، فقال له: ملك مصر لا يوافق، فقال له: إلى اليمن، أو الهند أو السودان، فقال له: لا نوافق، وكل بلد يعتليه العلم البريطاني لا يمكن أن تدخلوه، فغضب أحمد الشريف، واشتاط غضباً، وقال للقنصل: «إذاً مفاتيح الدنيا كلها بيد الإنكليز، أليس الأرض كلها لله وأن الأمر بيده، ثم قال له: أما أنا فسيجعل الله لي فرجاً ومخرجاً، وأما الحكومة البريطانية، والله، ثم والله سيأتي يوم تندم فيه على هذا التصرف»⁽³⁾ وستخسر كل ما تحت يدها من الممالك، وستندم ولا ينفعها الندم» فقال

(1) انظر: الفوائد الجلية (2/ 73 - 81).

(2) انظر: حاضر العالم الإسلامي (2/ 158).

(3) انظر: الفوائد الجلية (2/ 81).

القنصل كالمستهزئ: عندكم طريق نجد، فقال له: نعرفها ولا حاجة لدلائلكم، فغضب القنصل وخرج محمر الوجه⁽¹⁾.

يقول عبد القادر بن علي بعد فترة من الزمن: وما هو اليوم تحقق ما أقسم عليه سيادته، فقد خرج العراق وشرق الأردن، والهند، ومصر، والسودان. . وغيرها من يد الإنكليز⁽²⁾.
واتصل سعيد الجزائري بمندوب الملك عبد العزيز في دمشق الشيخ عبد العزيز الشقيحي، وعرض عليه رغبة السيد أحمد الشريف المرور للحجاز، واتصل مندوب الملك، وجاء الرد بالموافقة، وبدأت الرحلة إلى الحجاز عن طريق أراضي نجد تأخذ وضعها للاستعداد، وأعدوا ثلاث سيارات مع ثلاثة خبراء بمبلغ 270 جنيه ذهب، ولم يكن هذا المبلغ متوفراً، وضايقته السلطات الفرنسية وهددته بإرجاعه إلى تركيا، وعندما ضاق الأمر، واشتدت الكربة جاء فرج الله، وكان السبب الأمير شكيب أرسلان الذي أرسل للسيد أحمد الشريف 400 جنيه إسترليني أهداها الشيخ جاسم بن إبراهيم أحد تجار اللؤلؤ بمباي ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3] فعندما جاء الخبر لأحمد الشريف خر ساجداً لله تعالى يحمده، ويشكره على هذا الغوث الرباني، والمدد الإلهي، ثم رفع رأسه، ورفع يديه إلى السماء، وقال: فرجت علينا يا شكيب، فرج الله عنك كرب الدنيا والآخرة، وساعدتنا في محنتنا ساعدك الله في كل أمور دينك ودنياك، ودعوات كثيرة نالها شكيب أرسلان بسبب إرسال ذلك المبلغ ووصوله في الوقت الحرج.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2 - 3].

وتحركت الرحلة إلى الحجاز عن طريق نجد، وكانت عناية الله وحفظه ورعايته محيطة به، ووصل إلى منطقة الجوف «دومة الجندل»، وظن أهل المنطقة أنهم أعداء، فألقوا القبض عليهم، وبعد أن عرف أميرهم عبد الله بن عقيل أن الذي أمامه أحمد الشريف السنوسي صاحب الجهاد في برقة وطرابلس، وأنه يقصد حج بيت الله الحرام، ثم زيارة الملك عبد العزيز بن سعود، ارتدى عليه الرجل وعانقه ورحب به، واعتذر لسيادته، وأحسن نزله، وأرسل إلى الملك عبد العزيز فرد عليهم بإكرامه واحترامه وإرجاع السيارات إلى محلها؛ لأن هذا من إكرام أحمد الشريف؛ لأن الأمير عبد الله بن عقيل فكر في إحراقها، وكانت هذه السيارات هي أول سيارات تشق هذا الطريق وتقطع هذه الصحراء العظيمة، وكان قد أشيع أن أحمد الشريف مات في الصحراء هو ومن معه، ونهبتهم الأعراب، ولم ينفِ هذه الإشاعات إلا رجوع السيارات إلى دمشق، واستمر في رحلته حتى وصل مكة واعتمر ثم جاءه وفد الملك عبد العزيز، ثم سافر إلى

جدة والتقى بالملك عبد العزيز فأكرمه وأحسن نزله، وأصبح في ضيافته، وقدم خدمات عظيمة للإصلاح بين القبائل وتوحيدها تحت زعامة الملك عبد العزيز الذي كان يحارب الحسين بن علي في جدة، وأصبح أحمد الشريف يتردد بين مكة والمدينة في ضيافة الملك عبد العزيز⁽¹⁾.

خامساً: نصيحة الملك عبد العزيز لأحمد الشريف:

في عام 1346هـ أراد أحمد الشريف أن يحج بيت الله الحرام في ذلك العام، فأهل من ذي الحليفة، وعند وصوله إلى جدة، وجد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بها نازلاً في بيت أحد وجهاء جدة المسمى الشيخ محمد حسين نصيف، وزار أحمد الشريف الملك عبد العزيز، وطلب منه البقاء في جدة لمدة يومين لأمر خاص، وتم اللقاء بين الملك عبد العزيز، وأحمد الشريف، وكان المقصود من هذا الاجتماع هو التفاهم والمباحثة، لإيجاد طريق لحل مسألة الحرب القائمة في برقة، وعرض عليه فتح باب المفاوضات مع الحكومة الإيطالية، وعقد هدنة على شروط تعودون بموجبها إلى وطنكم وتتداركون البقية الباقية من أهله المتعبين، وقال الملك عبد العزيز: إن أهل وطنكم في ذمتكم ويحتاجون إلى تفكيركم في راحتهم، وتداركهم قبل القضاء عليهم، وهم مهمما يقاومون فلا بد أن يكلوا لأن هذه الحكومة قوية قائمة ولديها ما يحتاجون من لوازم الحرب، وعقد الهدنة معها يجعل لكم فرصة تجتمعون خلالها بأهل وطنكم وتلمون شتاتهم، وترتبون أموركم على حسب ما تستطيعون من مصالحة أو محاربة فيما بعد، وهذا الذي دعاني إلى طلبكم، فأجاب أحمد الشريف: صدقتهم في كل ما قلت، ولكن يا حضرة الملك؛ الحكومة الإيطالية غادرة وماكرة ولا عهد لها ولا ذمة، وإذا كانت صادقة في رغباتها فعندها أهل الوطن، وهم المحاربون لها، وأمامها الأمير السيد محمد إدريس المهدي السنوسي عرفته وعرفها، وهو ينوب عني وعن أهل الوطن فتفاهم معه، وهو أهون لها مني وألين، أما أنا ما دمت خارجاً عن الوطن بعيداً عنه فلن نساوم فيه، وحكومة إيطاليا تريد أن تحكم الوطن باسمي نظير إغرائها بأموالها ووعودها الخلابية، وأنا أريد تخليص الوطن منها كلياً، كما سيكون إن شاء الله عاجلاً أو آجلاً، ولذلك أرجو أن تتموا إحسانكم لي، وتساعدوني على هجرتي، وإعفائي من الأعيب إيطاليا، وعدم انشغالكم وانشغالي بما لا يأتي بنتيجة، فقال الملك عبد العزيز - عليه السلام -: أما مساعدتكم على هجرتكم فهذا حاصل إن شاء الله، ولا لنا فيه جميل، وأما موضوع الوطن وأهله، فأنتم أدري به، ولن نشغلكم ثانياً إن شاء الله، نرجو الله أن يقدر للجميع ما فيه الخير والنصر والتوفيق⁽²⁾.

ثم توجه أحمد الشريف إلى مكة وأدى مناسك العمرة، ثم أدى مناسك الحج، ثم رجع

(1) انظر: الفوائد الجلية 2/ 88 إلى 120.

(2) انظر: الفوائد الجلية 2/ 122، 123.

إلى المدينة، وكان يتصل بأهل ليبيا عن طريق الحجاج ويجمع لهم الأموال والمساعدات ويقوم بتوجيههم خير قيام.

سادساً: وفاته:

أخذ أحمد الشريف بعد وصوله للحجاز ينتقل بين المدينة المنورة، ومكة المكرمة، وإذا بداعي الموت يناديه في تمام الساعة الثامنة من يوم الجمعة 13 ذي القعدة سنة 1351هـ الموافق العاشر من شهر مارس سنة 1933م في الزاوية السنوسية في المدينة المنورة⁽¹⁾ إثر مرض عضال لم يمهل، ودفن في مقبرة البقيع قرب قبر الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة⁽²⁾، بعد أن عاش إحدى وستين سنة قضاه في خدمة الإسلام والمسلمين، ورفع شأن الدين، ومجاهدة الكافرين الغاصبين في شتى الميادين، فعليه وعلى أمثاله الرحمة والمغفرة والرضوان من رب العالمين وأعلى الله ذكره في المصلحين.

سابعاً: صدى وفاة أحمد الشريف في العالم الإسلامي:

نشر بمجلة «اللطائف» المصورة بعدد (945) 20 مارس سنة 1933م ما يلي:

يوم 11 الجاري نعت برقيات الحجاز السيد أحمد الشريف السنوسي الكبير، فكان لنعيه رنة حزن مرير أعادت إلى الأذهان تلك الجهود الجبارة، والتضحيات الغالية التي بذلها هذا الفقيه العظيم في نشر الإسلام، وتنقيف أهل البيد، ومكافحة الاستعمار الإيطالي سنوات عديدة، قضاه أرسخ ما يكون ثباتاً وإيماناً، فقد كان للفقيه نفوذ روحي عجيب استطاع به أن يعمم دعوته في أحشاء الصحراء وشمال إفريقيا، وأعمال السودان، ولما أغارت إيطاليا على طرابلس منذ ربع قرن ثارت نخوته الوطنية الدينية ووقف يدافع عن وطنه ودينه مشيراً روح العزم والقوة في أنفس العربان، ثم انضم إلى الأتراك ضد الإيطاليين إلا أن تركيا اشتغلت بالحرب البلقانية الثانية سنة 1911م فظل الفقيه يناضل وحده في الميدان، وصمد به ما يزيد عن ثلاث سنوات استطاع خلالها بجلده، ومضاء عزمه، ويقينه مع قواته القليلة أن يقهر القوات الإيطالية المنظمة الكبيرة، ويلحق بها الهزائم والخسائر حتى أرغم إيطاليا على طلب الصلح معه على يد الخديوي السابق عباس حلمي، فرفضه قائلاً: إني لا أصالح أبداً دولة مسيحية على شبر من أرض المسلمين، واستمر في جهاده المستميت إلى آخر سني الحرب العالمية، حيث سافر إلى تركيا، وعرضت عليه الخلافة الإسلامية فرفضها، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها التجأ إلى بلاد الحجاز، وظل فيها أربعة عشر عاماً بعيداً عن وطنه محتفظاً بإيمانه وتقشفه، ووطنيته، إلى

(1) انظر: الحركة الوطنية شرق ليبيا، ص 179.

(2) انظر: برقة العربية، ص 323.

أن لبي نداء ربه، وله في القلوب أفعم الذكريات...»⁽¹⁾.

فرح إيطاليا بموته:

أعلنت إيطاليا وفاة السيد أحمد الشريف على لسان وزير مستعمراتها وقتذاك الجنرال دي بونو داخل قاعة المجلس الفاشيستي المنعقد حينذاك فقال: مات السيد أحمد الشريف السنوسي بالحجاز متأثراً بالشلل، وبموته ماتت جميع مخاوفنا في إفريقيا، وقال أيضاً ما معناه: إن موت هذا الرجل العدو للددود لنا يجعلنا نظمئن لجميع أعمالنا، ومقاصدنا الدينية في شمال إفريقيا، وقد كتبت أكثر الصحف الإيطالية؛ يومية كانت أو أسبوعية في فصول عقدها حول تصدع ذلك الصرح العظيم⁽²⁾.

شكيب أرسلان يؤين أحمد الشريف في عنوان كبير:

بقية السلف الصالح وخاتمة المجاهدين:

لم يشعر بالخوف قلبي فيما عدا المصائب التي رزئت بها في أفراد عائلتي ما أشعره النبأ الصادع، والخبر الفاجع الذي نقل إلى الآفاق نعي الأستاذ الأكبر، والسراج الأزهر خاتمة المجاهدين، ومثال الغزاة المرابطين، السيف الباتر على هدي الصحابة الكرام في العصر الحاضر محيي مآثر الأوائل في أيام الأواخر سيدي أحمد الشريف ابن سيدي الشريف ابن سيدي محمد بن علي السنوسي رحمته الله وعن سلفه وأرضاهم وجعل في جوار قدسه مأواهم.

إن فجيعة العالم الإسلامي بهذا الرجل الكبير من رجاله، بل بهذا الجبل الراسي من جباله هي من الحوادث التي تشغل مكاناً خاصاً في تاريخ مصائب الإسلام الذي أصبح أغنى تواريخ الأمم بالمصائب، وإن هذا الفقيه العظيم لو عاش في زمن السلف الصالح وأيام الغزوات العربية والفتوحات العمرية لما كان مكانه في ذلك الوقت ليقصر عن مكان أحد من أولئك الأبطال الذين نشروا الإسلام في الخافقين ورفعوا لواءه من نهر الرون إلى جدار الصين، فما ظنك وهو قد جاهد هذا الجهاد كله، ووقف مدة عشرين سنة في وجه دولة من الدول العظام في عصر دثرت فيه معالم الجهاد، وانطفأت جذوة الإسلام حتى لم يبق منها إلا الرماد، واستولى اليأس على قلوب المسلمين حتى حسبوا كل مقاومة لدولة أوروبية ضرباً من ضروب الحماقة، وعم ذلك جمعهم الحاضر منهم والباد، وانتشر في الربي والوهاد، ومع هذا فإن سيدي أحمد الشريف السنوسي قد أتى ببرهان ساطع، ودليل قاطع على أن فئة من المسلمين في قطر لا يتجاوز عدد أهله عدة مئات من الألوف يمكنها بقوة الإرادة، وثبات العزم، ومضاء الصرمة، وإباء الضيم،

(1) انظر: برقة العربية، ص 323.

(2) المصدر السابق نفسه، ص 325.

وترجيح المعنى على المادة، وإيثار الشرف على الترف، وامتلاء القلوب بالإيمان، ووقف النفوس على اعتزام عزائم الإسلام أن تثبت مدة 240 شهراً، بإزاء دولة عدد أهلها اثنان وأربعون مليوناً مجهزة بجميع ما هي مجهزة به عظميات دول العالم المتمدن، لها من فيالق البر وأساطيل البحر، وسيارات الكهرباء، والملحقات في الفضاء ما لا تملك أعظم منه دولة من الدول القاعدة في الصف الأول في ممالك الأرض.

وقد يقول المتعنتون الذين في قلوبهم مرض والذين لا يروقههم إلا أن يروا الإسلام ذليلاً مهيناً: وماذا أفادنا قيام السيد السنوسي في وجه إيطاليا، وهل كان ذلك إلا سبباً في زيادة قهر المسلمين، وإرهاقهم بأفانين الظلم، وأساليب الاستئصال في طرابلس الغرب؟ فلو كان هؤلاء الأهالي قد خضعوا من بداية الأمر للدولة التي قد احتلت بلادهم وقضى الله بسيادتهم عليهم لربما كانوا قد نجوا من العذاب المقيم الذي هم فيه، والخطوب التي أبادت خضراءهم، وما أشبه ذلك من الأعاليل التي تفيض بها قرائح النفوس الخاملة المولعة بالاستخذاء للأجنبي أياً كان.

وجوابنا على ذلك بسيط وهو: إننا ما رأينا أمة أوروبية مهما قل عددها وانقطع مددها، قد رضيت بالاستخذاء لدولة أوروبية عظيمة مهما علا سلطانها، وغلظت ملكتها في الأرض؛ بل القاعدة عند الأوروبيين - الذين هم قدوة الشرقيين الآن في جميع المآخذ والممارك - هي أن الأمة المستقلة لا بد لها من أن تزدود عن حوضها وتدافع بغير دفاع فالموت أولى بها من الحياة بلا نزاع، وأن بقية السيف مهما قلت هي أشرف مقاماً، وأرجى حياة من الكثرة المستتمية إلى الذل ولو كانوا كالجراد المنتشر، وقد حققت الحوادث، وأيدت التجارب أن الخضوع ليس من أحسن الوسائل التي تعالج بها عداوة الأعداء، وأن قول الشاعر:

قاتل عدوك باللسان وإن قدرت فبالسنان
إن العداوة ليس يصلحها الخضوع مدى الزمان

لا تزال هي الحقيقة السياسية التي تدين بها دول العالم الحديث، كما دانت بها دول العالم القديم، ولعمري لو خضع الطرابلسيون من أول الأمر أكمل الخضوع لإيطاليا لما كانت لذلك نتيجة سوى زيادة الطغیان في معاملتهم واستخفافهم بملتهم، وامتداد أيدي الأوروبيين دون أدنى تردد إلى كل قطر من الأقطار الإسلامية قياساً على قضية طرابلس، واعتقاداً بأن هذه الأمة قد فقدت حسيس الحياة فهي لا تبدي، ولا تعيد، ولا تفعل فيها الأسنه ولا السهام، لأنه ما لجرح بميت إيلام.

قد استشهدنا على صحة المقاومة ولو كان المعتدي قوياً، والمعتدى عليه ضعيفاً بالقاعدة السياسية والمبادئ الأساسية التي يسير عليها الأوروبيون حرباً وسلماً، وعملاً وعلماً، ولم تتعرض إلى ما يجب من ذلك على المسلمين الذين ينهاتهم عن الخضوع للأجبيين عنهم

ويقول لهم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَبْتُمُوهَا وَيَعَارٌ مَحْشُونٌ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

ولم يكن تقديمنا الحجة الأولى لكوننا أشد بها اقتناعاً من الحجة الثانية، ولكن لمعرفة أن مثل هؤلاء المصابين بمرض الافتتان بالسلطة الأوروبية ليسوا ممن يقبلون الجدل على قاعدة الأوامر والنواهي القرآنية، وإنك إن لم تستظهر عليهم بكتاب أوروبي أو سنة غريبة لم يفدك الأخذ والرد معهم شيئاً.

فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الإسلام إلى هذا الوقت، قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة، والأمير عبد القادر الجزائري الذي ناهض فرنسا 17 سنة، وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد عبد الكريم الخطابي الريفى الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة توافق فيها مع دولتي فرنسا وإسبانيا معاً وجهاً لوجه، وزلزلنا في حربه زلزلاً شديداً، ولولا السيد أحمد الشريف رحمه الله تعالى لكانت إيطاليا استصفت قطري طرابلس وبرقة من الشهر الأول من غارتها الغادرة عليهما، وإننا لا نزال نذكر كلام القواد، ورجال السياسة الأوروبية عن الحملة الإيطالية يوم جردتها ذينك القطرين إذ قال بعضهم: إن إيطاليا ستقبض على ناصية الأمر، وتستكمل هذا الفتح في مدة 15 يوماً، وقال أشدهم تشاؤماً وأقلهم تخيلاً، وأبصرهم بأمور الشرق وهو اللورد كتشنر المشهور أن هذا الفتح الذي يستقله الناس على إيطاليا أمامه من الصعوبات أكثر مما يظنون، وقد يستغرق ثلاثة أشهر بالأقل.. فليتأمل أولوا الأبواب كيف أن هذه الثلاثة أشهر امتدت عشرين عاماً ورزأت الدولة الإيطالية بمائة وخمسين ألف عسكري قتلى عدا الجرحى، وبثلاثمائة مليون جنيه من الذهب الواضح، هذا كان مجموع خسائر إيطاليا منذ سنتين بحسب الإحصاءات الرسمية، وهذا كان ثمرة جهاد ذلك السيد السند.

نعم لم تأكل إيطاليا في اعتدائها الفظيع هذا مريئاً ولم تشرب هنيئاً، وعلق في حلقها من سمك الإسلام حسك لا يزول في الأحقاب، ولا في القرون، وكل ذلك بما أراه الله على يد رجل قد يفهم الإسلام حق الفهم، ويعمل بما يعلم منه بدون انحراف يمته ولا يسرة، ولم يكن في قلبه شيء من الدنيا بجانب الآخرة، وكان جميع حطام هذا العالم الفاني لا توازي عنده جناح بعوضة في جانب الواجب الإسلامي، وهذا الرجل هو السيد السنوسي الكبير الذي لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئاً، ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهراً واحداً، وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار إلا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريف، وقائداً من قواده.

قلت: إن السيد السنوسي لو كان في عصر السلف لكان في صف أعظم أبطال

المسلمين، فكيف وهو في عصر الخلف الذين بينهم وبين السلف ما بين المشرق والمغرب؟ وإن هذه المقابلة تذكرني بما قاله أحد العلماء عن أحمد بن حنبل رحمته الله : ما قام أحد بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أحمد بن حنبل، فقبل لذلك القائل وأظنه ابن المديني المحدث المشهور: ولا أبو بكر الصديق، فأجاب: ولا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ؛ ذلك لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان له رجال وأعوان، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له رجال ولا أعوان، وإنما كان يناضل بقوة نفسه وحدها.

ونحن نقول: لو كانت الدولة العثمانية قاومت إيطاليا هذه المقاومة أو قاومت أعظم من إيطاليا مما سبقت لها العادة بمقاومته وأحياناً بتوالي الهزائم عليه لما كان في ذلك ما يقضي بالعجب، ولكن الذي قام هذا المقام الشريف، ووقف هذا الموقف التاريخي النادر النظير هو رجل لا يملك سوى قوة إرادته، ومثانة إيمانه، وإيمان رجاله، وعزة أنفسهم بالإسلام، وصبرهم في البأس وحين البأس، وبينهم وبين عدوهم في العدد والأسلحة والمال والعدد من الفروق الهائلة ما لا يحتمل التنظير في قليل ولا كثير، ففضله إذن أعظم جداً من فضل الدولة العثمانية في جهادها، وإن كان فضلها عظيم، وهو وحده كان مصدر هذه الإرادة التي أنشأت بإذن الله هذا الجهاد الطويل العريض، وحفظت شرف الإسلام المعتدى عليه في طرابلس، وغير طرابلس؛ لأنه مما يجب أن لا نتماهى فيه أن أوروبا لا تعرف في ذات نفسها إلا إسلاماً واحداً، إن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة، وإن سيرة السيد أحمد الشريف هي بذاتها تاريخ، وإن كل من عرف عن كذب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وورعه وحلمه وعلمه، وزهده في الدنيا، وحبه لمعالي الأمور وعزوفه عن سفاسفها، ومواساته للفقراء، وحنانه على الضعفاء، وشدته مع ذلك في الدين، وانحصار كل همومه في استتباب أمر المسلمين، ومحافظة على الفرائض والسنن، وغير ذلك من الأخلاق العالية، والهمم الشماء، والمنازل القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام، بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام، ولا أقول هذا في مقام تأبين من عادة الناس أن يروا فيه الحسنات مجسمة، وأن يحملهم الموت على طي الهنات، وتناسي السيئات، بل أقول إنه كان هذا لسان جميع من خالطوه، والفقيد رحمته الله ملآن حياة، وكل من خالطه يعرف منه هذه الأخلاق بأجمعها ويعرف أكثر منها، وطالما كان يقول الأمير سعيد حلیم الصدر الأعظم: إن الأمة الإسلامية والدولة العثمانية لم تقدر هذا الرجل حق قدره. . .

وإني لمتذكر كوننا صمنا شهر رمضان في مرسين وذلك سنة 1342هـ، فكنت أفطر في منزلي بالبلدة ثم أذهب إلى خرستيان كوى حيث يقيم السيد، ونصلي وراءه العشاء والتراويح، وكان يجتمع المغاربة الذين في مرسين نحواً من أربعين شخصاً ويصلون وراءه أيضاً، فكان يقرأ خمس القرآن في كل صلاة، وكنت صليت وراءه ساعتين، فعجزت عن ذلك، وصرت أقصر على صلاة العشاء، وكانوا هم يصلون التراويح، وبعد الصلاة نجلس إلى السحور، وكان في القراءة

يتدفق كالسيل ولا يتوقف، ولا يتردد ولا يتلعثم، وكنت أقضي من ذلك العجب العجاب، وأقول كيف أن رجلاً كهذا الرجل قد توسط بين الخمسين والستين من العمر، وتحمل من الهموم والأثقال ما تنوء به الجبال، وهو لا يزال يتذكر كتاب الله كله ويقرؤه عن ظهر قلب كقراءته للفتاحة؟ ولم أتذكر أنه مدة الشهر من أوله إلى آخره وفي الختمات الست التي ختمها لكتاب الله توقف في القراءة أكثر من ثلاث أو أربع مرات، كان يقف قليلاً ليتذكر الآية، وكان وراءه شاب تونسي حافظ، فيسرع بإلقائه إياها، فيمضي في القراءة مضاء السهم، وهذا غريب فيمن بلغ تلك السن، وانطوى على ذلك الهم العظيم، من فراق الأوطان وتنوع الأشجان، وجور الحدثان.

ولم يكن للسيد غرام في الدنيا إلا بأمر هذه الأمة، ولما سألته عند اجتماعنا في مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالاً أجنبي: قد صاروا الآن رجالاً، وما أنا بمفكر في أمرهم، وإنما يهمني أمر هذه الأمة المعذبة في طرابلس، وكان في قلبه من أمر طرابلس ما لا يعلمه إلا الله، ولكنه كان في إيمانه في ثبات الجبال، وكان يرى في هذه المصائب مقدمات يقظة الإسلام... اللهم إنه كان من أجل العارفين بك وأبر القائمين بأوامرك ونواهيك وأشد المحبين لعيالك الخلق، وأصلب المتمسكين بكلمتك الحق، وإنه كان القدوة المثلى بين خلائقك، والحجة الوثقى بحقائقك والرجل الذي أدى إلى آخر نفس من أنفاسه جميع الواجب الذي عليه لدينه ولقومه، وللإنسانية التي كان لها مثلاً، فأعلل درجته يا رب في جوار قدسك ونور وحشة قبره بأنسك وبوته في عقباه المقام الكريم الذي يليق بكرمك العميم، وبثوابك لمن سلكوا الصراط المستقيم، واستحقوا النعيم المقيم، إنك أنت الرحمن الرحيم⁽¹⁾.

لقد نعت أحمد الشريف رحمه الله أغلب الصحف في المشرق الإسلامي بأقلام أكابر الشعراء والكتاب، وقد كتب السيد عبد الرحمن عزام فصلاً عن حياة السيد أحمد الشريف نشرته جريدة «البلاغ» الغراء الصادرة بمصر⁽²⁾، وقد صلى عليه المسلمون صلاة الغائب بعد صلاة الجمعة الأولى من شهر المحرم فاتحة سنة 1352هـ، وقالت مجلة «المنار»: تقام صلاة الغائب على الزعيم الإسلامي المجاهد العظيم والمرشد الشهير السيد أحمد الشريف السنوسي في جميع المساجد الجامعة في القطر المصري، وسائر الأقطار التي بلغتها الدعوة إلى هذه الصلاة من مكتب المؤتمر الإسلامي العام في القدس الشريف، ستكون هذه الصلاة ممتازة لم يسبق لها نظير في مثيلاتها من صلاة الغائب التي يقيمها المسلمون في بعض الأقطار عندما يموت عظيم من عظماء الإسلام في علمه الواسع وعمله النافع، لا باتصاف السيد السنوسي بشرف الحسب

(1) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 2/ 396 إلى 405.

(2) انظر: برقة العربية، ص 325.

ولا باشتهاره بالصلاح والتقوى، ولا بمكانه المعروف في العلم والعمل والإرشاد والإصلاح، والبر والإحسان، ولا بالجاء العريض الذي ناله بتقليده سيف البيعة للسلطان محمد الخامس، وإنعام السلطان عليه بلقب الوزارة والنيشان المرصع، فكان أول عالم مرشد معهم تحلى بها، كما تقدم آنفاً، بل تمتاز هذه الصلاة على هذا الرجل العظيم بعمل له هو الذي تم به كماله وهو الجهاد بماله ونفسه في سبيل الله دفاعاً عن دينه، وقومه، ووطنه، وبما آل إليه أمره من جراء هذا الجهاد من هجرته الأولى إلى بلاد الترك، ثم إخراجه منها وتعذر رجوعه إلى وطنه، وتعذر إقامته في سوريا، ومصر، وفي كل قطر إسلامي خاضع لنفوذ الدول الاستعمارية الثلاثة المحاربة للإسلام المستذلة للمسلمين، وقد قاتلها كلها في سبيل الله، حتى لجأ أخيراً إلى مهد الإسلام في حرم الله، وحرم رسوله ﷺ، ومات بجوار جده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، فبهذا كله صار للصلاة عليه معنى لم يسبق لغيره من عظماء الإسلام المعاصرين⁽¹⁾.

هذا وقد أبنه الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم المصري بقصيدة قال فيها:

هتف النعي فما ملكت بياني	ليت النعي إلى الإمام نعاني
فزع المحيطم وراع يثرب عاصف	للموت ضج لهوله الحرمان
سهم أصاب المسلمين وجال في	كبد الهدى وحشاشة الإيمان
جرح الأئمة واستمر فما ارعوى	حتى استباح مقاتل الفرسان
ذهب الإمام يقيم حائط دينه	ويراه أنفع ما يقيم الباني
ذهب المجاهد يشتري لبلاده	عز الحياة بأشرف الأثمان ⁽²⁾

وأما الأستاذ عبد القادر المجددي الأفغاني نزيل الحجاز فقد قال قصيدة عصماء في رثاء أحمد الشريف من أبياتها:

الله أكبر ما هذه المصيبات	ذابت لأهوالها منا الحشاشات
أعلام جيش الهدى قد نكست جزعاً	لما توالى من الأيام صدمات
مات الذي كان للإسلام خير حمى	رياه رحماك ما هذه الدهيات
من للبوادر من بعد الفقيده ومن	للمشرفيه إن صحت ملاقات
إلى أن يقول:	

ذبيت عن حوض هذا الدين متكلاً	على الإله فوافتك الشهادات
في الغرب في الشرق في الإسلام في عرب	بطن الصحائف من ذكراك آيات ⁽³⁾

(1) انظر: مجلة المنار لصاحبها محمد رشيد رضا 2/137 لعام 1933م.

(2) انظر: برقة العربية، ص326.

(3) انظر: برقة العربية، ص326 إلى 327.

هذه قصة أحمد الشريف السنوسي، السيد الصنديد والعالم الجليل، والعايد الخاشع، والمجاهد الشجاع، والمهاجر الحزين، حاولت جاهداً أن أوضح للقارئ الكريم ملامحها الإيمانية، وروائعها الزكية، وروحها الأبية، وحياتها المليئة بالدعوة، والجهاد، والعبادة، والعطاء لهذا الدين العظيم.

إن هذه السيرة العطرة تبين لمسلمي ليبيا أن من أصلاب أجدادهم خرج مثل هؤلاء الأبطال، وعاشوا للذود عن الإسلام، ونشره بين الأنعام، وبذلوا الأنفس والأموال، وتقييم الحجة الدامغة بالبراهين الساطعة، والحجج الواضحة أن الشعب المسلم في ليبيا خرج منه قادة وأبطال، ورجال عظام، ندر الزمان أن يأتي بمثلهم، وأن شجرة الإسلام الزكية الضاربة بجذورها في شعبنا منذ زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكفيلة بأن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وأن ما نحن فيه من عشرة، وكبوة وذلة، وبلاء «لا شك أنه من ذنوبنا»، كما أنها فترة تمر بها الشعوب قبل تمكينها، فالى الغد المشرق مع فجر الإسلام النير، فلتكن الهمم متجهة ولتتوحد الصفوف للعمل والتضحية والعطاء، والبذل من أجل أن تصح بلادنا قلعة من قلاع المسلمين الحصينة منها تخرج جيوش المجاهدين، والدعاة العاملين، وتستقبل وفود طلاب العلم من العالم أجمع، ونسأل الله تعالى أن تعود بلادنا كما كانت وأكثر في دعوتها للإسلام وجهادها في سبيله على أسس صحيحة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وهدي الصحابة الميامين ومن تابعهم إلى يوم الدين.

وعلى أحمد الشريف السنوسي وإخوانه الميامين الذين سطوروا لنا هذا التاريخ العظيم من الله المغفرة والرحمة والرضوان.

وكان الشاعر عندما صاغ الأبيات الآتية يجسد لنا حال أحمد الشريف رضي الله عنه:

أقسمت أن لا أنثني عن غايتي	ما دمت أحمل مصحفني وسلاحي
سأعيد للإسلام سالف مجده	بعزيمتي وبوحدتي وكفاحي
أنا مسلم لا أرتضي بعقيدة	تُملى من الدجال والسفاح
أنا مسلم سجلت أروع صفحة	بعقيدتي وعدالتي وصلاحي
أنا نائر أبني الحياة كريمة	وعزيزة وعلى هدى وفلاح
في الأرض أبذر شرع دين محمد	ويشع نور جلاله الوضاح
أقسمت - يا وطني - بأن لا أنحني	إلا لربي فالق الإصباح
قسماً بأن أسعى لإسعاد الوري	سعيأ حثيثاً مؤذناً بنجاح

سبحانك اللهم وبحمده أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك

خلاصة القسم الثاني

- 1 - ولد محمد المهدي في الجبل الأخضر في ليبيا في شهر ذي القعدة عام 1260هـ الموافق نوفمبر 1844م.
- 2 - كانت فرحة الإخوان وابن السنوسي بمولد محمد المهدي عظيمة.
- 3 - لما ولد الابن الثاني لمحمد بن علي السنوسي عام 1262هـ/1846م، كتب عمران بن بركة لشيخه يهنئه بالمولود الثاني، ويسأله عن اسم الوليد الثاني، رد له الجواب بتسمية الشريف قائلاً له: «إننا لا نعيد بأسماء أبنائنا عن أسماء النبي ﷺ وإنما يختلفون في الألقاب والكنى، فكما سميت الأول محمداً المهدي ليحوز أنواع الهداية فسم هذا محمداً الشريف ليحوز أنواع الشرف.
- 4 - أسند ابن السنوسي تربية أولاده للإخوان وكان المسؤول الأول الشيخ العلامة عمران بن بركة.
- 5 - وبعد أن حفظ محمد المهدي القرآن الكريم طلبه والده للمجيء للحجاز وصحبة العلامة محمد بن إبراهيم الغماري، وهناك عهد به والده إلى نخبة من العلماء لتربيته وتلقيه العلوم تحت إشرافه المباشر.
- 6 - رجع محمد المهدي إلى الجغبوب بصحبة العلامة عبد الرحيم المحبوب، وواصل محمد المهدي تعليمه العالي في معهد الجغبوب وأشرف على تعليمه وتربيته والده ابن السنوسي وكبار الإخوان.
- 7 - تميز محمد المهدي بالذكاء، وحسن الخلق، والصفات الرفيعة، والأخلاق الحميدة.
- 8 - تزوج محمد المهدي في حياة والده وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة ابنة عمران بن بركة وذلك عام 1275هـ/1858م، وقد أنجبت عدة أولاد وتوفيت سنة 1891م.
- 9 - بعد وفاة ابن السنوسي خف كبار العلماء والشيوخ في الحركة السنوسية إلى مبايعة محمد المهدي.
- 10 - كون محمد المهدي السنوسي مجلساً أعلى من كبار الإخوان، يتكون من العلامة عمران ابن بركة، وأحمد الريفي، وعلي عبد المولى، وفالح الطاهري، وعبد الرحيم المحبوب، ومحمد المدني التلمساني، ومحمد بن الحسن البسكري.
- 11 - كان المجلس الأعلى للحركة يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا، وكان يضم كبار

- رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس ومصر والحجاز، والسودان، وشمال إفريقيا، وكان يجتمع سنوياً في الجغبوب للنظر في أهم أمور الحركة .
- 12 - من الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجوداً في الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفرغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغين حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما في وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس .
- 13 - اهتم محمد المهدي بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمي، والزراعي، وانتظم سير العمل في معهد الجغبوب، ووزع تلاميذ المدارس القرآنية على أقسام، ورتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب .
- 14 - كانت الزوايا تقوم بدورها في جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا الأمنية وترسلها إلى الجغبوب، وكان نظام البريد ينقسم إلى أربعة أقسام نقطة ارتكازها الجغبوب .
- 15 - نمت الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي نمواً كبيراً، وتضاعف عدد الزوايا أكثر من أربعة أضعاف، وانتشرت هذه الزوايا في الصحراء الكبرى، وعلى طريق مصر، وتونس، وفي وادي .
- 16 - كان من أسباب هذا النمو السريع: طبيعة الحركة، ونظمها المتطورة بالنسبة لعصرها، وفهمها لطبيعة المجتمعات القبلية، وطول المدة التي قضاها الزعيم الثاني في قيادة الحركة، إذ تجاوزت أربعين سنة، فتمكن من تركيز العلم الذي بدأه والده .
- 17 - تمكن الإمام المهدي أن يبني علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في وادي، وبرقو، وكانم وغيرها، واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبي الأوروبي في إفريقيا، ثم عدم التردد في مكافحة هذه الدول إذا جد الجد، كما فعل مع فرنسا .
- 18 - كان محمد المهدي يحرص دائماً على إزالة البغضاء والشحناء من نفوس القبائل المتعادية، ويدعوها إلى أخوة الإسلام، وشغلها بالطاعة، ودفعها نحو المعالي، والأخلاق الرفيعة، واستطاع أن ينظم من القبائل كتائب للجهاد ساهمت في قتال فرنسا، وبعد وفاته قاتلت إيطاليا .
- 19 - كرس المهدي جهوده للبناء الداخلي في الحركة، واختط طريقاً سلمياً تجنب الاحتكاك فيه جهد المستطاع بالقوى المحيطة به، واستطاع أن يتخذ مواقف تدل على بعد نظره وثاقب فكره من الثورات التي حدثت في السودان، ومصر، وكذلك الدول الأوروبية .

- 20 - نشطت الحركة السنوسية في تعبئة أتباعها على الاستعداد للجهاد، ونظمت صفوفها، ورأى السلطان عبد الحميد الثاني في الحركة السنوسية قوة منظمة ومعدة إعداداً مادياً ومعنوياً جيداً يمكن استغلالها في المواجهة العسكرية المتوقعة مع أعداء الدولة العثمانية في شمال إفريقيا.
- 21 - حققت الحركة السنوسية انتشاراً كبيراً في أواسط إفريقيا، وتوطد سلطانها في قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة في طريق الرسائل التنصيرية التي وجدت في الحركة السنوسية خصوماً عنيدين عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة.
- 22 - تولت فرنسا مهمة الهجوم الإعلامي على الحركة السنوسية، وأرسلت عدداً من الرحالة منهم دوفريه، ثم وقفت من الحركة موقفاً عدائياً وشتت عليها حرباً دعائية بواسطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية، وقصدت بذلك تشويه الحركة، كما تجلّى موقفها العدائي في ضغطها على الباب العالي للتضييق على السنوسية، ثم تبلور هذا الموقف في حربها الظالمة لمواقع الحركة السنوسية في تشاد.
- 23 - إن نظرة المهدي للثورات غير المدروسة دراسة دقيقة تتيح للأجانب التدخل، ويرى أن طريق البناء، والتربية، والإعداد العقدي، والوسائل السلمية هي الطريقة المثلى نحو النهوض الشامل للأمة.
- 24 - إن علماء السنوسية وعلى رأسهم المهدي السنوسي لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمد، وكذلك رفضوا القول بمهدية المهدي السنوسي واعتبره محمد المهدي السنوسي نوعاً من التخريف، ويرجع ذلك إلى علمهم المتين واستيعابهم لكتاب الله، والسنة المطهرة التي بينت حقيقة المهدي المنتظر، والتزموا بعقيدة أهل السنة والجماعة التي وضحت هذا المعتقد.
- 25 - إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون في الإمام المهدي السنوسي هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدي، وعارضها وأبى الموافقة على القول بها، وعندما سئل الملك إدريس - عليه السلام - عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهدويته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبدأ لم يعتقد به».
- 26 - إن الليبيين عموماً ارتبطوا بفكرة الجامعة الإسلامية، وسياسة الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني الذي تبنى الدعوة إليها، وأكدوا في كل مناسبة ارتباطهم بهذه الدعوة، وخاصة في أزمت الدولة، ففي حرب الدولة مع اليونان سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجان لجمع التبرعات وقد كتبت على الاستمارات المعدة للجمع عبارة «إعانة جهادية» وبلغ مجموع التبرعات قرابة «مائة ألف فرنك».

- 27 - كانت خطة التوسع عند الحركة السنوسية تستدعي من زعيمها محمد المهدي الانتقال نحو الجنوب وفق خطوات مرسومة، ومراحل معلومة لدى قادة الحركة، وتقرر لدى محمد المهدي الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة، وشرع في تنفيذ القرار الاستراتيجي بسرعة البرق، فجمعت الإبل الكافية للنقل، وخبراء الطريق، والأمتعة الضرورية.
- 28 - كان قرار انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة مفاجأة لأهالي ليبيا، واهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وترك أثراً حزيناً أليماً في النفوس.
- 29 - تولى المهدي السنوسي تصريف أمور الحركة من الكفرة، فبعجت بالحركة وأصبح أتباع الحركة يقدمون إليها من كل حذب وصوب، حتى ضاقت بهم مساكنها.
- 30 - تأثر محمد المهدي بوفاة أخيه محمد الشريف الذي كان عالماً ربانياً، ومستشاراً عبقرياً، وكان مشرفاً على معهد الجغبوب، وقد تميز بغزارة العلم ودقة الفهم، والقدرة على التدريس.
- 31 - استطاعت الحركة السنوسية أن تفجر طاقات الشعراء، وأضفت عليهم معاني في الصدق، والمثل الرفيعة، ومبادئ الدعوة، وكونت أدباً رفيعاً خاصاً بها، يستحق البحث والتنقيب، والدراسة والتحليل.
- 32 - بعد أربع سنوات من المكوث في الكفرة شد المهدي رحاله إلى زاوية قرو في برقو في السودان الغربي، ليشرف بنفسه على تنظيم المقاومة، واتخاذ الأهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد.
- 33 - تقدم الفرنسيون نحو كانم في حملة مجهزة بالأسلحة والمعدات الحديثة، واستعد السنوسيون لملاقاتهم فوضعوا حامية كبيرة في بير العلاللي، واشتبكت الحملة في معركة حامية الوطيس مع الإخوان السنوسيين، وكان النصر حليف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البراني.
- 34 - استمرت المعارك بين قوات المجاهدين والجيش الفرنسي، واضطر المجاهدون تحت وابل الرصاص للانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش الفرنسي أضعافاً مضاعفة، وفي هذه الأثناء وصل إلى المجاهدين خبر وفاة الإمام المهدي، فخارت العزائم، وضعفت الهمم، وكانت وفاة المهدي بعد أن اشتد المرض عليه، وكان ذلك في يوم الأحد 24 صفر 1320هـ الموافق 2 يونيو 1902م في زاوية قرو ثم نقل ودفن في زاوية التاج.
- 35 - كان محمد المهدي داعية من الطراز الأول، تجسدت في شخصيته صفات القادة الربانيين، وكان يهتم بأمر المسلمين، في كل صقع من أصقاع العالم، وكان يؤلمه أي خلاف إسلامي أو أي مشكلة تقع بين الأفراد، أو بين القبائل، فكان يولي هذه الناحية

- مجهودات كبيرة في فكره وتفكيره، ويتخذ كل الوسائل لإزالة سوء التفاهم بعلمه وآرائه، وتدبيره عاملاً على إحلال الصفاء والوثام محل الشقاق والخصام.
- 36 - ترك لنا أحمد رفيق المهدي قصيدة رائعة تحمل في كل بيت منها صورة واضحة لسيرة الزعيم الثاني للحركة السنوسية، وبينت إصلاحاته العلمية، والدينية، والعملية، والنظامية.
- 37 - تولى قيادة الحركة السنوسية بعد وفاة المهدي ابن أخيه أحمد الشريف الذي قاد كتائب الجهاد ضد فرنسا في تشاد، وضد إيطاليا في ليبيا، وضد بريطانيا في مصر.
- 38 - يتفق معظم المؤرخين بأن أحمد الشريف ولد بواحة الجغبوب ليلة الأربعاء بتاريخ 27 شوال سنة 1290هـ الموافق لسنة 1873م، انكب منذ طفولته على القراءة والتحصيل، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة.
- 39 - تربي أحمد الشريف في حجر والده العلامة محمد الشريف، وحينما ترعرع وبلغ السادسة من عمره دخل تحت كنف عمه المهدي السنوسي، فاهتم بتربيته وتهذيبه وأشرف عمه على تعليمه وتحفيظه للقرآن الكريم.
- 40 - شارك أحمد الشريف مع عمه في معارك الحركة ضد فرنسا في تشاد، ولما شعر محمد المهدي بدنو أجله، عهد إلى ابن أخيه بالقيادة لما توسم فيه من القدرة على الاضطلاع بأعباء الحركة.
- 41 - استمر أحمد الشريف على نهج زعماء الحركة السنوسية، فواصل الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، ونشر الدعوة الإسلامية بكل حكمة في إفريقيا، واتخذ من الكفرة عاصمة للحركة السنوسية، وأتاب عنه محمد السني لإدارة أمور الجهاد.
- 42 - كان الصراع بين فرنسا والحركة السنوسية في إفريقيا على أشده، وتميز السنوسيون في جهادهم بقدرتهم على الكر والفر، وكانت قبائل الصحراء والقبائل الليبية تتمحور حول قيادة الحركة السنوسية.
- 43 - كان من أشهر قادة الحركة السنوسية في جهادها ضد فرنسا: المجاهد محمد كاوصن، عبد الله السني، عبد الله فضيل، الطوير الزوي، البراني الساعدي، غيث عبد الجليل سيف النصر، محمد بو عقيلة الزوي، صالح بو كريم الزوي، كيلاني الأطيوش المغربي، عابدين الكنتي.
- 44 - استمرت إيطاليا أكثر من ثلاثين سنة وهي تجمع المعلومات وترسل الجواسيس، وتخطط لغزو ليبيا، وتتوغل بالمؤسسات التجارية، والمدارس العلمية لغزو بلادنا.
- 45 - كانت إيطاليا عازمة على احتلال ليبيا، وبذلت في سبيل ذلك جهداً كبيراً على مستوى

الولاية نفسها، بتعزيز مظاهر نفوذها أو على المستوى الدولي بالحصول على موافقة أغلب الدول الأوروبية على ذلك، إلا أن شدة تمسك الدولة العثمانية بالولاية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وقوة نفوذ الحركة السنوسية في دواخل ليبيا، وحسن التنسيق القائم بين الطرفين، كل ذلك أدى إلى تأجيل إيطاليا تنفيذ مشروعها الاستعماري العدواني الغاشم عام 1911م.

- 46 - في عام 1911م أعلنت إيطاليا الحرب على ليبيا وشرعت بواجها في قصف المدن الليبية، واستعد أهالي البلاد للجهاد في سبيل الله.
- 47 - بعد وصول خبر احتلال ليبيا لطرابلس، وقصفها لبقية المدن الليبية بأساطيلها، قام أحمد الشريف بجمع السادة، والشيوخ والعلماء، والقادة، وعرض عليهم الأمر واستشارهم، وخرج الأمر بتوجيه الشيوخ وعلماء الحركة بقيادة المجاهدين في كافة ساحات الوغى، وقال أحمد الشريف: «والله نحاربهم ولو وحدي بعصاتي هذه».
- 48 - تدفق أتباع الحركة السنوسية كالسيل الجارف على ميدان القتال في طرابلس، وفي منتصف يناير 1912م قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل ليبيا وأصدر نداءه المشهور يحث فيه أهالي البلاد على الجهاد ضد العدو المعتدي، ويعلن فيه نبأ اعتزام النزول بنفسه إلى ميدان القتال.
- 49 - اعترف السلطان العثماني بجهود أحمد الشريف، وأهداه في مارس 1912م سيفاً ونيشاناً مرصعاً بالجواهر مكافأة وتقديراً لجهوده في الجهاد.
- 50 - خلد التاريخ المعاصر أسماء المعارك التي قام بها الأجداد ضد إيطاليا في المنطقة الغربية من ليبيا من أهمها: معركة طرابلس، معارك الخمس، معركة الهاني، سيدي مصري، معركة قرقارش، معركة أبي كماش، معركة لبدة، معركة تاجوراء.
- 51 - أرسل أحمد الشريف أخاه صفي الدين ليتولى قيادة الجهات الغربية من برقة، وكان لإرساله فرحة عظيمة لدى القبائل المنضوية تحت لواء الحركة السنوسية، وقاد صفي الدين معركة عظيمة ضد إيطاليا بموقع «أبي هادي» واستمرت المعركة بشدة وعنفة عدة ساعات انجلت عن خسارة إيطاليا.
- 52 - كانت الانتصارات التي حققتها الحركة السنوسية محل الإعجاب والتقدير من أبناء ليبيا المخلصين، ولذلك اتصل كثير من القادة والشيوخ بصفي الدين، وكان رمضان السويحلي المجاهد الكبير على رأس أولئك الأبطال المغاوير.
- 53 - حقق المجاهدون نصراً عظيماً في معركة القرضابية، وبدأت قواتهم في تطهير البلاد من المعتدين، وتركت الحاميات الإيطالية حصونها بسهولة، وهامت على وجهها عبر التلال

- والسهول المحرقة الجافة، وحررت مزدة، والقصبات، وسرعان ما وصل المجاهدون إلى ابن غشير على بعد 15 ميلاً من طرابلس.
- 54 - حقق المجاهدون انتصاراً عظيماً على إيطاليا ولولا الشقاق والخلاف والنزاع الذي وقع بين رمضان السويحلي وصفى الدين السنوسي لأصبح الجهاد أمراً آخر.
- 55 - تولى محمد عابد السنوسي جهاد الجنوب في فزان والجفرة والنواحي الغربية من فزان، واتخذ من زاوية «واو» مركزاً للقيادة.
- 56 - قاد سالم بن عبد النبي الزنتاني حرب عصابات ناجحة في ولاية فزان، وأثنى في أعداء الله، وهاجم القاهرة وهي ربوة عالية في «سبها» يوجد بها حصن وسياج من المدافع والأسلاك الشائكة وأصبحت تلك القلعة منيعة جداً، واستطاع سالم بن عبد النبي فتحها بقواته المجاهدة عام 1914م، لقد أبلى أهل الجنوب بلاءً حسناً في جهادهم ضد إيطاليا.
- 57 - جاهد أهالي بنغازي عن مدينتهم دفاعاً مجيداً، وأظهروا من البطولة والشجاعة النادرة ما جعلهم محل التقدير من كل المسلمين، وسجلوا صفحات مجيدة خالدة في سجل التاريخ.
- 58 - توافدت النجادات العسكرية إلى مدينة بنغازي بقيادة شيوخ الحركة السنوسية، فوصلت كتيبة العرفا، وعددها ثلاثمائة مسلح يقودها الشيخ عمران السكوري، وتلتها بقية النجادات التي جاء بها زعماء القبائل وشيوخ الزوايا من كل حذب وصوب.
- 59 - صممت الدولة العثمانية على المقاومة حفظاً لماء الوجه أمام الرأي العام الإسلامي، فأرسلت نخبة من ضباطها وقوادها المشهورين، لتقوية روح المقاومة والدفاع، وتدريب المجاهدين وتعليمهم كيفية استعمال الأسلحة الحديثة والمعدات.
- 60 - كان من أبرز قادة الأتراك الذين أرسلتهم الحكومة العثمانية كل من: الرائد أنور بك، ومصطفى كمال، فتحي أوفيار، وخليل بك عم أنور بك، وفؤاد بولجا قاش باشي، سليمان العسكري، وعزيز علي المصري، أدهم باشا الحلبي.
- 61 - تفاعل العالم الإسلامي مع البطولات العظيمة التي حققها المجاهدون في ليبيا، وقامت الشعوب الإسلامية بواجبها نحو إخوانهم في الدين.
- 62 - أدركت إيطاليا عجزها عن إتمام احتلال بقية ليبيا، ولذلك قررت أن تهاجم الدولة العثمانية في مراكزها الضعيفة لترغمها على الدخول في المفاوضات للوصول إلى تخلي تركيا عن دعمها لليبيا ونجحت في ذلك.
- 63 - كان موقف أحمد الشريف واضحاً قبل توقيع الصلح بين إيطاليا وتركيا، فقد بعث إلى أنور باشا في درنة يذكر فيه ما وصله من أن الدولة تعترم إعطاء ليبيا إلى إيطاليا، فقد جاء

في رسالته: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه» إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو، وزيادة حذره مما سوف يحدثه قبول الصلح في نفوس المسلمين في جميع الأقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية.

64 - قامت الدولة العثمانية بتنفيذ معاهدة أوشي، فأصدرت أوامرها لضباطها وجنودها في ليبيا للانسحاب.

65 - تولى القيادة الفعلية لحركة الجهاد بعد خروج أنور باشا أحمد الشريف الذي بذل كل جهوده لتنظيم حركة الجهاد بعد انسحاب الأتراك، وكتب منشوراً إلى مشايخ الزوايا والقبائل يعلن فيه استمرارية مواصلة الجهاد، وطلب من كل مسلم من سن الرابعة عشرة حتى الخامسة والستين أن يذهب إلى ميدان الجهاد مزوداً بمؤناته وسلاحه.

66 - عزم الإيطاليون على سحق قوات أحمد الشريف، فدبروا تنظيم حملة قوية قوامها خمسة آلاف جندي مسلح تسليحاً حديثاً لضرب معسكري المجاهدين في سيدي عزيز، وسيدي القرباع على ضفتي وادي درنة، وفي اليوم الذي وصل فيه أحمد الشريف إلى منطقة الظهر الأحمر جرت معركة مهولة عرفت باسم القرباع، واشتهرت باسم «يوم الجمعة» وقد تمكن المجاهدون بفضل الله من تحقيق الانتصار الحاسم في تلك المعركة.

67 - بعد تلك المعركة شرع أحمد الشريف في جولات تفتيشية ابتدأت من الغريان، وانتهت بجداية، فمر بجميع معسكرات الجبل الأخضر، وفتشها واطلع على سير الأمور فيها، ورتب أمور الضباط، ونظم المجالس الاستشارية، والمعسكرات، ووقعت معارك بين الطليان والمجاهدين أثناء مروره بدواخل البلاد، فاشترك في الكثير منها، لقد طاف أحمد الشريف بين المدن والقبائل يحض الناس على الجهاد وحمل السلاح ضد الغزاة، وحضر بنفسه في المعارك، ونبه المجاهدين إلى ضرورة اعتماد حرب العصابات القائمة على الكر والفر، وأكد لهم صعوبة اعتماد الخطط السابقة التي كان الأتراك يعتمدونها خلال المراحل الأولى.

68 - حاولت إيطاليا أن تضغط على أحمد الشريف بواسطة الخديوي عباس باشا بعد أن فشلت جميع وفودها التي كانت تتوافد على المجاهد أحمد الشريف وتعرض عليه أن تضمن له إمارة هو تحت سلطانه، وتحفظ هي بالموانئ والثغور الساحلية، فضرب بقولها عرض الحائط.

69 - استمر المجاهدون في جهادهم بالرغم من احتياجاتهم ونواقصهم الحربية، والضغط الخارجي التي تدفعهم لوقف مسيرة الجهاد.

- 70 - بدأت ملامح الحرب العالمية الأولى تلوح في الأفق، وكان أحمد الشريف يقظاً لما يجري حوله، فأقام معسكرات التدريب، ورسم خطة للدفاع، وحماية الشعب، والاستعداد للجهاد، وشرع في تشكيل جيش نظامي مدرب، ليخوض به غمار حرب طويلة المدى ضد العدو الصليبي الإيطالي، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى بدأت الدول تتسارع وتتسابق لكسب ود أحمد الشريف وقواته المجاهدة.
- 71 - كانت القوى المهتمة بكسب أحمد الشريف إلى جانبها هي تركيا، وألمانيا بالدرجة الأولى وبريطانيا ومصر بعد ذلك.
- 72 - كانت بريطانيا حريصة على استمالة أحمد الشريف إليها قبيل الحرب العالمية الأولى، وزاد حرصها بعد اندلاع الحرب الكونية، وحفظ التاريخ بعض الرسائل من القادة الإنكليز في مصر مرسله إلى أحمد الشريف.
- 73 - بعد دخول تركيا الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا، رأت الحكومات التركية والألمانية الاستفادة من جهود السنوسيين لتشتيت القوات الإنجليزية وفق خطة لاحتلال قناة السويس وتطهير مصر من الوجود الإنكليزي.
- 74 - أقحم الأتراك أحمد الشريف في حربهم ضد الإنجليز رغم رفض أحمد الشريف بشدة في البداية، لأنه كان على يقين أن ذلك الهجوم لا يتماشى مع مصلحة بلاده، فإن الأتراك والألمان كانوا ينظرون إلى الحرب في شكلها المتكامل، والتي لا تمثل طرابلس إلا جبهة فرعية في تلك الإستراتيجية.
- 75 - فشلت هجمات الأتراك على القوات الإنجليزية في القناة وفي الصحراء الغربية، وتدهورت الحالة الاقتصادية في برقة وساعدت تلك الظروف في ظهور الأمير إدريس على مسرح الأحداث، بعد أن أصبحت حاجة البلاد إلى قيادة جديدة تتولى معالجة تلك المواقف.
- 76 - فشلت حملة أحمد الشريف في تحقيق أهدافها لعدة أسباب منها: الضعف العسكري، والضعف الاقتصادي، وعدم التخطيط الإستراتيجي... إلخ.
- 77 - كان رأي الأمير إدريس السنوسي بأن الحرب ضد بريطانيا لا تحقق أية نتيجة، وعلى السنوسيين استغلال الظروف الدولية لتحقيق استقلال ليبيا، وكان يرى أن بريطانيا هي المؤهلة لأن تأخذ على عاتقها إنجاز هذا الأمر.
- 78 - كان لفشل حملة أحمد الشريف آثار سلبية على سير حركة الجهاد في برقة ضد القوات الإيطالية نذكر منها: ضاعت فرصة مواصلة القتال ضد إيطاليا، تزعزعت العلاقات الروحية التي كانت تربط أحمد الشريف بالقبائل المصرية بسبب المواجهة بين الطرفين

وسقوط القتلى من كل جانب، انقطع الشريان الاقتصادي لحركة الجهاد وسدت المنافذ المصرية.

- 79 - غادر أحمد الشريف ليبيا إلى إستانبول بواسطة غواصة ألمانية إثر طلب من الحكومة التركية ليقوم أحمد الشريف بفتح المفاوضات بينها وبين الشريف حسين بن علي أمير مكة الذي أعلن الانفصال عن الدولة التركية.
- 80 - وصل أحمد الشريف إلى تركيا واستقبله كبار رجال الدولة استقبالاً حافلاً ورسمياً في «سرکه جي» حضره بعض المسؤولين العثمانيين يتقدمه صديقه أنور باشا وزير الحربية العثمانية.
- 81 - دخلت جيوش الحلفاء إلى إستانبول واستولت على عموم الولايات والموانئ وعقدوا العزم على إبادة تركيا، وتشتيتها وتقسيمها، وأراد الإنكليز أن يستغلوا هذا الظرف لصالحهم وبدأوا في تنفيذ مخططهم الهادف إلى تدمير الدولة العثمانية.
- 82 - ظهر مصطفى كمال في ثوب المسلم الوطني المتدين الثائر وأصبح السلطان تحت قيود الحلفاء وأصبحت تركيا تحت زعامتي مصطفى كمال، والسلطان وحكومته، وعمل مصطفى كمال على كسب أحمد الشريف لصفه لعلمه لما كان له من المكانة الروحية في قلوب المسلمين، وكان مصطفى كمال ابتداءً حركته باسم الدين حتى أنه أمر بإحراق جميع الخمور وتكسير أدواتها، ومعاملها، وإبعاد جميع النساء المومسات، وإغلاق دور الدعارة، وأصدر أوامر شديدة بلزوم المحافظة على الصلوات في وقتها.
- 83 - قرر أحمد الشريف بعد تفكير طويل الذهاب إلى الأناضول والانضمام إلى مصطفى كمال رغم ما جاء من الرسل والرسائل من طرف السلطان وحكومته يحذرونه من الانخداع بمظاهر مصطفى كمال المصطنعة وادعاءاته الكاذبة.
- 84 - كان انضمام أحمد الشريف نصراً عظيماً لمصطفى كمال؛ لما له من المنزلة الروحية الكبيرة في قلوب مختلف الشعوب الإسلامية وكان الناس يعتقدون أن أحمد الشريف لا يميل إلا إلى الجبهة التي على الحق.
- 85 - ساهم أحمد الشريف بطلب من مصطفى كمال في إخماد ثورة الأكراد وخرج إليهم والتقى بشيوخهم ودعاهم إلى الوحدة والوقوف صفاً واحداً ضد أعداء الدين.
- 86 - بعد الانتهاء من حروب اليونان تهيأت القوات الكمالية لدخول ولاية إستانبول وبعد حصار دام ما يقارب من الأربعة أشهر، ومحاولات طويلة مع دول الحلفاء، تم الاتفاق على إخلاء إستانبول من قوات الاحتلال، ودخلت القوات الكمالية إستانبول ثم تدرجت حكومة مصطفى كمال بعد أن تمكنت من الوضع وخلعت الخليفة الصوري عبد المجيد، وأبعدته كما أبعدت كل من له صلة أو محبة أو انتماء لآل عثمان.

- 87 - بدأت نوايا مصطفى كمال الشريعة تظهر رويداً رويداً، فتدخل في الأحكام وغير القوانين الشرعية، فانزعج أحمد الشريف غاية، وغضب نهاية، وحاطب مصطفى كمال وقال له: إننا والمسلمون لم نناصرك، ونقف معك إلا لأجل حفظ كيان الدين الإسلامي.
- 88 - من طرف خفي بدأت السلطات التركية تضايق أحمد الشريف، وتعد عليه أنفاسه، وأحكمت الرقابة على كل من له تعلق بالسيد، أو يزوره، وانتهى الأمر بإخراجه من تركيا وسافر إلى الشام.
- 89 - اشتد ضغط الحكومة الفرنسية على أحمد الشريف للخروج من الشام وانتهى به المقام بالحجاز وأصبح ينتقل بين المدينة ومكة المكرمة ويتصل بأهل ليبيا عن طريق الحجاج ويجمع لهم الأموال والمساعدات ويقوم بتوجيههم خير قيام.
- 90 - توفي أحمد الشريف في تمام الساعة الثامنة من يوم الجمعة 13 ذي القعدة سنة 1351هـ الموافق العاشر من شهر مارس سنة 1933م في الزاوية السنوسية في المدينة المنورة إثر مرض عضال لم يمهله، ودفن في مقبرة البقيع قرب قبر الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة بعد أن عاش إحدى وستين سنة قضاها في خدمة الإسلام والمسلمين، ورفع شأن الدين، ومجاهدة الكافرين الغاضبين في شتى الميادين، فعليه وعلى أمثاله الرحمة والمغفرة والرضوان من رب العالمين وأعلى الله ذكره في المصلحين.
- 91 - هذه هي الخلاصة التي وصلت إليها، وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفاً من الإطالة والإطناب.
- وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمال الصالحة التي أتقرب بها إليه وأن لا يحرم إخواني الذين أعانوني على إكماله من الأجر والثوبة، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].
- وبقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات	أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي	والخير أن يأتينا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة	ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً	كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آت

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»

«وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»